

السيرة النبوية

محمد رسول الله  
والذي معه

---

نخزوة تبوك

عبد الحميد جوده النوار



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله  
ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا  
لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا  
لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون ﴿

( صدق الله العظيم )

كان قسطنطين يجوس خلال بيزنطة وقد لفها سواد الليل ، وراح النسيم يهب رخاء فينعمش الأفقدة ويحرك الأخيلة ، وساد الصمت لحظات شرد فيها الخيال ، ثم ما لبث الإمبراطور أن التفت إلى رجال حاشيته وقال :

— إن ربة المدينة أوحى إلي أن أبني هنا مدينة عظيمة تتوارى روما منها خجلا .

وقامت الاحتفالات بمولد مدينة القسطنطينية ، وعملت السواعد القوية وأنفقت الأموال وصدرت الأوامر إلى الحكام في أقصى الولايات لإنشاء المعاهد الفنية لتخرج صناع مهرة ينهضون بالأعمال الهندسية التي تحتاج إليها مدينة الآمال . وارتفع البناء وأقيمت أقواس النصر ، وجلبت النفائس من مدن اليونان وآسيا ، ونصب تمثال أبوللو في وسط الميدان . ودعا الإمبراطور أعضاء السيناتو للإقامة في مدينته العظيمة فلبى بعضهم الدعوة وهجروا روما ، وشد أغنياء الولايات الرحال إلى مدينة الإمبراطور .

وراح قسطنطين يزين معابد الآلهة ، وأصدرت دار السك الإمبراطوري ميداليات تزدان بصور جوبيتر وأبوللو ومارس وهرقل . وكان قسطنطين يتהל بالفرح عندما يمثلونه يرموز أبوللو إله النور والشعر ، وقد زخرت مذابح أبوللو بما قدم من فرائين وندور .

وكانت المسيحية تتسلل إلى قلوب الرومان فإذا ما اكتشف أمرها أنزل

الآباطرة بمعتقداتها أقسى أنواع العذاب ، ونجح قسطنطين في فتح إيطاليا . ومال قلبه إلى الدين الجديد فأصدر مرسوم ميلان ، مرسوم التسامح مع رعاياه المسيحيين ، فأعاد السلام إلى الكنيسة الكاثوليكية وأقر الحرية الدينية ، فأصبح حبيب السماء ونائب الله في الأرض .

وأجل قسطنطين تعميده فالتعميد قضاء مبرم على الذنوب وعودة النفس إلى طهارتها الكاملة وجدارتها بالوعد بالخلاص الأبدي . إنه شعيرة لا تتكرر فراح يشبع شهواته في حرية مطلقة وإن تظاهر بالبحث عن جوهر الحقيقة . حتى إذا ما تمدد على فراش مرضه الأخير دعا الأساقفة إلى قصر نيقوميديا لتعميده ، ثم زعم أنه سيقضى بقية حياته في نسك يليق بتلميذ للمسيح . لم تدنس عاصمة الشرق الجديدة بعبادة الأوثان فقد رفع قسطنطين المسيحية على عرش العالم الروماني ، فراحت روما تحاكي القسطنطينية فعمد فيها اثنا عشر ألف رجل في سنة واحدة ، وكان الإمبراطور يمنع كل من يتحول إلى المسيحية رداء أبيض وعشرين قطعة ذهبية . وسار الإنجيل في ركاب الجيوش وفي قوافل التجارة وفي السفن فانتشر فيما وراء حدود الولايات الرومانية . ورحب المتبربرون بالدين الجديد الذي اعتنقه أعظم ملك وأعظم إمبراطورية على وجه الأرض . وأصبح الصليب مقدسا بين القوط والألمان الذين انضموا تحت لواء روما .

أعاد مرسوم التسامح الأمن والراحة بين المسيحيين ، ولكن سرعان ما دب الشقاق بين العالم المسيحي ، ففى الإسكندرية قام أريوس بقول إن « كلمة الله » كان خلقا تلقائيا معتمدا على غيره ، خلقت إرادة الآب من العدم . وهذا الابن الذي صنع كل شيء قد ولد قبل العوالم ، وأن أطول الأزمنة الفلكية لا تملأه أن تكون لحظة عابرة إذا قورنت بمدى وجوده . غير أن هذا الوجود

لم يكن أزليا بل لقد كان هناك زمن سابق لخلق « كلمة الله » ، وهو خلق لا يمكن وصفه أو التعبير عنه . ولقد نفخ الآب سبحانه في ابنه الوحيد من روحه وغمره في فيض من نور مجده وعظمته ، ولقد رأى هذا الابن — وهو صورة منظورة لكمال غير منظور — على مسافة غير محدودة القياس تحت قدميه ، عروش ألمع رؤساء الملائكة . غير أن الضوء الذي كان يشعه كان منعكسا عليه ، وكان يحكم العالم خضوعا لإرادة أبيه ومليكه شأنه في ذلك شأن أبناء أباطرة الرومان الذين كانوا يمنحون لقب قيصر ولقب أوغسطس . ولم يعجب ذلك الرأي كنيسة القسطنطينية فقام معارضون لآريوس يقولون إن « كلمة الله » يمتلك كل الكمال الكامن الذي لا يمكن أن ينتقل إلى غيره ، وأن الجوهر الإلهي يتألف من ثلاثة عقول أو ثلاث مواد مميزة ولا نهاية لها ، وهي كائنات تشترك في أنها متساوية وأبدية ، وإنه لمن التناقض أن يقال إن أيها منها لم يكن له وجود أو أن وجودها سوف ينتهي يوما ، ولقد حاول أنصار هذا الفرض الذي يبدو أنه يشكل ثلاثة آلهة مستقلة ، أن يقولوا على وحدة « خالق الكل » الذي يبرز دوره الملهم في شكل الدنيا ونظامها بقولهم إن هذه الآلهة الثلاثة متفقة اتفاقا دائما في عملها وفي التطابق الجوهرى لمشيئتها .

وظهر رأى ثالث يقول بوجود ثلاثة كائنات تملك بحكم الضرورة المستمدة من ذواتها كل الصفات الإلهية في أسمي درجاتها ، وهذه الكائنات الثلاثة أبدية في زمانها لا نهائية في مكانها ، وثيقة الوجود بعضها مع بعض وفي الكون كله . ومن ثم فهي تفرض نفسها على العقل الحائر باعتبارها كائنا واحدا وحيدا يستطيع في نطاق الكياسة وفي نظام الطبيعة أن يتجلى في أشكال مختلفة ، ويمكن أن ينظر إليه من جوانب مختلفة . ويمقتضى هذا الفرض يسمو الثلاث المادى الحقيقى ويصبح تثليثا من حيث الأسماء ومن حيث الصفات

المجردة التى لا تبقى إلا فى العقل الذى يفهمها . وهكذا لا يعود « كلمة الله » شخصا بل صفة . أما صفة « الابن » فلا تنطبق إلا مجازا على العقل الأزلى الذى كان مع الله منذ البدء ، ذلك العقل الذى صنع كل شيء . ويغلو تجسيد « كلمة الله » مجرد وحى من الحكمة الإلهية هبط على الإنسان « يسوع » فملأ جوانب نفسه وهدى كل أعماله .

وأخذ الناس يدورون فى الدائرة اللاهوتية . وانقسمت إمبراطورية الرومان والولايات الخاضعة لها حول الثلاث فرأى قسطنطين أن يضع حدا لذلك الانقسام الذى يهدد إمبراطوريته بالتصدع ، فابتدع بدعة المجمع الدينية لحسم الخلافات بين المذاهب المتناحرة ، فاجتمع مجمع نيقية وأقر المجمع مبدأ أن الآب والابن من جوهر واحد ، ووافقت على ذلك الكنائس اليونانية واللاتينية والكنائس الشرقية وكنائس البروتستانت . ثم تتابعت المجمع فمجمع نينوى مذهب الطبيعة الواحدة ، ثم يأتى مجمع آخر فيقبله ، ومجمع يصف أتباع أريوس بالمروق ، ومجمع آخر يكيل لهم المديح .

وجاء قسطنطيوس بعد أبيه قسطنطين فلم يستخدم سلطانه فى التوفيق بين الأحزاب بل شجع الخلافات التى أثارها فضوله الأجوف ، وأجج نيران المهارات الكلامية ، فامتلات الطرق بجماعات من الأساقفة يهرعون من كل فج إلى اجتماعات المجالس الكنسية ، ويعملون جاهدين على إخضاع الطائفة كلها إلى آرائهم الخاصة ، فكاد الخراب يحل بكنائسهم العامة نتيجة رحلاتهم التى كانت تستهدف البحث عن العقيدة الصحيحة .

كان قسطنطيوس معارضا للعقيدة التى أقرها مجمع نيقية ، فكان بمقت مذهب الطبيعة الواحدة فشهر سيفه لمحاربة تلك العقيدة وفرض على العالم عقيدة التشابه بين الآب والابن دون الإشارة إلى أنهما من مادة واحدة .

ومرت الأيام والعداوة تشتد ضراوة بين المسيحيين ، ومزقت مملكة الله الخلافات وسمت طائفة نفسها الأرثوذكس : أصحاب المذهب الصحيح ، وأطلقت على من عداها اسم الهرطقة . واستمرت الخلافات بين الشرق والغرب واتسعت الهوة بين المذاهب المتنافرة المتطاحنة ، وتشعبت حتى أصبح التوفيق بينها ضربا من الحال .

وفي ذلك الوقت كانت الحنيفية التي جاء بها إبراهيم خليل الرحمن قد فسدت في جزيرة العرب فعبد الناس الأصنام ، وقد أقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الإعادة وأنكروا الرسل ، وحجوا إلى الأصنام ونحروا لها القرابين وقربوا الهدايا ، وتقربوا إليها بالمناسك والمشاعر ، وأحلوا وحرموا ، وكانوا يعتقدون بعبادة الأصنام عبادة الله تعالى والتقرب إليه لكن بطرق مختلفة : فرقة قالت ليست لنا أهلية لعبادة الله تعالى بلا وساطة لعظمته فعبدناها لتقربنا إليه ، وفرقة قالت : الملائكة ذوو جاه ومنزلة عند الله فاتخذنا أصناما على هيئة الملائكة ليقرّبونا إلى الله . وفرقة قالت جعلنا الأصنام قبلة لنا في عبادة الله تعالى كما أن الكعبة قبلة في عبادته ، وفرقة اعتقدت أن على كل صنم شيطانا موكلًا بأمر الله فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حوائجه بأمر الله وإلا أصابه الشيطان بنكبة بأمر الله .

واعتق فريق من العرب المجوسية أخذوها عن الحيرة ، فقالوا الصانع اثنان ، ففاعل الخير نور وفاعل الشر ظلمة ، وهما قديمان لم يزا ولا ولن يزا قوين حساسين مدركين سميعين بصيرين . وهما مختلفان في النفس والصورة متضادان في الفعل والتدبير ، فالنور فاضل حسن نقى طيب الريح حسن المنظر ونفسه خيرة كريمة حكيمة نفاعه منها الخيرات والمسرات والصلاح وليس فيها شيء من الضرر ، والظلمة على ضد ذلك من الكدر والنقص وتتن الريح وقبح

المنظر ، ونفسها نفس شريرة بخيلة سفية منتنة مفسدة منها الشر والفساد .  
وكانت اليهودية في يثرب وقد انتشرت منها إلى اليمن . وكانت النصرانية في  
ربيعة وغسان وبعض قضاة ، وقد اجتمع على النصرانية في الحيرة قبائل شتى  
من العرب ودخلت الحبشة في المسيحية . وأراد نصارى الحبشة أن يتصلوا  
بنصارى الشام وأن يرفعوا الصليب على جزيرة العرب فبعث النجاشي قائده  
أبرهة ليقوض الكعبة بيت العرب المقدس الذي تجمع حوله كل القبائل العربية  
وإن اختلفت مذاهبها ، فانطلق أصحاب الفيل ليزيلوا من الوجود أول بيت  
وضع للناس ليكون منارة التوحيد فأرسل الله عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم  
بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول .

أباد الله أصحاب الفيل لأن إرادته شاعت أن يفيض نور الهداية مرة ثانية من  
بيته العتيق على العالمين ، فما إن اندحر جيش المعتدين حتى ولد الهدى في البلد  
الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا ، وانقضت أربعون سنة وأوحى الله إلى  
عبده ما أوحى ، فقام محمد بن عبد الله يدعو قومه إلى سبيل ربه بالموعظة  
الحسنة .

وآلت مقاليد الإمبراطورية الرومانية إلى هرقل . وقد جاءه المنجمون  
والعرافون ليقروا له طوابع عصره فقالوا له في حزن عميق إن ملكه سيزول  
على يد شعب مختون . وفكر هرقل ودبر فلم يجد شعبا مختونا غير اليهود يمكن  
أن يهدد ملكه ، فصب عليهم سوط عذاب وأذاقهم من الاضطهاد ألوانا .

وقام محمد — ﷺ — ينذر قومه ويلفهم رسالة ربه ، فكان صراع بين  
الهدى والضلال ، وكانت الهجرة وكانت الحروب بين الأنصار والمهاجرين  
وبين كفار مكة ، وكانت انتصارات الإسلام الباهرة ، حتى إذا ما وقع صلح  
الحديبية بين المسلمين وقريش أرسل — ﷺ — الرسل إلى ملوك الأرض

يدعوهم إلى الإسلام .

وذهب دحية الكلبي إلى الشام يحمل كتاب رسول الله ﷺ — إلى هرقل عظيم الروم يدعو فيه إلى الإسلام ، فقابل هرقل دحية بالترحيب وبعث معه هدايا لرسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، ولكن ما إن غاب دحية عن عينيه حتى عادت النبوة القائلة بأن شعبا مختونا سيستل منه الملك توريته ، فالعرب الذين بعث الله فيهم رسولا منهم شعب مختون ، وإن النبوة لقادرة على أن تجمع أشتات هذا الشعب ، وهي قادرة على أن تحمله إلى غزو العالم وتقويض الإمبراطوريات التي نخر فيها سوس الفساد . فبيت هرقل النية على مناصبة الأمة التي بدأت تلتف حول رسولها العداء ، وعزم على أن يطعن طعنة قاضية قبل أن يشتد ساعدها .

وجمع هرقل الجموع ، وبلغ رسول الله ﷺ — أن إمبراطور الروم يتأهب لغزو بلاده . إنه عليه الصلاة والسلام يمقت أن يبدأ بالعدوان وهو محب للسلام ، ولكنه لا يستطيع أن ينتظر حتى يدمه عدوه في عقر داره ، فأرسل جيشا بقيادة زيد بن حارثة للقاء هرقل وكانت غزوة مؤتة ، وحارب جيش الأمراء حربا لا هوادة فيها ولم تكن القوى متكافئة ، فانصرف خالد بن الوليد بالناس . فلما أقبل بهم قافلا جعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون : — يا قرار ، فررت في سبيل الله .

فيقول رسول الله ﷺ :

— ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى .

وكان فتح مكة ، واتفقت كلمة العرب لأول مرة منذ أن نشأ المجتمع المكي حول بئر زمزم ، وكانت الوحدة فعادت مخاوف هرقل تقلقه ، فها هو ذا شعب مختون فتي يرفع رأسه ويتأهب ليزحف ليحتل مكانه بين العالمين . إنه الشعب

الذى تنبأ المنجمون بأن نهاية ملكه ستكون على يديه ، فراح يجمع الجموع  
ليطيح بذلك الشعب قبل أن تثبت أقدامه على الأرض .  
وبلغ رسول الله — ﷺ — أن هرقل يتأهب ليعاود الكرة ويسير إلى يثرب  
ليطمئن قلب الإسلام فعمد — ﷺ — العزم على أن يخرج بنفسه لتحطيم غرور  
الرومان وليرشد أتباعه إلى طريق الانطلاق .

الحر شديد والعرق يتفصد من الأجسام ، والناس في عسرة فقد انتشر الجذب في البلاد . وبرقت في النفوس بارقة أمل فقد أينعت البساتين وطابت الثمار ، فهوت أنفُس الناس إلى المقام في ثمارهم وظلالهم . وراح — ﷺ — يَأْتِي القوم ويقول هم إن الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام ، وإن هرقل قد ررق أصحابه لسنة ، وإن لحم وحذام وعاملة وغسان قد خرجت معه وقدموا مقدماتهم إلى اللقاء .

ونذب رسول الله — ﷺ — الناس إلى الخروج وكان عليه السلام قلما يخرج في غزوة إلا كُنِيَ عنها وورى بغيرها إلا ما كان من هذه الغزوة لبعث الشقة وشدة الرمن وكثرة العدو ولْيَأْخُذْ الناس أهبتهم ، وأمر الناس بالجهاز فراحوا يتجهزون وقد عادت عروة مؤتة إلى الذاكرة ؛ لقد قتل فيها ريد بن حارثة وعبد الله بن رواحة وجعفر بن أبي طالب أمراء الجيش ، وقد استطاع خالد بن الوليد أن يقفل راجعا بجيش المسلمين بعد خدعة بارعة خدع بها جيوش الرومان .

كان المؤمنون يتحرقون شوقا للقاء الأعداء ليثأروا مقتل إخوانهم ، وكان المارقون يجاهدون لبث روح اهزيمة في صفوف المسلمين . وبعث عليه السلام إلى مكة وقبائل العرب ليستنفرهم ، وحض أهل العبي على الفقة والحمل في سبيل الله ، فإذا بالرجال الذين أصاء الله قلوبهم بأنوار اليقين يتدفقون على

المدينة من كل حذب ، وإذا بالصدقات تحمل من مكة ومن القبائل إلى مدينة الرسول ، وإذا بأناس يتشاقلون إلى الأرض .

وذاث يوم وبيننا رسول الله ﷺ — يتجهز لغزو الروم ، قابل الجد بن قيس — أحد بنى سلمة — فقال له :

— يا جد هل لك العام في جلاد بنى الأصفر ؟

— يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني ؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشدُّ عُجبا بالنساء مني . وإني أخشى إن رأيت ساء بنى الأصفر ألا أصبر .

فأعرض عنه — ﷺ — وقال :

— قد أذنت لك .

ولامه ولده عبد الله وقال له :

— والله ما يملك إلا الفاق . سيزل الله فيك قرآنا .

فأخذ نعله وضرب به وجه ولده .

فأنزل الله في الحد بن قيس : « ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » (١) .

فقال له ولده :

— ألم أقل لك ؟

— اسكت بالكع (٢) ، فوالله لأنت أشدُّ علي من محمد .

وراح المنافقون يشون سموهم ويمحون (٣) للباس فحيح الأفاعي

(١) التوبة ٤٩ . (٢) اللعك : اللعيم .

(٣) الفحيح : صوت الأفعى .

ويقولون هامسين :

— لا تنفروا في الحر .

كانوا ينسلون في حذر ويتهايمسون وهم يتلفتون حتى لا يصل مسمهم إلى مسامع الرسول عليه السلام أو مسامع أصحابه المحنطين . كانوا يرجون أن ينجحوا في إلقاء بذور الزهادة في الجهاد في قلوب المؤمنين دون أن يفتضح أمرهم ، ولكن الله كشفهم وأنزل فيهم : ﴿ وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون ﴾ فليضحكوا قليلا وليسكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون ﴿ (١) .

وبلغ رسول الله ﷺ — أن ناسا من المنافقين يجمعون في بيت سويلم اليهودي يشبطون الناس عن رسول الله ﷺ — ، فبعث إليهم طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم . وانطلق طلحة والذين معه إلى الدار وأشعل فيها النار ، فاخلعت قلوب من فيها وهبوا مفزوعين يريدون النجاة فافتحم الضحّاك بن خليفة من البيت فانكسرت رجله ، وافتحم أصحابه فأفلتوا ، فقال الضحّاك في ذلك :

كادت وبيت الله نأر محمد

يشبط بها الضحّاك وابن أبيرق

وظلت وقد طبقت (٢) كيس (٣) سويلم

أنوء على رجلي كسرا ومرقسي

(٢) طبقت : علوت .

(١) التوبة ٨١ ، ٨٢ .

(٣) كيس : البيت الصغير .

سلام عليكم لا أعوود لثلهما

أخاف ومن تشمل به النار يحرق  
وأخذ عليه السلام يحض أهل الغنى على النفقة والحمل في سبيل الله ، فأنفق  
عثمان بن عفان نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلاً ، فإنه جهز عشرة آلاف أنفق  
عليها عشرة آلاف دينار غير الإبل والحيل — وهي تسعمائة بعير ومائة فرس  
— والرأد وما يتعلق بذلك حتى ما تربط به الأسقية ؛ وعند ذلك قال —  
ﷺ :

— اللهم ارض عن عثمان فأرى عنه راض .  
وظل من أول الليل إلى أن طلع الفجر رافعا يديه الكريميتين يدعو لعثمان بن  
عفان .

وجاء عثمان بن عفان بألف دينار فصحبها في حجر البى — ﷺ — ، فجعل  
رسول الله — ﷺ — يقلبها بيديه ويقول :

— ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم .. ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم .  
وكان أول من جاء بالفقعة أبو بكر الصديق ، جاء بجميع ماله أربعة آلاف  
درهم . فقال له رسول الله — ﷺ :

— هل أبقيت لأهلك شيئا ؟

— أبقيت لهم الله ورسوله .

وجاء عمر بن الخطاب بصف ماله ، فقال له رسول الله — ﷺ :

— هل أبقيت لأهلك شيئا ؟

— النصف الثانى .

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية ، فقد كان عثمان بن عفان وعبد  
الرحمن بن عوف خزانين من خزان الله في الأرض ينفقان في طاعة الله تعالى

وجاء العباس عمال كثير ، وجاء طلحة بما عنده ، وبعثت النساء بكل ما يقدرن عليه من حلين ، وتصدق عاصم بن عدى بسبعين وسقا من تمر .

وجاء عبد الله ذو البجادين إلى رسول الله ﷺ — وقال :  
— يا رسول الله ادع لي بالشهادة .

فقال — ﷺ :

— اتنني بلحاء ( قشرة ) شجرة .

فأتاه بذلك فربطه — ﷺ — على عضده وقال :

— اللهم حرم دمه على الكفار .

— يا رسول الله ليس هذا ما أردت .

— إيلك إذا أخذتلك الحمى فقتلتك فأنت شهيد .

ولم يكن لعبد الله إلا مجاد واحد<sup>(١)</sup> ، فشقه نصفين فأترز بواحد وارتنى بالآخر . وقدم المدينة وأسلم وقرأ قرآنا كثيرا وكان اسمه عبد العزى فسماه رسول الله ﷺ — عبد الله .

وأناه أصحاب مسجد الضرار فقالوا :

— يا رسول الله إنا قد بنينا مسجدا لدى العلة والحاجة والليلة المطيرة

والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه .

— إني على جناح سفر وحال شغل ، ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا

لكم فيه .

وجاء — ﷺ — سبعة أنفس من فقهاء الصحابة كانوا متشوقين للغزو في

سبيل الله ، ولكنهم كانوا أفقراء لا يجدون ما يركبون فسألوه أن يحملهم ، فقال — ﷺ :

— لا أجد ما أحملكم عليه .

---

(١) البجاد : الكساء المخطط الغليظ .

فتولوا وأعيىهم تقيض من الدمع حزنا أن لا يجذوا ما يفقون . ورأى العباس بكاء الكائين فتأثر غاية التأثر فحمل منهم اثنين ، وحمل منهم عثمان بن عفان ثلاثة ، وحمل ياميز بن عمرو البصري اثنين دفع لهما باضحا له وزود كلا منهما صاعين من تمر .

وكان هالك أناس آخرون يتحرقون شوقا للخروج مع رسول الله ﷺ — لقتال الروم ، وكان يقدمهم عن التجهز أنهم لا يملكون ناقة ولا بعيرا ، فالشقة بعيدة والحر شديد وما يستطيع رجل أن يطوى المسافة بين يثرب وتبوك على قدميه . وكان أبو موسى الأشعري وبعض أصحابه يجلسون مطرقين قد نزل بهم هم ثقیل ، فهم يرون إخوانهم يتأهبون للخروج بينما هم لا يجدون مطية تحملهم ليطلقوا مع رسولهم الكريم .

وانجهدت الأبصار إلى أبي موسى ، فرسول الله ﷺ — بصت إليه وهو يرتل القرآن ترتيلا حتى إذا ما انتهى من تلاوته يقول له عليه السلام : « إنك مزمار من مزامير داود » . وطلبوا منه أن يطلق إلى رسول الله ﷺ — يسأله الحملان لهم :

وذهب إليه أبو موسى وقال :

— يا نبي الله إن أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم .

— والله لا أحملك ولا أجد ما أحملك عليه .

فرجع أبو موسى حزينا إلى أصحابه من مع النبي ﷺ ، ومن مخافة أن يكون النبي عليه السلام وجد في نفسه حيث حلف على ألا يحملهم ، وأحبرهم الذي قال النبي ﷺ — فلم يلبث إلا سوية إذ سمع بلالا ينادي :

— أين عبد الله بن قيس ؟

فأجابه قال :

( غزوة تبوك )

— أجب رسول الله ، النبي — ﷺ — يدعوك .

فلما أتاه قال عليه السلام :

— خذ هذه السنة الأربعة فانطلق بها إلى أصحابك .

وأخذها أبو موسى وانطلق بها إلى أصحابه فتهلت وجوههم بالبشر ،  
وسرعان ما عاضت ألسنتهم لما قال أحدهم :

— أعلقنا رسول الله — ﷺ .

حملوه على يمين الغلق ، حلف أن لا يحملهم ثم حملهم فقالوا :

— بوالله لا بارك لنا في ذلك .

فأتوه وبشوه محاوفهم فقال : عليه صلوات الله وسلامه :

— أنا ما حملتكم ، الله حملكم .

ثم قال :

— إني لا أحلف يمينا فأرى غيرها خيرا منها إلا كهرت عن يميني وأتيت

الذى هو خير .

إنه — ﷺ — إنما حلف ألا يتكلف هؤلاء حملا بقرص ، فهو لم يبحث في

قسمه . وقد أراد استثبات قاعدة على الرغم من أنه لم يبحث في يمينه ، فقال إنه

لو قدر وحلف يمينا ورأى غيرها خيرا منها فهو يكفر عن يمينه ويأتى الذى هو

خير .

وتأهب عليه السلام للخروج ، وخلف محمد بن مسلمة الأنصارى على

المدينة ، وخلف عيا كرم الله وجهه على أهله وأمره بالإقامة فيهم .

وأرجف بعلى المناقون وقالوا :

— ما خيفه إلا استقالا له .

وسار رسول الله — ﷺ — بالناس وكانوا ثلاثين ألفا وكانت الخيل عشرة

آلاف فرس . وعسكر على ثنية الوداع ، وجاء عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين وكان في جيش لا يقل كثيرا عن جيش المؤمنين وعسكر أسفل جيش رسول الله ﷺ .

وصوبت أعين الشك إلى عبد الله بن أبي ، أينطلق رأس المنافقين مع رسول الله ﷺ — ليحارب الروم ؟ أظهر الله قلبه وأضاء جوانحه بأنوار اليقين ؟ وآن أواد الرحيل فقال عبد الله بن أبي في سخرية :

— يغزو محمد بنى الأصفر مع جهد الحلال والحز والبلد البعيد ! يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر معه اللعب ، والله لكأنما أنظر إلى أصحابه مقرنين في الحبال .

لم يبرأ عبد الله بن أبي من مرض قلبه . إنه لم يستطع أن يسي يوما أن محمدا قد حرمه التاج الذى كاد الأوس والخزرج أن يضعوه على رأسه لولا هجرته عليه السلام التى قضت على كل آماله وأمانيه . وتختلف عن الخروج وهو يرجو أن يهزم الروم المسلمين هزيمة تشفى عليه الذى كان يزداد ضراوة على مر السنين .

واجتمع جمع من المنافقين فقال بعضهم لبعض :  
— أتحسسون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا ؟ والله لكأنهم غدا مقرنون في الحبال .

وقال رسول الله ﷺ — عند ذلك لعمار بن ياسر :  
— أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فاسألهم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل بل قلم كذا وكذا .

فأطلق إليهم عمار فقال ذلك ، فأتوا رسول الله ﷺ — يعتذرون إليه وقالوا :

— إنما كنا نخوض ونلعب .

فأنزل الله تعالى : « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب » (١) .  
وجاء الصنفاء والمقلون من الأعراب ليؤذن لهم في التخلف فأذن لهم  
وكانوا اثنين وثمانين رجلا ، وقعد آخرون من المنافقين بغير عذر ، وتحلف جمع  
من المسلمين منهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع من غير  
عذر وكانوا ممن لا يهتم في إسلامه .

وتأهب رسول الله ﷺ — للسير فعقد الألوية والرايات ، فدفع لواءه  
الأعظم لأبي بكر الصديق ، ورايته العظمى لنزير بن العوام ، ودفع راية الأوس  
لأسيد بن حضير ، وراية الخزرج إلى الحباب بن المنذر ، ودفع لكل بطن من  
الأنصار ومن قبائل العرب لواء .

وقطع جيش المسلمين ثلاثة أميال ثم نزل بالجرف ، وإذا بعلي بن أبي طالب  
قادم وهو باسر الوجه فقد بلغه ما يرجف به المنافقون ؛ إنه يحمل سلاحه وهو  
يريد أن يطلق مع ابن عمه الحبيب ليحارب بين يديه كما حارب في كل  
المشاهد .

ونظر رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — إلى علي في استفسار فقال  
علي :

— يا نبي الله رعم المنافقون أنك ما خلقتني إلا استخفنتني وتخففت مني .  
— كذبوا ولكني خلقتك لما تركت ورأي ، فارجع فاخلفني في أهلي  
وأهلك . أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمرة هارون من موسى إلا أنه لا نبي  
بعدي ؟

انبسطت أشعة الشمس كأنها تبر في الأفق الشرق ، ثم ارتفعت ترسل  
 اللهب فأوى الناس إلى الدور ، وخرجت طائفة إلى الحقول والبساتين تبحث  
 عن الظل الظليل والسميم العليل ، فقد كان اليوم شديد الحر ثقیل الهواء لكأنه  
 كابوس على الصدور .

وجاء أبو خيشمة والعرق يتفصد منه والهواء الساخن يلحق وجهه ، وعلم  
 أن رسول الله ﷺ — قد خرج منذ أيام لقتال الروم فدخل على أهله ،  
 فوجد امرأتين له في عريشتين هما في بستان قد رشت كل منهما عريشتها وبردتا  
 فيها ماء وهياتا طعاما . فلما دخل نظر إلى امرأته وما صنعتا فتعاصرت نفسه  
 وقال :

— رسول الله ﷺ — في الحر وأبو خيشمة في ظل بارد وماء مهيا وامرأة  
 حسناء ؟ ما هذا بالتصاف .

ورنا إليهما رنوة طويلة ثم قال :

— والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ —

فهبنا لي زادا .

ففعلتا ، وأخذ سيفه ورمحه وامتطى راحلته وانطلق في الحر الشديد يطلب

رسول الله ﷺ .

كان يعرف الطريق فيها طالما انطلق فيه إلى الشام ، ولقد خرج مع جيش

المسلمين الذى التقى بالروم فى مؤتة . إنه ليرى بعين خياله فرسان الروم على ظهور الجياد وقد تألفت فى الشمس خوذاتهم وعكست دروعهم أشعتها الوهاجة لتبهر الأبصار ، وقد رفع النسر الرومانى على رعوس الرماح يرفرف فى الهواء .

وعادت معركة مؤتة تدور فى رأسه . إنها معركة رهيبة لا يستطيع أن ينساها مهما مرت السنون . كانت بدايتها غريبة وكانت نهايتها عجيبة ؛ ثلاثة آلاف من صناديد المسلمين يخرجون لحرب أعظم جيوش الأرض قاطبة ، الجيش الذى هزم الفرس وأعاد الصليب إلى بيت المقدس ، إنه لذكر عبد الله ابن رواحة وهو يودع الناس . وإنه ليرى فى وضوح دموعه التى سالت حتى بللت لحيته . وإن الحوار المؤثر الذى دار بين المودعين وبين ابن رواحة يرن فى وجدانه فيبهره من الأعماق :

— ما يبكيك يا ابن رواحة ؟

— أما والله ما نى حب الدنيا ولا صباة بكم ، ولكنى سمعت رسول الله — ﷺ — يقرأ آية من كتاب الله عز وجل فذكر فيها النار : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا » <sup>(١)</sup> . فلست أدري كيف لى بالصبر بعد الورود .

— صحبكم الله دفع عنكم وردكم إلينا صالحين .

لكننى أسأل المرحوم مغفرة

وضربة ذات فرع تقصف الزبد <sup>(٢)</sup>

(١) مريم ٧١ .

(٢) ذات فرع : ذات سعة ، والريد هنا رعوة الدم .

أو طعمة يندى حرّان بجهرة<sup>(١)</sup>  
بحربة تُفد الأحشاء والكبد  
حتى يقال إذا مروا على جسدك  
أرشده الله من غاز وقد رُشدا  
ورأى أبو خيثمة عبد الله بن رواحة وهو يودع رسول الله ﷺ ،  
فأصاخ السمع كأنما يتلقى من الماضي ترجيع صوت شاعر الرسول :  
قُتبت الله مما آتاك من حَس  
تُبيت موسى ونصرا كالذي نُصروا  
إني تفرست فيك الخير نافلة  
الله يعلم أي ثابت البَصِر<sup>(٢)</sup>  
أنت الرسول فمن يُحرم نوافله  
والوجه منه فقد أزرى به القدر  
وقفز خيال أبي خيثمة إلى المعركة . ثلاثة آلاف من المسلمين أمام هرقل  
قاهر الفرس في مائة ألف من الروم وقد انضم إليهم رجال من لخم وجُذام  
والقَيْن وبهراء وبلي . قوى غير متكافة .  
ورأى فريق من المسلمين أن يكتبوا إلى رسول الله ﷺ — فيحبروه  
بعدد عدوهم ، فإما أن يمدّهم بالرجال وإما أن يأمرهم بأمره ، واحتلت صورة  
ابن رواحة صفحة ذهنه ودوى صوته في جوانحه كأنما قد تردد بين السماء  
والأرض :

(١) بجهرة : شديدة .

(٢) في هذا البيت إهداء ، وهو اختلاف حركة الراء من صم إلى كسر .

— يا قوم ، والله إن التي تكروهون للتي حرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فاطلقوا فإمما هي إحدى الحسينين : إما ظهور وإما شهادة .  
وقال أبو خيثمة لنفسه وهو يجفف العرق التصيب منه :  
— وكانت الشهادة .

ريد بن حارثة يقاتل براءة رسول الله ﷺ — حتى شاط في رماح القوم ، جعفر بن أبي طالب يلتقط راية رسول الله عليه السلام — حتى إذا أحجمه القتال اقتحم عر فرس له شقراء فعقرها ثم قاتل القوم حتى قتل ، ومس أذني خيثمة ما ارتحز به جعفر قبل أن يقتل :

يا حيدا الجنة واقرباها طيبة وباردا شرابها  
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيده أنسابها  
على إذ لاقيتها ضرابها

وتذكر عبد الله بن رواحة بهيمته المهيبة وشجاعته الفائقة وإيمانه العميق .  
إبه أخذ الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه ، ثم نزل وسيفه في يده ، فتقدم فقاتل حتى قتل .

ثلاثة آلاف يقاتلون مائة ألف أو يزيدون ، فماذا كان خالد بن الوليد يستطيع أن يفعل إلا أن ينصرف بالناس !

وراح خيثمة يفكر في العلاقة التي ساءت بين المسلمين والروم ، فالمسلمون في أيام محنتهم في مكة كانوا متحمسين للروم لأنهم أهل كتاب وكانوا يتصورون انتصارهم على الفرس . فلما انتصرت فارس عليهم ساء ذلك المسلمين فنزل القرآن المحيد يؤكد انتصار الروم بعد هزيمتهم المبكرة : ه ألم .  
علبت الروم . في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيعلبون . في بصع سنين لله

الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ؛ بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم <sup>(١)</sup> . وكانت سحرية من قريش . وكان رهاا بين أنى بكر الصديق وأمية بن خلف ، ونصرت الأيام وكانت المحجرة وكانت عروة بدر وكان انتصار المسلمين المبين وجاءت الأنباء بانتصار الروم على الفرس وسادات قريش صرعى فى القلب ، ففرح المؤمنون بنصر الله وخروا للأدقان سجدا .

وأرسل — صلوات الله وسلامه عليه — رسالة إلى هرقل يدعوه فيها إلى الإسلام ، فقال فى دهاء : « لو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقيه » . إنه عرف صدق النبى — ﷺ — وإما شع بالملك فطلب الرئاسة وآثرها على الإسلام .

إنه بعد أن أعطى من طرف لسانه حلاوة جمع الجموع بعد ستين ليسر إلى يثرب ليقصى على النهضة التى ابعثت بها قبل أن يستفحل أمرها وتهدد سلطانه . ولكن رسول الله عليه السلام بعث إليه صفوة جوده ليحاربوا بالإيمان جمافل الرومان الذين كانت قلوبهم هواء ، وكانت غزوة مؤتة وكان أن قتل أمراء الجيش بعد أن أثخنوا الجيش الرومانى بالجراح .

كانت معركة رهية انتشرت أنباؤها فى القدس وفى حمص وفى القسطنطينية ، بل وقرع خبرها أبواب روما ، وأحس هرقل أن سمعة جيشه باتت فى الميزان . مائة ألف أو يزيدون عجزوا عن أن يقصوا على ثلاثة آلاف من المسلمين ، فجمع هرقل الإمبراطور الذى يزهو بنصره على الفرس آلاف الجنود والفرسان ليضرب العرب ضربة قاصية تعيد إليه هيئته ، ولكن رسول

الله — ﷺ — نذب الناس للخروج فخرجوا يطوون الصحراء في القیظ الشديد ليهاجموا الدين يتأهبون للعداوة ، فالهجوم حیر وسيلة للدفاع .  
 وخطر على قلب خيامة قول رسول الله — ﷺ : « نُصرت بالرعب » .  
 فرقت عني شفتيه بسمة رضا . إن خير خروج رسول الله عليه السلام بنفسه  
 لحرب الروم سيصل إلى هرقل وسينزل الرعب في قلبه وسيزلزل من  
 الأعماق . سيهرم الجمع قبل أن يشهر رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه  
 — في وجوههم السلاح .

ورأى خيامة رجلا على الطريق فحث راحلته حتى لحق به ، فقال :

— من ؟ عمر بن وهب ؟

— نعم .

— إلى أين ؟

— خرجت في طلب رسول الله .

— الصحبة يا عمر .

— الصحبة .

جيش المسلمين يسرى في معبد الله . الشمس حامية ترسل لحيها والعرق ينشق من الأجسام وشنن الماء ترفع إلى الأفواه فتطفئ الظمأ وقتا قصيرا ثم سرعان ما يعود إلى الخلق الجفاف . ورسول الله — ﷺ — يطوى الأرض طيا فهو يريد أن يصل إلى تبوك قبل أن يتم هرقل استعدادده للقاء .

وهبت الرياح ساخنة تشوى الوجوه ، وتلفت المسلمون فلم يجدوا إلا ظل الصخور التي كانت تبعث حرارتها لكأنما كانت ألسنة نار ، وكانت الأرض كأتون ملتهب تلسع الأقدام . وأراد كثير من الرجال أن ينقضوا من على رواحلهم ولكنهم كانوا يرون رسول الله — ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه — مستويا على ناقته وما كان شابها وما كان حتى في منتصف عمره ، فكانوا يتأسكون ويتحملون قسوة الحر الشديد ، فقد كان لهم في رسول الله أسوة حسنة .

ثلاثون ألفا من الرجال يتحركون وقد صار هدفهم حدود الدولة الرومانية ، وتحلف أبو ذر الغفاري فقالوا لرسول الله — ﷺ :  
— تحلف أبو ذر .

— دعوه فإن يك فيه خير فسيحققه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه .

ومر رسول الله — ﷺ — بالحجر ديار ثمود فسجى ثوبه على رأسه

واستحث راحلته وقال :

— لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون خوفاً أن يصيكم ما أصابهم .

ونهى الناس أن يشربوا من مائها شيئاً وألا يتوضئوا به للصلاة ، ثم ارتحل بالناس وانطلق حتى نزل على البئر التي كانت تشرب منها ناقة صالح ، وقلب وجهه في السماء وأحبر عليه السلام أصحابه أنها تهب عليهم الليلة ريح شديدة وقال :

— من كان له بعير فليشد عقاله .

وسمى الناس في تلك الليلة عن أن يخرج واحد منهم وحده بل معه أخوه ، فخرج شخص وحده لحاجته فحرق ، وخرج آخر في طلب بعير له ند فاحتمله الريح ، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ — فقال : ألم أنهكم أن يخرج أحد منكم إلا ومعه صاحبه ؟

واستخلف على عسكره أباً بكر الصديق يصل بالناس واستعمل على حرس العسكر عباد بن بشر فكان يطوف في أصحابه على العسكر ، ثم أصبح الناس ولا ماء معهم فتوجهت الأبصار إلى السماء فإذا هي زرقاء صافية . وارتفعت الشمس ترسل أشعتها الحامية فتملأ الناس وراحوا يحتمون بظل الصخور ، وسرعان ما نفثت الصخور حرارتها فانبثق العرق من الأجسام وجفت الحلق وأحد الناس يلهثون من الظمأ وكاد يلحق بهم البوار ، فقد حصل لهم من العطش ما كاد يقطع رقابهم . فقاموا إلى إبلهم ينحرونها ويشقون أكراشها ويشربون ماءها ويجعلون ما بقى على أكبادهم . وراح أبو بكر الصديق ينظر إلى الرجال من بين الدموع التي تفرقت في عينيه ، أيموت الناس عطشاً ورسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فيهم ؟!

وذهب أبو بكر إلى رسول الله عليه السلام وقال :

— يا رسول الله قد عودك الله من الدعاء خيرا ، فادع الله لنا .

— أتحب ذلك ؟

فدعا فأرسل الله سحابة فمطرت فأخذ الناس يستقبلون المطر بوجوههم وقد نهلت أساريرهم وارتفعت الأصوات بشكر الله وقد فتحت الأفواه لاستقبال العيث المنهمر وملئوا شئهم واحتملوا ما يحتاجون إليه . ومر رجل من الأنصار بآخر متهم بالنفاق فقال له :

— ويحك قد ترى .

فقال المنافق دون نخجل :

— سحابة مارة .

وقال آخر لمنافق آخر :

— ويحك هل بعد هذا شيء ؟

— إنما مطرنا بنوء كذا .

فأنزل الله تعالى : ﴿ وتعملون رزقكم أنكم تكذِّبون \* فلو لا إذا بلغت الخلقوم \* وأنتم حيثئذ تنظرون \* ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ﴾ (١) .

وتباطأ جمل أبي ذر لما به من الإعياء والتعب فتخلف عن الجيش ، فقال الناس لرسول الله ﷺ :

— يا رسول الله تخلف أبو ذر وأبطأ به بعيره .

— دعوه فإن يك فيه خير فسيلاحظه الله بكم . وإن يك غير ذلك فقد

أراحكم الله منه .

واطلق الجيش وأبو ذر يحاول أن يستنهض بعيره فدهبت ، محاولته أدراج الرياح ، فأخذ متاعه وحمله على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله — ﷺ — ماشيا فأدركه نازلا في بعض المنازل . ونظره شخص يمشي فقال :

— يا رسول الله إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— كن أبا ذر .

فلما تأمله القوم قالوا :

— يا رسول الله هو والله أبو ذر .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— رحم الله أبا ذر . يمشي وحده ويموت وحده ويعث وحده .

وسار جيش المسلمين حتى لاحت أرباض تبوك وأبو خيثمة وعمير بن وهب يغدان السير ليلحقا برسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ولاحت لأعينهما جماعة المسلمين فالتفت أبو خيثمة إلى عمير وقال :

— إن لي ذنبا فلا عليك أن تتخلف عني حتى آتي رسول الله — ﷺ — .

وتخلف عمير وتقدم أبو خيثمة ، ورأى الناس رجلا يتقدم فقالوا :

— هذا راكب مقبل .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— كن أبا خيثمة .

— يا رسول الله هو والله أبو خيثمة .

فلما أناخ أقبل يسلم على رسول الله ، فقال له رسول الله — ﷺ — :

— أولى لك يا أبا خيثمة .

وارتحف أبو خيثمة فرسول الله يتوعده ويهدده ، وسرعان ما استعاد رباطة جأشه فراح يخبر رسول الله ، فقال له رسول الله — ﷺ — خيرا ودعا له بخير .

وأنشد أبو خيثمة :

لما رأيت الناس في الدين نافقوا  
أتيت التي كانت أعف وأكرما  
وبايعت باليمنى يمدى لحمد  
فلم أكتسب إثما ولم أغش محرما  
تركت خضيبا في العريش وصرمة  
صفايا كراما بُسرهما قد تحمما (١)  
وكننت إذا شك المنافق أسمع  
إلى الدين نفسى شطره حيث يمما (٢)  
وأسدل الليل أستاره ولم يبق على تبوك غير تلك الليلة ، فالتفت عليه السلام إلى بلال وقال له :

— اكلاً لنا الفجر .

وذهب — صلوات الله وسلامه عليه — لينام ونام أصحابه ، وأسند بلال ظهره إلى راحلته فغلبته عيناه . وظل عليه السلام نائما فلما استيقظ نظر إلى الأفق الشرق فوجد أن الشمس قد ارتفعت قيد رمح ، فذهب إلى حيث كان بلال وقال له :

(١) الخضب : الخضوبة ، والصرمة : جماعة الخيل ، وصفايا : كثيرة الحمل ، والبسر : التمر قبل أن تطيب .  
(٢) أسمع : انقادت ؛ وشطره : نحوه وقصده .

— ألم أقل لك يا بلال اكلاً لما الفجر ؟  
— يا رسول الله ذهب بي مثل الذى ذهب بك .  
وصل رسول الله ﷺ — وصلى الناس ثم ركبوا ، فجعل بعضهم  
يهمس إلى بعض :

— ما كفارة ما صنعنا بتفريطنا فى صلاتنا ؟  
فقال النبى ﷺ :

— ما هذا الذى تهمسون دونى ؟  
— يا رسول الله بتفريطنا فى صلاتنا .  
— أما لكم فى أسوة حسنة ؟ ليس فى النوم تفريط إنما التفريط على من لم  
يصل الصلاة حتى يجرى وقت أخرى .

وبلغ رسول الله ﷺ — نبوك بعد سبعة أيام من خروجه من يثرب ،  
وكان عليه السلام قد أشرف على الستين وكان أكثر رجال الجيش قوة  
وحيوية ، وتقع نبوك على حدود الدولة الرومانية وهى واحة خضراء  
خصبة ، الحدائق تمتد على مدى البصر والأشجار باسقة والسكان يقابلون  
الذين قطعوا الفيافي والقفار لحرب الروم بالترحاب ، فقد عرف عن المسلمين  
العدل والإحسان بيسا كان الناس يقاسون الأمرين و ظل الرومان قساة  
الأكباد .

وراح الحدود يعالجون أقدامهم المكشوفة المجروحة بعد أن ألقى الله الرعب  
فى قلوب الرومان فانسحبوا إلى الشام وقد آثروا السلامة ، ففى غزوة مؤتة فعل  
ثلاثة آلاف مسلم بهم الأفاعيل فهل يغامرون بتجربة أخرى أمام ثلاثين ألفا  
الموت إليهم أحب من الحياة ، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ ؟  
ذاب الجيش الرومانى ولم يظهر لهرقل أثر ، فبعث رسول الله ﷺ —

كثائب خفيفة إلى المناطق المجاورة ، فجاء يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة وصحبته أهل جرباء وهي قرية بالشام وأهل أذرح ، معرض عليه — ﷺ — الإسلام أو الجزية فقبل يوحنا أن يدفع الجزية لرسول الله وأهدى له بغلة بيضاء . فكساه رسول الله — ﷺ — بردا وكب له — ﷺ — ولأهل أيلة كتابا : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا بن رؤبة وأهل أيلة ، سفهم وسياراتهم في البر والبحر ، لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل البر وأهل البحر ، فمن أحدث مهم حدثا فإنه لا يجوز ماله دون نفسه وإنه لطفيه لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يمنعوه ماء يروونه ولا طريقا يربطونه من بر ولا بحر » .

وكتب — ﷺ — لأهل أذرح وجرباء : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد النبي — ﷺ — لأهل أذرح وجرباء أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد . وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين » .

وسجا الليل ونام الناس وراح عيد الله بن مسعود يتقلب في نومه ، وأحس حركة خفيفة ففتح عينيه فرأى شعلة نار فاتبعها ينظر إليها ، فإذا رسول الله — ﷺ — وأبو بكر وعمر ، وإذا عبد الله ذو البجادين المرنى قد مات بالحصى وإذا هم قد حفروا له ورسول الله — ﷺ — في حفرة وأبو بكر وعمر يدليانه وهو يقول :

— أدليا إلى أخاكما .

فأدلياه إليه فلما هياأ لشقه قال :

— اللهم قد أُمسيت راضيا عنه فارض عنه .

فقال عبد الله بن مسعود في نفسه :

— باليتنى كنت صاحب الحفرة ! .

دعا رسول الله ﷺ — خالد بن الوليد فبعثه إلى أكيدر دومة ، وهو أكيدر بن عبد الملك رجل من كندة كان ملكا عليها وكان بصرايا ، فقال رسول الله ﷺ — لخالد :

— إنك ستجده يصيد البقر .

فخرج خالد في خمسمائة فارس من فرسان المسلمين حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين رآه وهو على سطح له ومعه امرأته . كانت الليلة مقمرة صائفة وقد خرجت البقر الوحشية تمرح في ضوء القمر أمام الحصن ، فقالت امرأة أكيدر :

— هل رأيت مثل هذا قط ؟

— لا والله .

— فمن يترك هذه ؟

— لا أحد .

فترى فأمر بفرسه فأسرج له وركب معه نفر من أهل بيته فيهم أخ يقال له حسان ، فركب وخرجوا معه يطاردون البقر ، فلما خرجوا تلقى خيل رسول الله ﷺ — فأخذته وقتلوا أخاه . وقد كان عليه قباء من ديباج مخوص بالذهب فاستلبه خالد ، فبعث به إلى رسول الله ﷺ — .

وقدم رجل بالقباء على رسول الله ﷺ — فجعل المسلمون يلمسونه

بأيديهم ويتعجبون منه ، فقد كانوا قوما يعيشون عيشة بسيطة لا يعرفون بدخ العيش ولا فاخر الثياب فما كانت الدنيا تغرهم وما كانوا يقلدونها فوق قدرها ، فما هي إلا دار ممر لدار مقر وقد جعلوا همهم الآخرة .

وقدم خالد بأكيدر على رسول الله ﷺ — فاستقبله عليه السلام بالترحاب وهش له ويش ، فاطمأن أكيدر بعد أن أفزعه قتل خالد لأخيه حسان ، وعرض عليه — ﷺ — الإسلام أو الجزية ، فقبل أكيدر الجزية وحقق دمه ثم خلى سبيله .

ومرت الأيام ورسول الله ﷺ — في تبوك ولم يظهر لجيش الروم أثر ، فاستشار — ﷺ — أصحابه في مجاوزتها فقال له عمر :

— إن كنت أمرت بالسير فسر .

فقال — ﷺ :

— لو أمرت بالسير لم أشتركم فيه .

— يا رسول الله إن للروم جموعا كثيرة وليس بها أحد من أهل الإسلام وقد دنوا وقد أفرعهم دنوك ، فلو رجعنا هذه السنة حتى نرى أو يحدث الله أمرا .

كان خالد قد ساق أمامه ألفى بعير وثمائم شاة لما جاء بأكيدر ، وقد أهدى لرسول الله عليه السلام بعض أهل الكتاب هدايا كثيرة . وأهداه بعضهم جينة فدعا بسكين فسمى الله وقطع وأكل ، ثم انصرف — ﷺ — قافلا إلى المدينة .

وسرى جيش المسلمين بالليل وكان أبو رهم الغفاري قريبا من رسول الله ﷺ — وألقى الله عليهم النعاس ، فطفق أبو رهم يستيقظ وقد دنت راحلته من راحلة رسول الله ﷺ — فبزعجه دنوها منه مخافة أن يصيب رجله عليه السلام في الغرز ، فطفق يحور راحلته عنه حتى غلبته عينه في بعض الطريق وهم

في بعض الليل ، فراحمت راحلته راحلة رسول الله ﷺ — ورجله في الغرز ، فما استيقظ إلا بقوله عليه السلام :  
— حَسُّ .

— يا رسول الله استغفر لي .  
كانوا لا يحبون أن يوقفوه عليه السلام فمن يدرى قد يكون يتلقى وحي ربه ، وكانوا يتركونه إذا نام حتى يستيقظ ، فخشى أبو رهم أن يكون قد أساء إليه بإيقاظه فقال له عليه السلام في بساطة :  
— سر .

فجعل رسول الله ﷺ — يسأله عما تخلف من بني غفار فيخبره به ، فقال وهو يحاوره :

— ما فعل النضر الحمر التُّطاط ( صعر نبات شعر اللحية ) ؟  
فحدثه بتخلفهم .

— فما فعل النضر السود الجعاد القصار ؟  
— والله لا أعرف هؤلاء منا .

— بلى ، الذين لهم نعم بشبكة شذخ ( ماء لأسلم من بني غفار ) .  
فذكرهم أبو رهم ولم يذكرهم حتى ذُكر أنهم رهط من أسلم كانوا حلفاء فيهم ، فقال :

— يا رسول الله أولئك رهط من أسلم ، حلفاء فينا .

— ما منع أحد أولئك حين تحلف أن يحمل على بعير من إبله امرأ نشيطا في سبيل الله : إن أعز أهلي علي أن يتخلف عني المهاجرون من قريش والأنصار وغفار وأسلم .

واجتمع رأى من كان معه — ﷺ — من المنافقين وهم اثنا عشر رجلا أن

ينكثوا برسول الله ﷺ — في العقبة التي بين تبوك والمدينة ، فقالوا :

— إذا أخذ في العقبة دفعناه عن راحلته في الوادي .

فأخبر الله تعالى رسوله بذلك . فلما وصل الجيش العقبة نادى مناد لرسول الله ﷺ :

— إن رسول الله ﷺ — يريد أن يسلك العقبة فلا يسلكها أحد ؛  
واسلكوا بطن الوادي فإنه أسهل لكم وأوسع .

فسلك الناس بطن الوادي وسلك رسول الله ﷺ — العقبة ، فلما سمع  
الماققون بذلك استعدوا وتلثموا وسلكوا العقبة ، وأمر ﷺ — عمار بن  
ياسر أن يأخذ بزمام الناقة يقودها ، فأمر ﷺ — حذيفة بن اليمان أن يسوق  
من خلفه . فبينما رسول الله ﷺ — يسير في العقبة إذ سمع حس القوم وقد  
غشوه ، فنفرت ناقة رسول الله ﷺ — حتى سقط بعض متاعه ، فغضب  
رسول الله ﷺ — وصرخ بهم فولوا مدبرين وحذيفة يضرب بمحجن معه  
وجوه رواحلهم ويقول :

— إليكم .. إليكم يا أعداء الله .

فانخطوا من العقبة مسرعين إلى بطن الوادي واختلطوا بالناس ، فرجع  
حذيفة يضرب الناقة فقال له رسول الله ﷺ — :

— هل عرفت أحدا من الركب الذين رددتهم ؟

— لا . كان القوم ملثمين والليل مظلمة .

ونزل رسول الله ﷺ — عن راحلته فأوحى إليه وراحلته بركة ،  
فقامت تجر زمامها فلقيها حذيفة فأخذ بزمامها وجاء إلى قرب رسول الله ﷺ —  
فأناحها ثم جلس عندها ، حتى قام النبي ﷺ — فأتاه بها فقال  
عليه السلام :

— من هذا ؟

— حذيفة .

— إني مسر إليك سرا فلا تذكره . إني نهيته أن أصل على فلان وفلان .  
وعند جماعة من المنافقين . وظل حذيفة صاحب سر رسول الله مطبقا  
فمه ، فلما توفي رسول الله — ﷺ — كان عمر بن الخطاب في خلافته إذا  
مات الرجل ممن يظن به أنه من أولئك الرهط أخذ بيد حذيفة فقادته إلى الصلاة  
عليه ، فإن مشى معه حذيفة صلى عليه عمر ، وإن انتزع يده ترك الصلاة  
عليه .

وأصبح رسول الله — ﷺ — فجاء إليه أسيد بن حضير فقال :  
— يا رسول الله ما منعك البارحة من سلوك الوادي ؟ فقد كان أسهل من  
سلوك العقبة .

— أتدري ما أراد المنافقون ؟ إنهم مكروا ليسروا معي في العقبة فيزحوني  
فيطرحوني منها . إن الله أخبرني بهم وبمكرهم .  
— يا رسول الله قد نزل الناس واجتمعوا فمر كل بطن أن يقتل الرجل الذي  
هم بهذا ، فإن أحببت بين بأسمائهم ، والذي بعثك بالحق لا أبرح حتى آتيك  
برؤوسهم .

— إني أكره أن يقول الناس إن محمدا قاتل يقوم حتى إذا أظهره الله تعالى  
بهم أقبل عليهم يقتلهم .

— يا رسول الله هؤلاء ليسوا بأصحاب .

— أليس يظهرون الشهادة ؟

ثم جمعهم رسول الله — ﷺ — سرا وأحبرهم بما قالوا وما أجمعوا عليه  
فحلفوا بالله ما قالوا ولا أرادوا الذي ذكر ، فأُنزل الله تعالى : ﴿ يحلفون بالله ﴾

ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا إليك خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير ﴿١﴾ .

وظل سر هذا الرهط بين رسول الله ﷺ — وحذيفة صاحب سره عليه السلام . وتأهب الناس للانطلاق إلى المدينة فقال — ﷺ :

— إن بالمدينة لأقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم .

— يا رسول الله وهم بالمدينة ؟

— نعم . حبسهم العنبر .

كان أبو عامر الراهب من الأوس وكان في قومه شريفا مطاعا ، وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح . فلما اجتمع قومه على الإسلام أبى إلا الكفر والفراق لقومه ، فخرج إلى مكة ومعه بضعة عشر رجلا مفارقا للإسلام ولرسوله — ﷺ ، فقال رسول الله — ﷺ :

— لا تقولوا الراهب ولكن قولوا الفاسق .

إنه أتى إلى رسول الله — ﷺ — حين قدم المدينة قبل أن يخرج إلى مكة ، فقال :

— ما هذا الدين الذي جئت به ؟

— جئت بالحنيفية دين إبراهيم .

— فأنا عليها .

— إنك لست عليها .

— بلى ، إنك أدخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس منها .

— ما فعلتُ ولكن جئت بها بيضاء نقية .

— الكاذب أماته الله طريدا عرييا وحيدا .

— أجل فمن كذب ففعل الله تعالى به .

وحاء أبو عامر الفاسق مع قريش يوم خرجت لغزو المسلمين عند ماء بدر

وهو يرجو أن يستأصل رسول الله — ﷺ — وصحبه . إنه كان يعد قريشا

أن لو لقي قومه لم يختلف عليه منهم رجلا .  
فلما التقى الناس كان أول من لقيهم أبو عامر في الأحابيش وعبدان أهل مكة ، فنادى :

— يا معشر الأوس أنا أبو عامر .

— فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق .

— لقد أصاب قومي بعدى شر .

ثم قاتلهم قتالا شديدا ثم رماهم بالحجارة ، وهزمت قريش ولم يدب اليأس في قلب الفاسق بل راح يؤجج نار العداوة في قلوب سادات قريش ، فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة خرج إلى الطائف ، فلما أسلم أهل الطائف بعث إلى بعض أصحابه من الأوس فقال لهم :

— ابناؤى مسجدا واستمدوا ما استطعتم من قوة وسلاح ، فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فأتى بجند من الروم فأخرج محمدا وأصحابه من المدينة .

وخرج أبو عامر الفاسق ، وخرج معه علقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص بن جعفر بن كلاب ، وكنانة بن عبد ياليل بن عمرو بن عمرو الثقفي ، ودخلوا على هرقل ملك الروم وراحوا يزينون له غزو محمد قبل أن يستفحل أمره وقبل أن يسير إلى الشام يفتحها كما فتح مكة .

وراح حزام بن خالد وثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير وأبو حبيبة بن الأرعن وعباد بن حنيفة وحارثة وجارية وابناء مجمع وزيد ونيتل بن حارث ولحداد بن عثمان ووديع بن ثابت يبنون مسجدا إلى جوار مسجد قباء ، فلما فرغوا منه أتوا رسول الله ﷺ فقالوا :

— إنا بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتيا فنصلي لنا فيه .

كان رسول الله ﷺ — يتجهز لغزوة تبوك فقال لهم :  
— إلى على جناح سفر وحال شغل ، ولو قد قدمنا إن شاء الله لأتيناكم  
فصلينا لكم فيه .

واطلق عليه السلام إلى تبوك وقال الذين بنوا المسجد تنفيذا لأوامر أنى  
عامر الفاسق مستهزئين بمسجد قباء :  
— نصلى في مربوط حمار ! لا لعمر الله .

كانت أرض مسجد قباء لامرأة كانت تربط فيه حمارها ، فراحوا  
يسخرون . فلما بنى مسجد ضرار صرف عن مسجد قباء جماعة وصلوا  
بذلك المسجد ، فكان به تفريق للمؤمنين فكان المنافقون يجتمعون فيه ويعيبون  
النبي ﷺ — يستهزئون به .

وانقضت أيام تبوك وأقبل رسول الله ﷺ — حتى نزل بذي أروان ،  
عمل بينه وبين المدينة ساعة من نهار ، فجاءه الذين بنوا مسجد ضرار وطلبوا  
منه أن يأتيهم ليصلى فيه . فدعا بقميصه ليلبسه فيأتيهم فأوحى إليه : « والذين  
اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله  
ورسوله من قبل وليحلقن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون .  
لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه  
رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين . أفمن أسس بنيانه على تقوى من  
الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم  
والله لا يهدي القوم الظالمين . لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن  
تقطع قلوبهم والله عليم حكيم » (١) .

فدعا رسول الله ﷺ — مالك بن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن  
يسكر والوحشى قاتل حمزة وقال لهم :

— انطلقوا إلى هذا المسجد الطالم أهله فاهدموه وأحرقوه .

فخرجوا ، وانطلق مالك وأخذ سعفا من الحبل فأشعل فيه نارا ، ثم دخلوا  
المسجد وفيه أهله فحرقوه وهدموه وتفرق عنه أهله .

كان ذلك بين المغرب والعشاء ، فلما حان أو أن صلاة العشاء ارتفع صوت  
المؤذن من مسجد قباء ، فذهب الناس إلى المسجد الذى أسس على التقوى  
وصلوا فيه خلف رسول الله ﷺ .

ومات أبو عامر الفاسق فى الشام فاختصم فى ميراثه إلى قيصر علقمة بن  
علائة وكنانة بن عبد ياليل ، فقال قيصر :

— يرث أهل المدر أهل المدر .

فورثه كنانة بن عبد ياليل بالمدر دون علقمة .

وأما الله الكاذب طريدا غريبا وحيدا .

الرجال والولدان في الطرقات ينتظرون قدوم رسول الله ﷺ ، والنساء على أسطح الدور وفرح القلوب قد انعكس على الوجوه . ولاح النفع في الأفق فارتفعت هتافات الترحيب وانطلقت من الحاجر أهازيج النصر المبين ، فجيوش الروم قد تفهقرت إلى الشام وآثرت الفرار على أن تلقى محمداً ﷺ — وجنده من المؤمنين .

وتقدم رسول الله ﷺ — وقد أطرق رأسه خضوعاً لله رب العالمين ، فما إن لمح الناس حتى هرعوا إليه يسلمون عليه فكان يرد تحياتهم في ترحيب ، وحف الأطفال يتعلقون بركابه بل ركب بعضهم أمامه وحلفه ، ولا غرو فهو أبو هذه المدينة التي أحبها وأحبته .

ومد عليه السلام بصره إلى المدينة فقال :

— هذه طابة أسكنيها ربي ، تنفى خبث أهلها كما ينفي الكبر خبث الحديد .

ولما رأى جبل أحد قال :

— هذا أحد جبل يحبنا ونحبه .

كان صاحب قلب كبير وسع الناس ووسع كل ما وقعت عليه عيناه من خلق الله .

واستمر رسول الله ﷺ — في سيره والناس من حوله يهللون حتى بلغ المسجد فنزل عن راحلته ، وصلى في مسجده ركعتين بعد أن عانق على برأس

طالب الذى تركه في المدينة وأصر على بقائه بها لما عاد عبد الله بن أبي بن سلول بأصحابه وأبى الخروج إلى تبوك ، فلم يكن من الحكمة أن يترك ابن أبي وحده ليفسد الناس في غيبة رسول الله — ﷺ .

ودخل رسول الله — ﷺ — بيت فاطمة وألقى السلام على الزهراء والحسن والحسين وقبل أمانة بنت زيب الحبيبة ، ثم راح يدور على نسائه . وجلس رسول الله — ﷺ — في مسجده فجاءه رهط من المنافقين وجعلوا يحلفون ويعتذرون فقبل رسول الله — ﷺ — منهم علانيتهم ووكّل سرائرهم إلى الله واستغفر لهم ، ولكن الله أنزل فيهم : « لو كان عرضاً قريبا وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إسم الكاذبون . عفا الله عنك لِم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين . لا يستأذنك الدين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين . إنا يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون . ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدّة ولكن كره الله انبعاثهم فنبطهم وقبّل أقدعوا مع القاعدين . لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يغفونكم الفتنه وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين . لقد ابتغوا الفتنه من قبل وقبلوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون » (١) .

وأحسن كعب بن مالك عرق الخجل يتفصد من كل جسمه . إنه ما تحلف عن رسول الله — ﷺ — في غزوة عزاها قط ، ولكنه كان قد تحلف عنه في

عزوة بدر وكانت غزوة لم يعاتب الله ولا رسوله أحدا تخلف عنها ، وذلك أن رسول الله ﷺ — إنما خرج يريد عبر قريش حتى جمع الله بينه وبين عدوه على غير ميعاد .

ولقد شهد مع رسول الله ﷺ — العقبة ودافع عنه يوم أحد دفاع المستميت ، وكان له كظله عليه السلام في غزوة الخندق ، وتأهب المسلمون لعزوة تبوك ولم يكن قط أقوى ولا أيسر منه حين تخلف عنه في تلك العزوة ، وما اجتمعت له راحتان قط حتى اجتمعتا في تلك الغزوة .

وكان رسول الله ﷺ — فلما يريد غزوة يعروها الا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة . ففزاها رسول الله ﷺ — في حر شديد واستقبل سفرا بعيدا واستقبل غزو عدد كثير ؛ فجلى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبة وأخبرهم خبره بوجهه الذى يريد ، والمسلمون من تبع رسول الله ﷺ — كثير لا يدونهم حافظ فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفى له ذلك ما لم ينزل فيه وحى من الله .

وغزا رسول الله ﷺ — تلك الغزوة حين طابت الثمار وأحبت الظلال ، فتجهز رسول الله ﷺ — وتجهز المسلمون معه ، وجعل كعب بن مالك يغدو ليتجهز معهم ف يرجع ولم يقض حاجة فيقول في نفسه : أنا قادر على ذلك إذا أردت . فلم يزل ذلك يتبادى به حتى شمر بالناس الجدد ، فأصبح رسول الله ﷺ — غاديا والمسلمون معه ولم يقض كعب من جهازه شيئا فقال : أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحق بهم ، فعدا بعد أن فصلوا ليتجهز ف رجع ولم يقض شيئا ، ثم غدا ف رجع فلم يقض شيئا ، فلم يرل يتبادى به حتى أمرعوا . وتفرد<sup>(١)</sup> العزو فهم أن يرتحل فيدركهم — ولينه فعل — فلم يفعل ، وجعل إذا حرح في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ — فطاف فيهم يحزنه

(١) تفرط العزو : أى فات وسبق .

أنه لا يرى إلا رجلا مطعوناً عليه في النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء .  
ولم يذكره رسول الله ﷺ — حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في  
القوم بتبوك :

— ما فعل كعب بن مالك ؟

فقال رجل من بني سلمة :

— يا رسول الله حبسه برداه والنظر في عطفه .

فقال معاذ بن جبل :

— بئس ما قلت يا الله يا رسول الله ما علمنا منه إلا خيراً .

فسكت رسول الله ﷺ .

وبلغ كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ — قد توجه قافلاً من تبوك ،

فحضره حزنه فجعل يتذكر الكذب ويقول :

— بماذا أخرج من سخطة رسول الله ﷺ — غدا ؟

وراح يستعين على ذلك كل ذي رأى من أهله ، فلما قيل إن رسول الله —

ﷺ — قد أشرف قادماً ذهب عن كعب الباطل وعرف أنه لا ينجو منه

إلا بالصدق ، فأجمع أن يصدقه .

وقدم رسول الله ﷺ — وجلس للناس ، فلما فعل ذلك جاء المخلفون

فجعلوا يحلفون له ويمتلئون وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فيقبل منهم علانيتهم

وأيماهم ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى .

وجاء كعب بن مالك فسلم عليه ، فبسم رسول الله ﷺ — تبسم

المعضب ثم قال له :

— تعاله .

فجاءه يمشى حتى جلس بين يديه فقال له :

— ما خيفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟

— إني يا رسول الله والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأأرح من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلاً ، ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثاً كذباً لترضين عني وليرضكن الله أن يسخطك على ، ولئن حدثتك حديثاً صدقاً تجد على فيه إني لأرجو عقابى من الله فيه ، ولا والله ما كان لى عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك .

فقال رسول الله — ﷺ :

— أما هذا فقد صدقت فيه ، فقم حتى يقضى الله فيك .

فقام وسار معه رجال من بنى سلمة فاتبعوه فقالوا له :

— والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزت أن لا تكون

اعتذرت إلى رسول الله — ﷺ — بما اعتذر به إليه المخلفون ، قد كان كافيك

ذنبك استغفار رسول الله — ﷺ — لك .

فوالله ما زالوا به حتى أراد أن يرجع إلى رسول الله — ﷺ — فيكذب

نفسه . ثم قال لهم :

— هل لقي هذا أحد غيرى ؟

— نعم . رجلان قالوا مثل مقالتك وقيل لهما مثل ما قيل لك .

— من هما ؟

— مرارة بن الربيع العمرى من بنى عمرو بن العوف ، وهلال بن أمية

الواقفى .

ذكروا له رجلين صالحين فيهما أسوة ، فصمت حين ذكروهما له . وقال

رسول الله — ﷺ — لأصحابه :

— لا تكلموا رجلا منهم ولا تجالسوهم حتى آذن لكم .  
 فأعرض عنهم رسول الله — ﷺ . إنه حرمان عام وألم محص وعذاب  
 نفسى فقد حرمت على الثلاثة الراحة النفسية ، فاجتنبهم الناس وتغفروا لهم  
 حتى تنكرت لهم أنفسهم والأرض فما هى بالأرض التى كانوا يعرفونها .  
 خمسون ليلة مضت والرجال الثلاثة يقاسون الإعراض ، فاستكان مرارة  
 ابن الربيع وهلال بن أبى أمية وقعدا فى بيوتهما ، وأما كعب بن مالك فكان  
 أشب القوم وأجلدهم فكان يخرج ويشهد الصلوات مع المسلمين ويطوف  
 بالأسواق ولا يكلمه أحد ، ويأتى رسول الله — ﷺ — فيسلم عليه وهو فى  
 مجلسه بعد الصلاة ، فيقول كعب فى نفسه :

— هل حرك شفثيه برد السلام علىّ أم لا ؟

ثم يصلى قريبا منه فيسارقه النظر ، فإذا أقبل كعب على صلاته نظر إليه وإذا  
 التفت نحوه أعرض عنه ، حتى إذا طال ذلك عليه من جفوة المسلمين مشى  
 حتى تسور حدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمه وأحب الناس عليه فسلم عليه  
 فوالله ما رد عليه السلام فقال :

— يا أبا قتادة أبشذك الله ، هل تعلم أنى أحب الله ورسوله ؟

فسكت . فعاد فناشده فسكت عنه . فعاد فناشده فسكت عنه . فعاد  
 فناشده فقال :

— الله ورسوله أعلم .

ففاضت عينا كعب بن مالك ووثب ففسور الحائط ثم غدا إلى السوق ،  
 فبينما هو يمشى بالسوق إذا نبطى يسأل عنه من ببط الشام مم قدم بالقمح يبيعه  
 بالمدينة يقول :

— من يدل على كعب بن مالك ؟

فجعل الناس يشيرون له إليه حتى جاءه فدفع إليه كتابا من ملك غسان فإذا فيه : « أما بعد ، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضحية ، فالحق بنا نواسيك » .

قال كعب حين قرأها :

— وهذا من البلاء أيضا . قد بلغني ما وقعت فيه أن طمع فتى رجل من أهل الشرك .

فعمد كعب بالكتاب إلى تنور فأحرقه ، فأقام الرجال الثلاثة على ذلك حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله يأتي كعبا فقال :

— إن رسول الله — ﷺ — يأمرك أن تعتزل امرأتك .

— أطلقها أم ماذا ؟

— لا ، بل تعتزلها ولا تقر بها .

وأرسل إلى صاحبيه يمثل ذلك ، فقال كعب لامراته :

— الحقى بأهلك فكوني عندهم حتى يقضى الله في هذا الأمر ما هو

قاض .

وجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله — ﷺ — فقالت :

— يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له ، أفتكره أن

أخدمه ؟

— لا ، ولكن لا يقربك .

— والله يا رسول الله ما به من حركة إلّى ، والله ما زال يبكى منذ كان من

أمره ما كان إلى يومه هذا وقد تحوفت على بصره .

فقال لكعب بعض أهله :

— لو استأذنت رسول الله لامرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن  
تخدمه .

— والله ما استأذنه فيها ، ما أدري ما يقول رسول الله — ﷺ — لي في  
ذلك إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب .

فلبثوا بعد ذلك عشر ليال ، فكمل لهم خمسون ليلة من حين سبى رسول  
الله — ﷺ — المسلمين عن كلامهم ، ثم صلى كعب الصبح صبح خمسين  
ليلة على ظهر بيت من بيوتهم قد ضاقت عليه الأرض بما رحبت وضاقت عليه  
نفسه ، وقد كان ابتنى خيمة في ظهر سلع فكان يكون فيها ، إذ سمع صوت  
صارخ أوفى على ظهر سلع يقول بأعلى صوته :  
— يا كعب بن مالك أبشر .

فخر كعب ساجدا وعرف أن قد جاء الفرج .  
آذن رسول الله — ﷺ — الناس بتوبة الله على الثلاثة حين صلى الفجر ،  
فذهب الناس يشيرونهم وركض رجل إليه فرسا وسعى ساع من أسلم حتى  
أوفى على الحبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءه الذي سمع صوته  
يشيره نزع ثوبيه فكساهما إياه بشارة والله ما يملك يومئذ غيرهما ، وانطلق أناس  
نحو صاحبيه مبشرين .

واستعار كعب ثوبين فلبسهما ، ثم انطلق يتيمم رسول الله — ﷺ ،  
وتلقاه الناس يشيرونه بالتوبة يقولون :  
— ليتهنك توبة الله عليك .

حتى دخل المسجد ورسول الله — ﷺ — جالس وحوله الناس ، فقام إليه  
طلحة بن عبيد الله فحياه وهناه ، والله ما قام رجل إليه من المهاجرين غيره ،  
فلما سلم على رسول الله — ﷺ — قال له ووجهه يرقى من السرور :

— أبشروني بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك .

— أفس عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟

كان رسول الله إذا استبشر كأن وجهه قطعة قمر ، قال وقد أشرق وجهه :

— بل من عند الله .

فلما جلس كعب بين يديه وقد غمره البشر قال :

— يا رسول الله إن من توبتي إلى الله عرو وجل أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله .

— أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك .

— إني ممسك بسهمي الذي بخير ... يا رسول الله . إن الله قد نحاني بالصدق وإن من توبتي إلى الله أن لا أحدث إلا صدقا ما حييت .

وأُنزل الله تعالى : ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم ﴾ وعلى الثلاثة الذين تخلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظلوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴿ (١) .

وكان عويمر العجلاني مع رسول الله ﷺ — في غزوة تبوك ، فلما عاد إلى داره وجد امرأته نخولة بنت عمه قيس حبلى وإنه ما قربها منذ أربعة أشهر .

فأتى عاصم بن عدى وكان سيد بني عجلان فقال :

— كيف تقولون في رجل وجد مع امرأته رجلا أيقنته فيقتلونه أم كيف

يصنع ؟ سل لي رسول الله ﷺ .  
 فألقى عاصم النبي ﷺ — فسأله ، فكره السلي عليه السلام تلك المسألة  
 وعابها حتى كبر على عاصم ما سمع من رسول الله ﷺ ، فسأله عويمر فقال  
 له عاصم :

— لم تأتني بخبر .

وراح العيظ ينهش صدر عويمر فقال :

— والله لا أتنبى حتى أسأل رسول الله ﷺ — عن ذلك .

فجاءه عويمر وهو وسط الناس فقال :

— يا رسول الله أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا إن تكلم جلدتموه وإن

قتله قتلتموه أو سككت سككت على غيظ .

وقذف زوجته بشريك بن محمء ابن عمه وقال :

— وجدته على بطنها وإنى ما قربتها منذ أربعة أشهر .

— اتق الله في روجتك وابنة عمك ، فلا تقذفها بالبهتان .

— يا رسول الله أقسم بالله إنى رأيت شريكا على بطنها وإنى ما قربتها منذ

أربعة أشهر .

ودعا — ﷺ — بالمرأة وقال لها :

— اتقى الله ولا تخبريى إلا بما صنعت .

— يا رسول الله إن عويمر رجل غيور ، وإنه يأبى وشريكا يطيل السهر

ويتحدث . حملته الغيرة على أن قال ما قال .

فدعا عليه السلام شريكا وقال له :

— ما تقول ؟

— يا رسول الله إن عويمرا رجل غيور .

فقال رسول الله — ﷺ :

— اللهم افتح .

وجعل يدعو فأُنزل الله تعالى : ﴿ والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهود إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين \* والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين \* ويدراً عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين \* والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين \* ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأد الله تواب حكيم ﴾ (١) .

فأمر رسول الله — ﷺ — أن ينادى الصلاة جامعة ، فلما صلى العصر واجتمع الناس قال — ﷺ — لعويمر :

— قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآنا ، فاذهب فأت بها .

وجاء عويمر وخولة وبدأ اللعان فقال عويمر :

— أشهد بالله أن خولة رانية وإني لمن الصادقين ... أشهد بالله أني رأيت شريكا على بطنها وإني لمن الصادقين ... أشهد بالله أنها حبلى من غيري وإني لمن الصادقين ... أشهد بالله أني ما قربتها منذ أربعة أشهر وإني لمن الصادقين ... لعنة الله على عويمر إن كان من الكاذبين .

ثم أمره بالعودة وقال لخولة :

— قومي .

فقامت فقالت :

— أشهد بالله ما أنا بزانية وإن عويمر لمن الكاذبين .. أشهد بالله ما رأيت شريكا على بطني وإنه لمن الكاذبين .. أشهد بالله إني لحبلى منه وإنه لمن

الكاذبين .. أشهد بالله أنه ما رأى قط في فاحشة وإنه لمن الكاذبين .  
وتلكأت ونكصت وتقصد العرق منها وزاعت عينها حتى ظن أنها  
ترجع ، فقد تذكرت أنه — ﷺ — قال لها إن اللعنة موجهة للعذاب في  
الآخرة وعذاب الدنيا أهون ، ثم خطر لها أنها ستعصم قومها سائر الأيام فقالت  
وهي تكاد أن تنهار :

— إن غضب الله على خولة إن كان من الصادقين ..  
ففرق رسول الله — ﷺ — بينهما ، قال له :  
— لا سبيل لك عليها .  
ووصعت خولة علما كان بضعة من شريك ، فقال — ﷺ :  
— لولا ما سبق في كتاب الله تعالى لكان لي ولها شأن .

أذن بلال فانسكب صوته في آذان المسلمين ، كأنه السحر ففتحت أبواب الدور وخرج الناس في عماية الصبح إلى مسجد الرسول . وألقى عثمان بن عفان نظرة إشفاق على روجه أم كلثوم ثم هبط ليصلي الفجر خلف رسول الله ﷺ . —

كانت أم كلثوم ذائبة اللون قد نال منها الوهن فتكدت في فراشها تصيح السمع ، فصوت بلال يداعب أذنيها ويوقظ روحها فتحاول أن تنهض لكن الجسد ضعيف لا يقوى على النهوض ، وبلغ مسامعها تكبير المصلين فاغرورقت عيناها بالدموع وشرد خيالها ليعيد إلى دهنها الماضي البعيد . إنها ترى دارهم في مكة والطاهرة سيدة نساء قريش حاضرة الإسلام تداعبها في عطف شديد . وملأت صفحة رأسها صورة خديجة فرقت رقة جعلت عبراتها تسيل على خديجها ، وداعب خيالها ذلك اليوم الذي حفر في أغوار نفسها : رأيت أباها العظيم يوم أن عاد من عار حراء يرتجف وأمها تغمره بعظمها وحنانها حتى سكن روعه ، وآمنت به خديجة وصدقته بما جاءه من الله ، وشهدت هي وأخواتها شهادة الحق ، إنها لتذكر أول يوم غم فيه وقد أشرقت أفقدهن بؤر اليقين ، إسن لم تعمض لهن عين من شدة الانفعال وإن أم أيمن كانت تسألن عن ذلك الحدث العظيم فكس يهمس لها عما سمعن من رسول الله — صلوات الله عليه — وخديجة أم المؤمنين .

أم أيمن ! لقد استشهد روحها زيد في مؤنة واحتضن رسول الله ﷺ —  
 ابنيها أسامة . إنه حب رسول الله عليه السلام . وتذكرت أم كلثوم أنها لم  
 تعقب وأن عثمان يشتكى أن يكون له نسل من النبي ، فأختها رقية وضعت في  
 دار الهجرة طفلها عبد الله بن عثمان ولكن عبد الله مات طفلاً بنقرة من ديك  
 فملاً جوارحها أسي ، فهي تحس أن روحها تكاد أن تفارق جسدها ولم تنجب  
 لعثمان ما يربط الأسباب بيه وبين نبيه الحبيب .

وطوى خيالها السنين فعاتت إلى تلك الأيام التي كان أبوها عليه السلام  
 يدعو الناس فيها سرا إلى دين الله . إنها ترى في وضوح أبا بكر الصديق وقد جاء  
 إلى دارهم ومعه عثمان بن عفان ، لقد خفقت أفئدة كل من في الدار سرورا ،  
 وداعب خيالها في ذلك اليوم أمنية أن يأتي أبو هب إلى أبيها ليطبق شهادة الحق  
 فأختها رقية تحت عتبة بن أبي هب ، وهي ترقب رفاها إلى أخيه عتيبة ، ولكن  
 العداوة اشتدت بين أبيها وبين عمه أبي هب ، وقد أوجعتها أم جميل حمالة  
 الحطب وقالت لولديها :

— رأسي من رأسيكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد .

ولم يستطع أعداء الدين الحديد أن يقفوا في سبيله ، فرأوا أن يشغلوا أباهما  
 بيناته فقالوا :

— إنكم قد فرغتم محمدا من همه ، فردوا عليه بناته فاشغلوه بهن .

فمشوا إلى أبي العاص بن الربيع فقالوا له :

— فارق صاحبك ونحن نزوجك أي امرأة من قريش شئت .

كان أبو العاص يحب زينب ، إنه لا يطيق فراق ابنة الحالة وإنه إذا بعد عنها  
 راح يقرض الشعر يشكو بعادها ، فقال :

— لا أفارق صاحبتني وما أحب أن لي بامرأتى امرأة من قريش .

ومشوا إلى عتبة بن أبى لهب فقالوا له :

— طلق بنت محمد ونحن ننكحك أى امرأة من قريش شئت .

— إن زوجتموني بنت إيمان بن سعيد بن العاص أو بنت سعيد بن العاص فارقتها .

وروجوه بنت سعيد بن العاص وإن أم كلثوم لترى أختها رقية وقد عادت إلى دار أبيها حزينة ، وإنما لترى أمها خديجة وقد استقبلتها بين أحضانها . وتذكرت عتية فقامت صفحة وجهها بسحابة كدر ، فلم يكتف عتية بأن طلقها بل ذهب إلى أبيها وأهانته على الملأ فذعا عليه النبي — ﷺ — أن يسلط الله عليه كلبا من كلابه ، فافترسه الأسد من بين أصحابه وهم نيام حوله .

إن عتبة ومعتب ابني أبى لهب أسلما يوم فتح مكة ؛ جاء بهما العباس إلى أبيها فشهدا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . ففيم كانت عداوة السنين وكفاح الحق ؟ إنها إرادة الله ولا راد لمشيئته فقد أنزل سبحانه وتعالى : ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب \* ما أغنى عنه ماله وما كسب \* سيصلى نارا ذات لهب \* وامرأته حمالة الحطب \* فى جيدها حبل من مسد ﴾ <sup>(١)</sup> . كتب الله على أبى لهب الشقاء فما كان له أن يسلم وجهه لله ، وقد مات على الكفر ليصل النار الكبرى التى لا يموت فيها ولا يحيى .

وطفت على ذهنها ذكريات زواج عثمان من رقية . لقد تهملت خديجة بالفرح لذلك الزواج ولكن الكفار أبوا أن يعرف ذلك الزواج الاستقرار ، فالحكم عم عثمان أذاقه من العذاب ألوانا حتى هاجر عثمان ورقية بدينهما إلى

---

(١) سورة المسد .

## الحبيشة .

ورأت نفسها في شعب أوى طالب تقاسى مع أمها الحبيشة وأختها فاطمة الزهراء أهوال الحصار . إنها كانت تتلوى من الجوع وكانت ترى الأسى المرتسم على وجه أبيها الحبيب فترى آلام نفسها على آلام الجوع ، وانتقضت سنوات المقاطعة الثلاث وقد خلقت في النفوس والأجسام آثارا ، فقد لحق بأمها الحبيشة البوار فماتت بعد أن عادت إلى بيتها في مكة .

وأخفت أم كلثوم وجهها براحتيا : إنها لا تحتمل رؤية خديجة أم المؤمنين وهي تجود بأنفاسها ، فأبوها السبي القوي لم يحتمل أن يحضر موتها ، إنها كانت تناديه وهو واقف بباب حجرتها لا يجروا على الدحول قدموعه تغلبه وقلبه يتمزق من الأسى .

ورأت الدار من بعدها موحشة حلاء وإن كانت هي والزهراء وأم أيمن يذهبن ويحسبن في أرجائها . إنها دار بلا روح ، سراح بلا زيت ، قلب بلا حب . وزاد في وطأة الأحزان أن رسول الله ﷺ — كان يدخل الدار شاردا يتلفت في أرجائها لكأما يحث عن وزيره الدى مضى .

وتقلبت أم كلثوم في فراشها وندت من بين شفتيها آهة خافتة كأنما كانت ذوب نفسها ، وأسبلت جفניה على عينيها من الضعف ولكن الصور ظلت تترادف على خيالها ، فرأت رقية وقد رقت روحها على شفتيها وهتافات الصر يوم بدر تدوى في الخارج ، إنها انزوت في ركن تسح الدموع بينا أكبت الزهراء على مضجع أحتها تبكى ، وإياها ل ترى أباهما الثاقل يدخل العرفة وفي وجهه آيات الحزن ، ويذهب إلى الزهراء ويرفعها من فوق أحتها بمسح دموعها بطرف ثوبه .

ورأت أم عياش ، خادما النبي تدعوها للقاء أبيها عليه السلام ، وترى

نفسها تذهب إلى النبی الکریم . إنه یخبرها أنه سیزوجها عثمان بن عفان . وصمت وكان السکوت علامة الرضا ، فزوجها من عثمان علی مثل صدق رقية وعلی مثل صحبتها .

وانتقلت من بیت أبيها الملاصق للمسجد إلى بیت عثمان علی بعد خطوات من مسجد الرسول ، إنها تسمع أذان بلال وابن أم مکتوم . وكثيرا ما كان يأتي لزيارتها الحسن والحسين وأمه الزهراء ورسول الله ﷺ وهو یحمل علی ذراعه أمامة بنت زینب ، ويمشی بین یدیه علی بن أبي العاص بن الربیع ، فقد کانت رینب تشکو الزیف الذی کان یعاودها منذ غس هبار بن الأسود بعیرها وهي فی طریقها من مکه إلى المدینة فألقاها علی أديم الصحراء فأسقطت وأهراقت الدماء .

ورأت نفسها وقد خرجت مع زوجها عثمان لما خرج رسول الله ﷺ — بمن معه من المهاجرین والأنصار یریدون العمرة . إنها لتذكر ما قال علیه السلام لسفراء قریش الذین جاءوا یسألونه ما الذی جاء به . إنه قال : إنه لم یأت یرید حربا وإنما جاء رائرا لبیت . دعا أبوها عمر بن الخطاب لیعته إلى مکه فیبلغ عه أشراف قریش ما جاء به ، فقال :

— یا رسول الله إني أخاف قریشا علی نفسی وليس بمکه من بنی عدی بن کعب أحد یمنعنی ، وقد عرفت قریش عداوتی إياها وغلظتی علیها ، ولكنی أدلک علی رجل أعمرها می : عثمان بن عفان . وجاهدت أم کلثوم لتفتح عیها ولكن حفسها ظلا مسبلتین ، وكانت ترى الأحداث بعین بصیرتها . إنها ودعت روحها فی ذلك الیوم وداعا حارا وابتھت إلى الله من أعماقها أن یحفظه ، وباتت قلقة أرقه وإذا فی معسکر

المسلمين زئير وزحمة وغضب . وألقت سمعها إلى الأصوات الغاضبة فبلغ أذنيها أن عثمان قد قتل .

أنهارت كما ينهار الجدار وأحست ناراً تشوى كبدها ، وذافت مرارة الترمل وحر المصيبة فما كان في القوم مثل عثمان الرجل الذي تستحي منه ملائكة السماء ، وبكت ولم يرقاً لها دمع ، وسمعت أباهما وهو يقول حين بلغه أن عثمان قد قتل :

— لا نبرح حتى نناجز القوم .

فارت الدموع حارة في عروقها وودت لو تستطيع أن تخرج من خباثتها لتبايع رسول الله تحت الشجرة على الموت ، ولكن البيعة كانت للرجال . وأتى رسول الله — ﷺ — أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل ، فدخل البشر عليها يزف إليها البشري فاستشعرت راحة وإن ظل قلبها يخفق في شدة ، ووقفت بباب خيمتها تنتظر أوبة رجلها .

وأتى عثمان واستقبله النبي — ﷺ — بالترحاب ، وراح المسلمون يسألونه عما كان من قريش وهي ترنو إليه من بعيد في حب عميق ترجو أن يطير إليها ليريح قلبها الولهان ، فهي تحبه بكل عواطفها .

ولم تستطع أم كلثوم أن تطلق عنان خيالها للذكريات السيحة . إنها تلتقط أنفاسها من ثقب أبرة وذكريات الموت تلح عليها . لها ترى زينب وقد لفظت آخر أنفاسها ورسول الله — ﷺ — يذرف الدمع وهو صامت ، ثم يدور على عقبه ويغادر غرفتها مطرقاً .

وأجهشت أم كلثوم بالبكاء . جاهدت ضعفها لتدرف آحر دمة لا جزعاً من الموت فقد كانت على يقين من أنها على الحق المبين ، بل إشفاقاً على أبيها حليف الأحزان الذي كان يقرر فلذات كبده فلذة بعد فلذة .

ودخلت عليها أم عياش فألقته في الترع الأخير ، فأرسلت إلى الرجال في المسجد فأسرع عثمان إلى داره فإذا بأم كلثوم تعالج سكرات الموت ، فراح ذو النورين يناديها في وجد وهو مشفق عليها وعلى نفسه . كان يفزع أنه يتقطع بموتها نسبة برسول الله — ﷺ .

وجاء رسول الله — ﷺ — وأبو بكر الصديق وعمر وعلى وبعض الأنصار . ودخل عليه السلام على ابنته وهي تلتقط آخر أنفاسها فدمعت عيناه ولم يتحرك لسانه مما يغضب الرب ، فقد كان للبشرية أسوة حسنة .

وجاءت أسماء بنت عميس وكانت روضة جعفر بن أبي طالب ، فلما استشهد جعفر في مؤتة تزوجها أبو بكر الصديق . وجاءت صفية بنت عبد المطلب ونساء المهاجرين والأنصار . وغسلتها أسماء وصفية وأم عطية وقال هن الرسول :

— اغسلها وترا ثلاثاً أو خمساً أو أكثر من ذلك .

وأعطاهن إزاره لتكفن فيه ، وحمل جثث أم كلثوم إلى المسجد فأجهشت نساء الرسول بالبكاء ، وبكت الزهراء على أختها الغالية . وصلى رسول الله — ﷺ — على ابنته ومن خلفه أصحابه يغالون دموعهم .

وابطلقت الجنازة إلى البقيع ووضعت أم كلثوم في قبرها . ونزل في حفرتها علي بن أبي طالب والفصل بن العباس وأسامة بن زيد . وأراد أناس أن ينزلوا معهم فقال — ﷺ — :

— لا ينزل في قبرها أحد قارف أهله البينة . أميكم أحد لم يقارف أهله

الليلة ؟

فقال أبو طلحة :

— أنا يا رسول الله .

— انزل .

وقبرت أم كلثوم وعثمان بن عفان غارق في حزنه تجرى دموعه على خديه ،  
وعاد الناس من البقيع وقد غشيه حزن عميق ، ورأى رسول الله ﷺ —  
عثمان بن عفان وهو يسير مطرقاً وفي وجهه وله ، فدنا منه وقال :  
— لو كانت عندنا ثلاثة لزوجنا كلها يا عثمان .

قدم رسول الله ﷺ المدينة من تبوك في رمضان ، وقدم عليه في ذلك الشهر وفد ثقيف فأعاد إلى الناس الذكريات عن عروة بن مسعود الثقفي سيد بني ثقيف وزعيم الطائف الذي كان يحسب أن ثقيفا لا ترد له طلبا .

إن رسول الله ﷺ حاصر الطائف وكان عروة عائنا عنها ، كان يتدرب على استعمال المنجنيق في أرض غير أرضه . فلما انصرف عليه السلام عن الطائف عاد عروة إلى أهله وألقى إليهم سمعه ، فإذا به يحس أنوار اليقين تملأ قواده فخرج يتبع أثر رسول الله ﷺ — حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم . وسأل رسول الله ﷺ — أن يرجع إلى قومه بالإسلام فقال له رسول الله ﷺ :

— إنهم قاتلوك .

— يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبكارهم .

كان عروة مهم محببا مطاعا ، فحرح يدعو قومه إلى الإسلام رجاء ألا يخالفوه لمنزلته فيهم . فلما أشرف لهم على عليّة له وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم ديه ، رموه بالبل من كل وجه فأصابه سهم فقتله ، فقيل لعروة :

— ما ترى في دمك ؟

قال في صوت واه وهو يحود بأنفاسه الطاهرة :

— كرامة أكرمني الله بها وشهادة ساقها الله لي ، فليس مني إلا ما في

الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ — قبل أن يرتحل عنكم ، فادفنوني معهم .

فدفنوه معهم ، وقال رسول الله ﷺ :

— إن مثله في قومه كمثل صاحب ياسين في قومه .

وقدم أبو مليح بن عروة وقارب بن سواد على رسول الله ﷺ — حين قتل عروة يريدان فراق ثقيف وأن لا يجامعهم على شيء أبدا ، فأسلما فقال لهما رسول الله ﷺ :

— توليا من شئتما .

فقالا :

— نتولى الله ورسوله .

وكان أبو سفيان بن حرب خالهما ، وكان ﷺ — خبيرا بالنفوس . إنه يعلم أن أبا سفيان بن حرب يحب الفخر وأن يكون له من الأمر شيء ، فقال لهما :

— وخالكما أبا سفيان بن حرب .

فقالا :

— وخالنا أبا سفيان بن حرب .

وأصبح ولهما الله ورسوله وأبا سفيان بن حرب .

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهرا تفكر في الإسلام الذي انتشر في مكة وفي ربوع أرض العرب ، فساور القلق زعماءهم وساداتهم وراحوا يقلبون الرأي في رءوسهم وما كان ذلك كافيا ، فعزموا على أن يتشاوروا بينهم ليستقروا على أمر .

وكان عمرو بن أمية أخو بني علاج مهاجرا العبد ياليل بن عمرو لشيء كان ( غزوة تبوك )

بينهما ، وكان عمرو بن أمية من أدهى العرب فمضى إلى عبد ياليل بن عمرو حتى دخل داره ، ثم أرسل إليه إن عمرو بن أمية يقول لك اخرج إلّى ، فقال عبد ياليل للرسول :

— ويلك ! أعمرو أرسلك إلّى ؟

— نعم وها هو ذا واقفا في دارك .

— إن هذا الشيء ما كنت أظنه ، لعمرو كان أمنع في نفسه من ذلك .

فخرج إليه فلما رآه رحب به ، فقال له عمرو :

— إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة ، إنه قد كان من أمر هذا الرجل

ما قد رأيت ، قد أسلمت العرب كلها وليست لكم بحرهم طاقة فانظروا في أمركم .

واجتمع سادات ثقيف يديرون قذاح الرأي بينهم ، وقال بعضهم لبعض :

— أفلاترون أنه لا يأمن لكم سيرب<sup>(١)</sup> ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع !؟

فأتمروا بينهم وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله — ﷺ — رجلا كما أرسلوا

عروة ، فكلّموا عبد ياليل بن عمرو بن عمير وكان من سن عروة بن مسعود

وعرضوا ذلك عليه ، فأبى أن يفعل وحشى أن يصنع به إذا رجع كما صنع

بعروة . فقال :

— لست فاعلا حتى ترسلوا معي رجالا .

فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بنى مالك فيكونوا

سنة ، فبعثوا مع عبد ياليل الحكم بن عمرو بن وهب بن معتب ، وشرحبيل بن

غيلان بن سلمة بن معتب ، ومن بنى مالك عثمان بن أبى العاص بن بشر بن عبد

(١) السرب : المال الراعى وهو أيضا الطريق والنفس .

دهمان أخا بنى يسار ، وأوس بن عوف أخا بنى سالم بن عوف ، وأئمر بن خرشة بن ربيعة أخا بنى الحارث . فخرج بهم عبد باليل وهو سيد القوم وصاحب أمرهم ، ولم يخرج بهم إلا خشية من مثل ما صنع بعروة بن مسعود لكى يشغل كل رجل منهم إذا رجعوا إلى الطائف رهطه .

فلما دنوا من المدينة ونزلوا قناة ألقوا بها المغيرة بن شعبه يرعى في نوبته ركاب أصحاب رسول الله ﷺ ، وكانت رعيتهما نوباً على أصحابه — ﷺ . فلما رأهم ترك الركاب عند الثقيمين ووثب يشتد ليشر رسول الله ﷺ . بقدمهم عليه . ولقى أبو بكر الصديق المغيرة بن شعبه قبل أن يدخل على رسول الله ﷺ — فأخبره عن ركب ثقيف أن قد قدموا يريدون البيعة والإسلام بأن يشرط لهم رسول الله ﷺ — شروطاً ويكتبوا من رسول الله ﷺ — كتاباً في قومهم وبلادهم ، فقال أبو بكر للمغيرة : — أقسمت عليك بالله لا تسقى إلى رسول الله ﷺ — حتى أكون أنا أحدثه .

فدخل أبو بكر على رسول الله ﷺ — فأخبره بقدمهم عليه . ثم خرج المغيرة إلى أصحابه فهو ثقيفى وإن إسلام ثقيف لأحب إليه من حمر النعم فراح يعاونهم على إنزال ما معهم عن ظهور الإبل ويعلمهم كيف يحيون رسول الله ﷺ — فأبوا إلا أن يحياه — ﷺ — بتحية الجاهلية .

وضرب عليه السلام عليهم قبة في ناحية مسجده ، وأراح خالد بن سعيد ابن العاص يمشى بينهم وبين رسول الله ﷺ — فلم يأتوا ليعلموا على الملأ إسلامهم دون قيد أو شرط بل كانت لهم شروط وما كان رسول الله ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه — ليقبلها .

كان الطعام يأتيهم من عند رسول الله ﷺ — فكانوا لا يطعمون حتى

يأكل منه خالد ، فقد كانوا يخشون الغدر وما كانوا على صواب فإيهم وإن كانوا لم يعلنوا إسلامهم بعد ، فهم عند أحلم الناس وأوفى الناس وأصدق الناس .

سألوا رسول الله ﷺ — أن يدع لهم الطاغية وهي اللات لا يهدمها ثلاث سنين ، فأبى رسول الله ﷺ — ذلك عليهم ، فما برحوا يسألونه سنة فسنة ويأبى عليهم حتى سألوا شهرا واحدا بعد مقدمهم فأبى عنهم أن يدعها شيئا مسمى .

كانوا يرتجفون فرقا من سفهائهم وسائهم وذرائعهم ويكرهون أن يروعا قومهم يهدمها حتى يدخلهم الإسلام . أتصبح اللات في غمضة عين أثرا بعد عين وقد كان العرب قبل مبعث محمد — صلوات الله وسلامه عليه — يقسمون بها ويقدمونها على كل الآلهة !؟ إنهم فزعوا يوم جاء أبرهة لهدمها وأرسلوا معه من يقوده إلى الحرم لينقلوا إلهتهم الحبيبة ، فضحوا ببیت الله الحرام في سبيل بقائها ، أتركون أصحاب محمد يدكونها على أعين الناس ؟ وكثرت المشاورات والتقصت الأقواء الآذان واشتد الجدل وراح المعيرة بن شعبة يؤكد لهم أن اللات إن هي إلا صخرة لا تملك لهم نفعاً ولا ضراً ، وأن لا فرق بينها وبين العزى ومناة وقد أصبحتا كأمس الدابر ، إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ، واستمر خالد بن سعيد يغلو بينهم وبين رسول الله ﷺ — فأبى رسول الله ﷺ — عليهم إلا أن يعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ههدماها .

وسألوه عليه السلام أن يعفيهم من الصلاة وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم ، فقال رسول الله ﷺ — :  
— أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه ، وأما الصلاة فإنه لا حير في

دين لا صلاة فيه .

فقالوا :

— يا محمد فسئوئتيكها وإن كانت دناءة .

كانوا في ناحية المسجد فكانوا يسمعون القرآن ويرون الناس إذا صلوا ، وكانوا يفتنون إلى رسول الله — ﷺ — كل يوم ويخلفون عثمان بن أبي العاص عند أسبابهم . كان عثمان يلقي سمعه إلى القرآن فيحس أنوار اليقين تهرق فؤاده وكان يمد عينيه إلى المصلين فتتدفق نفسه إلى أن يقف معهم حلف الرسول الأمين . فكان عثمان إذا رجعوا ذهب إلى النبي — ﷺ — يسأله عن الدين ويستقرئه القرآن ، وإذا وجد النبي — ﷺ — نائما ذهب إلى أبي بكر الصديق . وكان يكتم ذلك عن أصحابه فأعجب ذلك رسول الله — ﷺ — فأحبه ، وقال أبو بكر لرسول الله — ﷺ — وهو يحدثه عن عثمان بن أبي العاص :

— يا رسول الله إني رأيت هذا الغلام من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن .

واجتمع رسول الله — ﷺ — ووجد ثقيف ، وجلس خالد بن سعيد بن العاص ليكتب ورسول الله عليه السلام على عليه : ( بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد النبي رسول الله إلى المؤمنين : إن أعضاء وح<sup>(١)</sup> وصيد حرام لا يعضد ، من وجد يفعل شيئا من ذلك فإنه يجلد وتزرع ثيابه ، فإن تعدى ذلك فإنه يؤخذ فيبلغ به النبي . محمد رسول الله ) .

وصاموا مع رسول الله — ﷺ — ما بقى من رمضان فكان يلال يأتهم

(١) عصاه : جمع عضاهة وهي الشجرة العطية ، ووح : موضع ناحية الطائف .

بفطورهم ومسحورهم من عند رسول الله ﷺ ، حتى إذا ما تأهبوا للانصراف قالوا :

— يا رسول الله أمر علينا رجلا يؤمننا .  
فأمر عليهم عثمان بن أبي العاص .

كان عثمان من أحدثهم سنا ولكنه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن . وقد أهله ذلك لأن يكون إماما لقومه ، فالإسلام لا ينظر إلى السن ولا إلى لون البشرة ولا إلى القرابة فلا فضل لأحد فيه على أحد إلا بالتقوى .

وجاء رسول الله ﷺ — ليودع وفد ثقيف وليبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة في هدم اللات ، فتقدم أبو مليح بن عروة يسأل رسول الله ﷺ — أن يقضى عن أبيه عروة بن مسعود ديننا كان عليه من مال اللات . فقال رسول الله ﷺ — :

— نعم .

وشجع ذلك قارب بن الأسود أن يسأل رسول الله ﷺ — أن يقضى دين الأسود من مال اللات كما قضى دين عروة ، وقد كان عروة والأسود أخوين لأب وأم ، فقال قارب لرسول الله ﷺ — :

— وعن الأسود يا رسول الله فاقضه .

— الأسود مات مشركا .

فقال قارب :

— يا رسول الله لكن يعمل مسلما ذا قرابة ، إنما الدين على وأنا الذي

أطلب به .

فأمر رسول الله ﷺ — أبا سفيان أن يقضى دين عروة والأسود من

مال الطاغية ، وراح — ﷺ — يوصي عثمان بن أبي العاص ويقول :  
— يا عثمان تجاوز في الصلاة واقدر الناس بأضعفهم ، فإن فيهم الكبير  
والصغير والضعيف وذا الحاجة .

وتوجه وفد ثقيف إلى بلادهم راجعين وفيهم أبو سفيان بن حرب والمعيرة  
ابن شعبة ، فرسول الله — ﷺ — ما يعثهم إلا لأن لهم صلة بالقوم ؛  
فأبو سفيان خال بنى عروة بن مسعود والمغيرة من القوم ، فإذا أراد السفهاء  
أن يتحرشوا بهما فسيجدان من يمنعهما . وعادت المخاوف تؤرق الوفد فلن  
يقبل السفهاء والنساء والذراري هدم اللات وهم ينظرون ، فقال قائل منهم :  
— أنا أعلمكم بثقيف . اكنموا لإسلامكم وخوفوهم بالحرب والقتال  
وأحبروهم أن محمداً — ﷺ — سألنا أمورا عظيمة أبيها عليه . سألنا أن  
نهدم الطاغية وأن نترك الزنى والربا وشرب الخمر .  
فلما جاءتهم ثقيف وسألوهم قالوا :

— يجتنا رجلا فطا غليظا قد ظهر بالسيف ودان له الناس وعرض علينا  
أمورا شدادا ، أن نهدم الطاغية وأن نترك الزنى والربا وشرب الخمر .  
— والله لا نطيعه ولا نقبل هذا أبدا .

— أصلحوا السلاح وتيقوا للقتال ورموا حصنكم .  
فمكثت ثقيف يومين تنهياً للقتال وترميم الحصون ، ثم ألقى الله الرعب في  
قلوبهم فقالوا :

— والله ما لنا من طاقة فارجعوا إليه وأعطوه ما سأل .  
— لقد أجبناه وأسلمنا .

— لم كنتمونا ؟  
— أردنا أن ينزع الله من قلوبكم نخوة الشيطان .

وأراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان لهدم اللات فأنى ذلك أبو سفيان عليه  
وقال :

— ادخل أنت على قومك .

فتقدم المغيرة بن شعبة وحوله قومه خشية أن يرمى كإرمي عروة ، وخرج  
نساء ثقيف حسرا مكشوفات الرؤوس يكيين على الطاغية فما منهن إلا من  
نجاءت إليها في المسرات وفي المللمات لشكرها على ما أعطت ، أو للايتحال إليها  
لتطيل أيامها على الأرض .

وانهارت الدموع من مآقيهن وقلن :

يَبْكِينَ دُفَاعَ أَسْلَمَهَا الرُّصَاعُ

لَمْ يَحْسِنُوا الصِّصَاعُ

إنهن يكيين « دُفَاع » اللات التي كانت تدافع عنهم ، فقد أسلمها اللعام  
الذين لم يحسنوا الضرب بالسيف في سبيل الربة ، وسرن والهات ينتظرن أن  
تحدث معجزة تنقذ الربة بنت الله من أيدي المعتدين .

وتقدم المغيرة وكسر بابها فأحس الناس كأنما قد خلع أفضلتهم مس  
صدورهم ، وراح يصعد على الصنم وقد تعلقت به الأعين يرقبون ما يزل به  
من عقاب فإنه وقر في ضمائرهم أنه لا يمكن هدمها لأنها تمنع من ذلك ، وأراد  
المغيرة أن يسخر من ثقيف فقال لأصحابه :

— لأضحكنكم من ثقيف .

فألقى نفسه لما علا على الطاغية ليهدمها ، فصاح الذين لم بشرق الإسلام  
في صدورهم في فرح :

— أبعد الله المغيرة ، قتلته الربة ، والله لا يستطيع هدمها .

وارتج الطائف بالصياح والسرور ، وذاع الخبر وانتشر انتشار الريح وقال

الناس :

— إن اللات قد صرعت المغيرة .

وطار النبا إلى الدور وإلى الحصون وإلى الحقول ، فجاء الناس مهطعين يتدافعون بالمناكب وللات يهللون وأقبلوا على المغيرة يقولون :

— كيف رأيت يا مغيرة !؟ دونكها إن استطعت ، ألم تعلم أنها تمهلك من عاداها .

فقام المغيرة يضحك منهم ويقول لهم :

— يا خبيثاء والله ما قصدت إلا الهزء بكم .

— دونكها إن استطعت .

— قبحكم الله ، إنما هي لكاع حجارة ومدر ، فاقبلوا عافية الله واعبدوه .

وصعد المغيرة يضربها بالفأس فراحت تتناثر والنساء ينظرن في حسرة ويقلن في أسف وحزن :

— واه لك . آها لك ! .

وسوى المغيرة الصنم بالأرض ولكن سادن اللات أبى أن يعترف بأن اللات إن هي إلا حجارة ، فقال ليعيد الثقة في الربة التي تزعزعت في قلوب من كانوا مؤمنين بها قبل أن يقضى معول المغيرة على أوهامهم :

— ليغضبن الأساس فليخسفن بهم .

وراح المغيرة يهدم الأساس الذليل ، فما غضب ولا ثار ولا خسف بأعدائه الأرض ، وأخذ مال اللات وحليها فأنصرفت النسوة وقد أطرقن رءوسهن ، فقد كن عائدات من مأتم الوهم الكبير الذي عاش عليه آباؤهم لما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم وعبدوا حجارة بعد أن فسد دين أبيهم إبراهيم خليل

الرحمن .

وذهب المغيرة يحمل مال اللات وحليها إلى أبي سفيان وقال له :  
— إن رسول الله — ﷺ — قد أمرك أن تقضى عن عروة والأسود  
دينهما .

فقضى أبو سفيان دين عروة بن مسعود ودين أخيه الأسود ، ودخلت  
ثقيف في دين الله فلم يكن قوم من العرب أصح إسلاما منهم .

قال جبريل للنبي — ﷺ :

— إن النجاشي توفي فصل عليه .

وذاع في دور النبي صلوات الله وسلامه عليه أن النجاشي قد مات فثارت في نفوس أهل البيت الدكريات ، فشردت أم سلمة بنت زاد الركب أم المؤمنين فرأت نفسها مع زوجها أي سلمة بن عبد الأسد بن هلال قد خرجا مع عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله وجماعة من المسلمين قاصدين الحبشة فرارا من اضطهاد قريش .

إنها ما كادت تستقر هناك حتى جاءت الأنباء أن أهل مكة قد أسلموا . كانت في شوق إلى العودة إلى مرتع الصبا والشباب فانطلقت هي وزوجها إلى المراكب مع المنطلقين من المسلمين إلى مكة الحبيبة الوطن الغالي الذي تهوى إليه أفئدتهم جميعا ، وراحوا يتعجلون الأيام حتى إذا ما بلغوا مرفأ مكة نزلوا إلى الأرض الحبيبة وقد خفقت قلوبهم وجدا وخفوا إلى رواحلهم وانسابوا في معبد الله ، حتى إذا دنوا من مكة بلعهم أن ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلا فلم يدخل منهم أحد فيها إلا بجوار أو مستحفيا .

إنها تتذكر أنها وزوجها قد دخلا في جوار أي طالب بن عبد المطلب فأم أي سلمة برة بنت عبد المطلب ، فكان على أي طالب أن يحمصها كما يحصي ابن أخيه محمدا — ﷺ — وإن كانا مسلمين ، فالعصية في قريش كانت أقوى

من الدين .

وطاف بذهنها عثمان بن مظعون ، إنه دخل بجوار من الوليد بن المغيرة فلما رأى عثمان ما فيه أصحاب رسول الله ﷺ — من البلاء وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد قال :

— والله إن عدوئى ورواحى آمننا بجوار رجل من أهل الشرك وأصحابى وأهل ديبى يلقون من البلاء والأذى فى الله ما لا يصيبنى ، لنقص كبير فى نفسى .

فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له :

— يا أبا عبد شمس وقت ذمتك ، لقد رددت إليك جوارك .

— لم يا بن أحمى ؟ لعله آذاك أحد من قومى .

— لا ، ولكنى أراضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره .

— فانطلق إلى المسجد فاردد على جوارى علانية كما أجزتكَ علانية .

فانطلقا فخرجا حتى أتيا المسجد فقال الوليد :

— هذا عثمان قد جاء يرد على جوارى .

— صدق ، قد وجدته وفيما كريم الجوار ، ولكى أحبيت ألا أستجير بغير

الله فقد رددت عليه جواره .

ثم انصرف عثمان وليد بن ربيعة فى مجلس من قريش يشدهم ، فجلس

معهم عثمان فقال لبيد :

— ألا كل شيء ما خلا الله باطل .

قال عثمان :

— صدقت .

قال لبيد :

— وكل نعيم لا محالة زائل .

— كذبت . نعيم الجنة لا يزول .

قال لييد :

— يا معشر قریش والله ما كان يؤذى جلیسکم ، فمتی حدث هذا فيکم ؟

فقال رجل من القوم :

— إن هذا سفیه فی سفهاء معه قد فارقوا ديننا ، فلا تحدث فی نفسك من

قوله .

فرد عليه عثمان حتى زاد أمرهما وعظم ، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه  
فحضرها والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان فقال :

— أما والله يا بن أخي إن كانت عينك عما أصابها لغية ، لقد كنت في ذمة

منية .

— بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله ، وإنی

لنفي جوار من هو أعر منك وأقدر يا أبا عبد شمس .

— هلم يا بن أخت إن شئت فعد إلى جوارك .

— لا .

وخطر على قلبها ما كان من أمر زوجها ، فأبو سلمة لما استجار بأبي طالب

مشى إليه رجال من بني مخزوم فقالوا له :

— يا أبا طالب لقد منعت ما ابن أخيك محمدا ، فما لك ولصاحبنا تمنعه

منه ؟

— إنه استجار لي وهو ابن أختي ، وإن أنا لم أمنع ابن أختي لم أسمع ابن

أختي .

فقام أبو لهب فقال :

— يا معشر قريش والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ ، ما تزالون تؤثبون عليه في جواره من بين قومه ، والله لتنتهن عنه أو لتقومن معه في كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد .

— بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة .

إنها لتذكر أنها كانت وزوجها في أوائل المهاجرين إلى الحبشة ، وأن أبا سلمة كان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ — هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة ، فإن قريشا آذته بعد أن قدم من الحبشة ، فلما بلغه إسلام من أسلم من الأنصار خرج إلى المدينة مهاجرا ، إنه حملها على بعيره وحمل معها ابنه سلمة ثم خرج بها يقود بها بعيره ، فلما رآته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه فقالوا :

— هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرايت صاحبك هذه ؟ علام نتركك تسير بها في البلاد ؟

فتزعوا حطام البعير من يده فأخذوها منه يكاد كبدها أن يتعطر . وعضب عند ذاك بنو عبد الأسد ، رهط أبي سلمة فقالوا :

— لا والله لا نترك ابنتنا عندها إذ نزعتموها من صاحبها .

فتجاذبوا ابها سلمة بينهم حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسها بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجها أبو سلمة إلى المدينة ففرق بينها وبين زوجها وبين ابنتها .

سنة أو قريبا من سنة كانت تخرج فيها كل غداة فتجلس بالأبطح فما تزال تبكي حتى مر بها رجل من بني عمها — أحد بني المغيرة — فرأى ما بها فرحمها فقال لبني المغيرة :

— ألا تخرجون هذه المسكينة ؟ فرقم بينها وبين زوجها وبين ولدها .

فقالوا لها :

— الحقى بزوجه إن شئت .

ورد بنو عبد الأسد إليها عند ذلك ابناها ، فارتحلت بغيرها ثم أخذت ابناها فوضعتهم في حجرها ثم خرجت تريد زوجها بالمدينة وما معها أحد من خلق الله ، حتى إذا كانت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة . إنه كان على الكفر وكانت بيده مفاتيح الكعبة ، وإن صوته ليرن في أذنيها الساعة لكأنما قد عاد الزمن عشر سنوات :

— إلى أين يا بنت أبي أمية ؟

— أريد زوجي بالمدينة .

— أو ما معك أحد ؟

— لا والله . إلا الله وبُني هذا .

— والله ما لك من مترك .

إن ذلك الحديث قد حفر في أغوار نفسها ، وإنها لترى عثمان بن طلحة بعين بصيرتها وهو يأخذ بخطام البعير فينطلق معها يهوى بها ، وغممعت :

— فوالله ما صحبت رجلا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه .

إنه إذا بلغ المنزل أناخ بها ثم استأخر عنها ، حتى إذا نزلت استأخر بغيرها فحط عنه ثم قيده في الشجرة ثم تنحى عنها إلى شجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح قام إلى بغيرها فقدمه فرحله ثم استأخر عنها وقال :

— اركبي .

فإذا ركبت واستقرت على بغيرها أتى فأخذ بخطامه فقادها حتى ينزل بها ، فلم يزل يصع ذلك بها حتى أقدمها المدينة ، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقاء قال :

— زوجك في هذه القرية فادخلها على بركة الله .

ثم انصرف راجعا إلى مكة .

وظلت أم سلمة تحلق في سقف حجرتها في بيت رسول الله ﷺ —  
ثم قالت :

— والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة ،  
وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة .

ذكريات كثيرة أثارها نبأ موت النجاشي في وجدان أم سلمة ، وفي الحجرة  
المجاورة كانت أم حبيبة أم المؤمنين تعود بذاكرتها إلى أيام الحبشة . إنها تزوجت  
عبيد الله بن جحش بعد أن أسلم — وكان قد دخل في النصرانية من قبل —  
وقد فرت معه بدينها إلى الحبشة ، فقابل هناك الرهبان فارتد إلى النصرانية وكان  
يمر بأصحاب رسول الله ﷺ — وهم هناك من أرض الحبشة فيقول :  
— فقحنا وصا صائم<sup>(١)</sup> .

إنها ظلت على دينها ، فلما مات عبيد الله بأرض الحبشة رأت رؤيا فتفتحت  
لها كل آمالها ، سمعت في النوم هاتفا يهتف بها « يا أم المؤمنين » . فطار خيالها  
إلى المدينة حيث كان الرسول ﷺ — ؛ إنها بشرت بأنها ستصبح ذات يوم  
زوجة لنبي الإسلام عليه السلام .

وأطرقت تصيح السمع إلى الماضي البعيد ، إنها تسمع الساعة أبرة جارئة  
النجاشي وهي تزف إليها الشرى فيبدو على وجهها انفعالات الشرى لكأنما  
تسمعها لأول مرة :

---

(١) أبصرتنا وأنتم تلتسمون البصر ولم تبصروا بعد . وذلك أن ولد الكلب إذا أراد أن  
يفتح عينيه ليظهر صائماً ليظهر . وقوله فقح : فتح عينيه .

— أرسل رسول الله ﷺ — إلى مولاى ليزوجه إياك ، وإن مولاى  
بسألك أن توكلنى من يزوجهك .

— وكلت خالد بن سميد بن العاص .

— وخفق قلب أم حبيبة بين جنبها وشكرت الله على أن اصطفاها روجة  
لنبيه ، فإنها نعمة كبرى أن تصبح أم المؤمنين ، وعادت إلى ذاكرتها ما قالته لها  
أبرهة بعد أن تمت الخطبة :

— أنا صاحبة دهر الملك وثيابه وقد صدقت محمدا رسول الله وآمنت به  
وحاجتى إليك أن تقرئنى منى السلام ، وقد أمر الملك بساءه أن يعيثن إليك بما  
عندهن من عود وعبر .

إن رسول الله ﷺ — يراه عليها وعندها فلا ينكره .

وأهاج نأ موت النجاشى ذكريات الحبشة فى وجدان أم حبيبة ، وخرج  
النبا من دور النبى ﷺ — إلى دور المهاجرين والأنصار ، وفى دار أئى بكر  
الصديق راحت زوجه أسماء بنت عميس تحرى وراء ذكرياتها ، إنها هاجرت  
إلى الحبشة مع زوجها جعفر بن أئى طالب . وما كاد المسلمون يستقرون بها  
حتى أرسلت قريش خلفهم عمرو بن العاص ومعه عمارة بن الوليد بن المغيرة  
ذلك الذى أرادت قريش دفعه لأئى طالب ليكون بدلا عن السبى — ﷺ —  
إذا قتلوه . .

وراحت تتذكر ذلك اليوم الذى جاء فيه رسول النجاشى إلى المسلمين  
يطلبهم ، لقد علموا بما كان من عمرو ومن عمارة فقد قدما إلى النجاشى هدية  
وأهدوا لعظماء الحبشة هدايا ليرد من جاء إليه من المسلمين وإن جمعوا قال  
لأصحابه :

— أنا خطيبكم اليوم . ( غزوة تبوك )

عاد جعفر إليها بعد أن قابل الحاشي متلهل الوجه وراح يقص عليها ما كان من هزيمة عمرو وصحه . إنه قال لها إنه سار والذين معه من المسلمين في ردهات القصر حتى إذا ما بلغوا باب قاعة العرش صاح وقال :  
— جعفر بالباب يستأذن ومعه حزب الله .

فقال التجاشي :

— نعم . يدخل بأمان الله ودمته .

ودخل جعفر وأصحابه فإذا بعمرو بن العاص عن يمين الحاشي وعمارة ابن الوليد عن يساره ، فقال جعفر :  
— السلام عليكم ورحمة الله .

فقال عمرو بن العاص للتجاشي :

— ألا ترى أيها الملك أنهم مستكبرون لم يحويك بتحيتك ؟

فقال التجاشي :

— ما منعكم أن تسجدوا وتحبوني بتحيتي التي أحيأ بها ؟!

فقال جعفر :

— إنا لا نسجد إلا لله عز وجل .

— ولم تفعل ذلك ؟

— لأن الله أرسل فينا رسولا وأمرنا إلا نسجد إلا لله عز وجل ، وأخبرنا أن تحية أهل الجنة السلام . فحييناك بالذي يحى به بعضنا بعضا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة .

فقال عمرو بن العاص :

— إنهم يحالفونك في ابن مريم ولا يقولون إنه ابن الله جل وعلا .

قال :

— فما تقولون في ابن مريم وأمه ؟

قال جعفر :

— نقول كما قال الله عز وجل روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء .

فقال النجاشي :

— يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان ما يزيدون على ما تقولون . أشهد

أنه رسول الله وأنه الذي بشر به عيسى في الإنجيل .

وأهاج نبأ موت النجاشي ذكريات أيام الحبشة فراحت تنثال على رأس أئماء بنت عميس التي استشهد زوجها العزيز في مؤتة ، فتزوجها أبو بكر الصديق من بعده ، فما كان المسلمون يتركون أرواج الشهداء دون عائل فقد كانوا يعلمون أن النساء في حاجة إلى الزوج حاجتهم إلى الطعام والشراب . ونكأ خير موت النجاشي جرح قلب عمرو بن العاص . إن سادات قریش بعثوه وعمارة بن الوليد إلى النجاشي ليطلباه منه أن يسلمهما المسلمين الدين فروا إلى أرضه : إنه أخذ معه زوجته وكان عمارة رجلاً جميلاً ففن امرأته وهوته . إنه يحاول أن يطرد أشباح الماصي عن رأسه ولكن الذكريات راحت تلح عليه ، إنه يرى نفسه وهو في السفينة وإلى جواره امرأته وعمارة بن الوليد يقلل نحوهما وهو يترنح ، وإنه ليسمع صوت عمارة وهو يقول له في صوت أشبه بفحيح الأفاعي :

— مر امرأتك فلتقتلني .

ويدوى في السكون صوته كقرع الطبول :

— ألا تستحي ؟

إنه يرى عمارة وهو يتقدم نحوه ويراه وهو يحمله ويلقى به في البحر ، وإن صوته وهو يصبح يرن في أعماق ذاته . إنه ناشد أصحاب السفينة أن يقدوه

وناشد عمارة أن يأخذ بيده ، إنه ليرى الأيدي وهي تمتد إليه وتتشله من اليم ، وأعمض عينيه حتى لا يرى ما كان ولكن الصور ظلت تتتابع في خياله رغم أنفه ، والأصوات تسرى فيه كالهمس وكزحمة البحر مرات وهو يتلوى من الألم يود لو يجد شيئاً يشغفه عن تلكم الأفكار التي تعده وتضنيه .

— قبل ابن عمك عمارة لتطيب بذلك نفسه .

وغطى وجهه براحتيه ومسح جبينه لعله يححو ما في رأسه من حيالات ؛ ولكن الذكريات راحت تندفق دون انقطاع . إنهم أتوا أرض الحبشة وهو لا يستطيع أن ينسى ما كان في السفينة ولا بد أن يثار لما لحقه من إهانة .

إنه مكر بعمارة وراح الحديث الذي دار بينهما في ذلك اليوم يتفجر في أعماقه :

— أنت رجل جميل والنساء يحببن الحمال ، فتعرض لزوجته النجاشي لعلها أن تشفع لنا عنده .

— أفعل .

وحيل إليه أن صوت عمارة كان كسوط يذهب حواسه ، وأخذ يقنع نفسه أن ذلك كان مه قبل أن يُسَم وأن الإسلام يجب ما قبله ، ولكن شبح عمارة كان يأخذ بتلابيبه ؛ إنه جاء إليه يخبره أن زوجة النجاشي أهدت إليه من عطرها ، وهو يرى نفسه وهو ينسل إلى النجاشي ويقول له :

— إن صاحبي هذا صاحب نساء وإنه يريد أهلك ، وهو عندها الآن .

فبعث النجاشي فإذا عمارة عند امرأته فقال :

— لولا أنه جارى لقتلته ، ولكن سأفعل به ما هو شر من القتل .

— ألقاه النجاشي في الأدغال مع الوحوش يرد معها إذا وردت ويصدر

معها إذا صدرت .

وهز عمرو بن العاص رأسه ليطرد ما فيه من صور ، ولكن مكره بعمارة  
بن الوليد استمر يلاحقه . لقد أثنع صدره في ذلك اليوم لما حمل عمارة إلى  
رعوس الجبال فإذا بذلك الفرح ينقلب إلى وخز يخز صميره كلما تذكر  
أحداث الحبشة ، وبعث في عين ذاته شعره الذي حاطب به عمارة لكأما نشر  
من قبر صحيح :

إذا المرء لم يتترك طعاما يحبه  
ولم ينه قلبا عاوبا حيث يما  
قضى وطرا منه وغادر سيرة  
إذا ذكرت أمثالها تملأ الفما

وأهاج خبر موت النجاشي ذكريات الحبشة في وجدان عمرو بن العاص ،  
ولم يثن طيف عمارة بن الوليد عنه في اليقظة وفي المنام .

وعاد عمرو بن أمية الضمري بخياله إلى تلكم الأيام التي بعث فيها رسول الله  
ﷺ — إلى النجاشي في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه وكتب معه  
كتابا : ( بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم  
ملك الحبشة ، سلم أنت ، فأني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن  
المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول  
الطيبة الحصينة فحملت بعيسى . فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده  
ونفخه . وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالة على طاعته وأن تتبعني  
وتؤمن بالذي جاءني من رسول الله . وقد بعث إليك ابن عمي جعفر وأنفرا  
معه من المسلمين ، فإذا جاءك فأقرهم ودع التحير ، فإني أدعوك وحنودك إلى  
الله فقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى ) .

ويرى عمرو بن أمية الضمري نفسه وهو يسير في ردهات قصر النجاشي ومن

حواله كبار موطفي القصر وقد زينت الجدران برعوس الأسود والتمور والغزلان ، وفرشت الأرض بجلود فاخرة ، حتى إذا بلغ باب قاعة العرش نادى :

— بالباب عمرو بن أمية الصمرى رسول محمد رسول الله .

— مرحبا بك . ادخل .

ويرى نفسه وهو يتقدم مرفوع الرأس ويلقى على النجاشي تحية الإسلام فيرد عليه بتحية الإسلام ويرحب به ويجلسه عن يمينه ويتلقى منه كتاب رسول الله — ﷺ . فما انتهى منه حتى يسارع باستدعاء كاتبه العربى ويلى عليه :  
( بسم الله الرحمن الرحيم . إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن أبجر . سلام عليك يا نبى الله ورحمة الله وبركاته من الله الذى لا إله إلا هو الذى هدانى إلى الإسلام . أما بعد فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى . فو رب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت تفروقا . إنه كما قلت وقد عرفنا ما بعثت به إلیا . وقد قربنا ابن عمك وأصحابه فاشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين . وقد بعثت إليك بابنى إرهاب بن الأصحم بن أبجر فأبى لا أملك إلا نفسى وإن شئت أن أتیک فعلت يا رسول الله ، فأبى أشهد أن ما تقول حق والسلام عليك يا رسول الله ) .

إنه يرى بخياله النجاشي وهو يحتم الكتاب بخاتمه ووجهه خاشع وقد انعكس عليه الإيمان العميق ، ويراه وهو يطوى الكتاب فى المعال ثم يقدمه إليه فى أدب جم ويسأله أن يقرئ رسول الله — ﷺ — السلام .

وعاش عمرو بن أمية لحظات فى الويلة التى أولمها النجاشي فى قصره لما روح أم حبة بنت أبى سفيان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، ورأى

نفسه وهو يخرج من الحبشة ومعه جعفر بن أبى طالب وأصحابه وأم حبيبة  
أم المؤمنين فى سعتين حتى قدموا مرفأ المدينة ، ثم ركبوا الظهر إلى المدينة  
فوجدوا رسول الله ﷺ — بخير مع من حرح إليه ، وأقامت أم حبيبة حتى  
قدم رسول الله ﷺ فدخلت عليه .

ذكريات كثيرة أثارها خبر موت الحاشى و رعوس الذين هاجروا إلى  
الحبشة فى المجرتين ، وأفكار تطوى الرمن فيمتزح الماصى بالحاضر فى وجدان  
أناس صنعوا تاريخ حقبة من أهم حقب الإسلام ، وحوار ظل مشبوا إلى أن  
أمر رسول الله ﷺ — أصحابه أن يحضروا وصفهم ثم تقدم رسول الله ﷺ —  
وقال لهم :

— إن الله أمرنى أن أصلى على النجاشى وقد توفى فصلوا عليه .

وهن عظم عبد الله بن أبي بن سلول واشتعل رأسه شيبا ولم يحب حقه  
 على رسول الله — ﷺ — بل اشتد مرض قلبه فهو لا يفتأ يذكر أن محمدا عليه  
 السلام قدم المدينة لما كان هو سيد أهلها ، لا يختلف عليه في شرفه في قومه  
 اثنان . لم تجتمع الأوس والخزرج قبله على رجل من أحد الفريقين غيره .  
 كان قومه قد نظموا له الخمر ليتوجه ثم يمسكوه عليهم ، فجاء محمد بن عبد  
 الله مهاجرا إلى يثرب وهم على ذلك ، فلو أن هجرة رسول الله — ﷺ —  
 تأخرت شهرا أو بعض شهر لكان أول ملك على يثرب ، ولنعم بالسيادة وعز  
 الملك وجاه السلطان .

انصرف قومه عنه إلى الإسلام فامتلا قلبه ضغينة ، ورأى أن رسول الله —  
 ﷺ — استلبه ملكا فراح يكيده لرسول الله — ﷺ — صلوات الله عليه — سرا  
 وجهرا . فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارها مصرا على التعاق .  
 مرض سعد بن عبادة فركب رسول الله — ﷺ — إليه على حمار فوقه  
 قطيفة قد كية وأردف أسامة بن زيد خلفه ، فمر بعبد الله بن أبي وهو في ظل  
 مراحم أطمه وحوله رجال من قومه . فلما رآه رسول الله — ﷺ — استجيا  
 من أن يحاوزه حتى يرل ، فنزل فسلم ثم جلس قليلا ، فتلا القرآن ودعا إلى الله  
 عز وجل ودكر بالله وحذر ، وبشر وأبذر ، وهو ساكت لا يتكلم ، حتى إذا  
 فرغ رسول الله — ﷺ — من مقافته قال :

— يا هذا ، إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقا ؛ فاجلس وبيتك  
فمن جاءك له فحدثه إياه ومن لم يأتك فلا تفتنه به ولا تأتبه في مجبسه عما يكره  
منه .

فقال عبد الله بن رواحة في رجال كانوا عنده من المسلمين :  
— بلى فاعشنا به واتنا في محالنا ودورنا وبيوتنا ، فهو والله مما يحب ومما  
أكرمنا الله به وهدانا له .

فقال عبد الله بن أبي حنن رأى من خلاف قومه ما رأى :  
متى ما يكسر مولاك خصمك لا تنزل  
تسذل ويصرعك الذي — تنصارع

وهل يهضر البازي بغير جناحه  
وإن جُدد يوما ريشه فهو واقع  
وقام رسول الله — ﷺ — فدخل على سعد بن عبادَةَ وفي وجهه ما قال  
عدو الله ابن أبي ، فقال سعد بن عبادَةَ :  
— والله يا رسول الله إني لأرى في وجهك شيئا ، لكأنك سمعت شيئا  
تكرهه .  
— أجل .

ثم أخبره بما قال ابن أبي فقال سعد :  
— يا رسول الله ارفع به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإنا لسظم له الخمر  
لتوجه ، فوالله إنه ليرى أن قد سلبتَه ملكا .  
وظل التاج يتحايل لاس أبي كلما أمد الله رسوله بصره ، فلم يكن يمرح  
بنصر المؤمنين بل كان يصاب بحزن ثَقِيل إذا مست المسلمين حسنة ، إنه كاد  
يموت غما لما تم النصر للمسلمين بيدر ، وراد قلبه مرضا لما جمع رسول الله —

ﷺ — يهود بنى قيقاع في سوقهم وقال لهم :

— يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة ، وأسلموا

فإيكم قد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم .

— يا محمد إنك ترى أنا قومك ! لا يفرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم

بالحرب فأصببت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس .

كان يهود بنى قيقاع حنفاء ابن أبي هكاز يتحرق شوقا إلى أن تنشب

الحرب بين محمد عليه السلام وبين اليهود ، وكان يمني النفس بانتصار اليهود

على عدوه ، وعادت الأمانى تداعيه بأن وضع التاج على رأسه قد دنا ، فلما

أنزل الله تعالى في يهود بنى قيقاع : « قل للذين كفروا سئعهم وتنجسوا إلى

جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية في فتنتين التقتا فقتل في سبيل الله

وأخرى كافرة يروهم مثلهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في

ذلك لعبرة لأولي الأبصار <sup>(١)</sup> . اردادت رغبته في نصر اليهود على المسلمين .

قلو تحقق ذلك لتزعزع إيمان المؤمنين بقرآن محمد ، ولسهل عليه أن يطرده ذلك

الذي جاء ليسليه ملكه .

وكان بنو قيقاع أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ ،

محاصرههم رسول الله حتى نزلوا على حكمه ، فكاد قلب ابن أبي أن ينفطر ولم

يستطع أن يهكم عواطفه فقال :

— يا محمد أحسن في موالي .

فأبطأ عليه رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ :

— أرسلني .

(١) آل عمران ١٢ ، ١٣ .

و غضب رسول الله ﷺ — حتى رأوا لوجهه ظللا ثم قال :  
— وبحك ! أرسلنى .

— لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى ، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع  
قد منعونى من الأحمر والأسود تحصدهم فى عداة واحدة ، إني والله امرؤ  
أخشى الدوائر .

ولم يشأ رسول الله ﷺ — أن يحدث انقساماً فى مجتمعه الجديد الذى  
كان ينمو مع الأيام ، فقال :  
— هم لك .

كان عبد الله بن أبى يتلمس الأسباب ليطعن الإسلام طعة قاتلة ، ولكن  
رسول الله ﷺ — كان يفوت عليه تدبيره وكان يفقر له لإساءاته ويرفق  
به ، فقد جاء الله برسوله إلى المدينة وأهلها ينظمون الخرز لابن أبى ليتوجوه  
ملكاً عليهم .

رأى ابن أبى يوم أحد أن يقيم المسلمون بالمدينة وأن يدعوا عدوهم يدخل  
عليهم ويقاتلوه فيها ، لا لأنه كان يؤمن بأن ذلك فى مصلحة المسلمين بل لأنه  
كان يرى أن انكسار المسلمين فى المدينة فيه سحق لقوتهم ، وأن هزيمتهم  
لو وقعت ستكون قاضية ، فلما استقر رأى على الخروج لم يخضع لرأى  
الأغلبية بل قال :

— أطاعهم وعصانى ، ما يدري علام تقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس ؟  
ووجد سبباً لينخذل عن رسول الله ﷺ لعل رجوعه بمن اتبعه من قومه من أهل  
النفاق والرأي يفت فى عضد جيش المسلمين ، فتتحقق هزيمتهم التى كانت  
شغله الشاغل ومحور تفكيره وتدبيره .

إنه كان يظهر الطاعة والرضا ويضمم العداوة والبغضاء ، فإذا جلس

رسول الله — ﷺ — يوم الجمعة وهو يحطّب الناس قام عبد الله بن أبى فقال :  
 — أيها الناس ، هذا رسول الله — ﷺ — بين أظهركم أكرمكم الله وأعزكم  
 به ، فانصروه وعزّروه واسمعوا له وأطيعوا .  
 فلما عاد رسول الله — ﷺ — من أحد قام عبد الله بن أبى ليعطى من  
 طرف لسانه للمسلمين حلاوة ويلج في النفاق ، فأخذ المسلمون بثيابه من  
 نواحيه وقالوا :

— اجلس أى عدو الله ، لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت .

فخرج يتحطى الرقاب وهو يقول .

— والله لكأنا قلت هجرا أن قمت أشدد أمره .

فلقيه رجل من الأنصار باب المسجد فقال :

— مالك ؟ ويلك !

— قمت أشدد أمره فوثب على رجال من أصحابه يجذبوننى ويعنفوننى

لكأنا قلت هجرا أن قمت أشدد أمره .

— ويلك ! ارجع يستغفر لك رسول الله — ﷺ — .

— والله ما أبتغى أن يستغفر لى .

كان يظهر الإيمان بلسانه وكان الكفر بملأ قلبه ، وكان يعيش على أمل أن

ينتصر حلفاؤه من اليهود على رسول الله — ﷺ — وأن يقضى على الإسلام

في المدينة ، فيعود إليه نفوذه ويعود إليه التاج الذى سلبه إياه محمد بن عبد الله

يوم أن هاجر إلى يثرب .

وغدر يهود بنى الصير ودبروا قتل رسول الله — ﷺ — لما ذهب إليهم ،

فقد حلا بعضهم ببعض وقالوا :

— إنكم لن تحذوا الرجل على مثل حاله هذه .

كان رسول الله إلى حسب جدار من بيوتهم قاعدا فقالوا :

— فمن رحل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيرى بها ١٩ !  
فصعد أحدهم ليلقى عليه صخرة ، فأتى رسول الله — ﷺ — الخبر من  
السماء عما أراد القوم ، فقام وخرج راجعا إلى المدينة وكانت الحرب بين  
المسلمين وبين بنى النضير .

وراح عبد الله بن أبي بن سلول يعرض أصابعه من القيظ ، فلو أن الصحرة  
قد هوت على محمد بن عبد الله لأراحت اليهود وأراحت من الرجل الذي سلبه  
التاج وسلبه قلوب الناس حتى قلب ابنه عبد الله .

وتحصن بنو النضير من رسول الله — ﷺ — في الحصون وحاصروهم  
رسول الله عليه السلام ، ورأى ابن أبي أن يشد أزر اليهود فهم أمله الأخير ،  
فبعث إلى اليهود أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لن نسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن  
أخرجتم خرجنا معكم .

وقذف الله في قلوب بنى النضير الرعب وسألوا رسول الله — ﷺ — أن  
يجلبهم ويكف عنهم . وخرج بنو النضير إلى حير وإلى الشام ولم يحرك عبد الله  
ابن أبي ساكتا . إنه كان يخشى بطش المسلمين وإنه يريد الدنيا ليحقق أحلامه  
الأرضية ، فكان دمه غاليا يخشى أن يهدر قبل أن يحقق الوهم الذي استولى على  
لبه ، وهو أن يصير ملكا على الأوس والخزرج جميعا .

وكان بين الحين والحين ينفس بلسانه عن حقد الدفين ، فقد قاتل رسول  
الله — ﷺ — بني المصطلق ونصر الله رسوله ، فلما جاء الليل تراحم الناس  
على الماء فتشابك أحر عمر بن الخطاب وساد بن وير الجهشي حليف بني  
عوف من الخزرج ثم اقتتلا ، فصرح الجهشي .

— يا معشر الأنصار .

وصرخ أجبر عمر :

— يا معشر المهاجرين .

فغضب عبد الله بن أبي فقال :

— أَوَقَد فعلوها ؟ لقد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما أعدنا وجلايب قريش إلا كما قال الأول : سَمْنٌ كلبك يأكلك ! أما والله لعن رجعتنا إلى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذل .

ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم :

— هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم .

وبلغ رسول الله — ﷺ — ما قال كبير المافقين ، فلما علم ابن أبي أن رسول الله قد بلغه ما قال مشى إليه فحلف بالله إنه ما قال ولا تكلم بما بلغ نبي الإسلام عليه السلام . فأمر الله قرآنا يكذبه فأوجع ذلك قلب ابنه عبد الله ، فأقى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله إنه قد بلعنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت لا بد فاعلا فمروني به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مى ، وإني أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشى في الناس فأقتله ، فأقتل رجلا مؤمنا بكافر فأدخل النار .

— بل نترق به ونحسن صحبته ما بقى معا .

وأحسن رسول الله — ﷺ — صحبته ، ولكنه لم يستطع أن يبرأ من مرض قلبه فإنه حاض في حديث الإفك وراح يرمى عائشة أم المؤمنين بالفاحشة ويوسع الأرض إذاعة بما افتراه ليرلر كيان رسول الله — ﷺ —

وليقص أركان ذلك الدين الذى كان الصحرة التى تحطم عليها آماله ، وعاش أياما وهو يتהל بالفرح ولكن الله أنزل براءة عائشة من فوق سبع سموات وتوعد الذين جاعوا بالإفك بعذاب عظيم .

وأمر رسول الله — ﷺ — الناس أن يتجهزوا للحروج لقتال الروم ، فخرج عبد الله بن أبى فى رجال من قومه وضرب على حدة عسكره أسفل من عسكر رسول الله — ﷺ — ولم يكن خروجه ليؤيد المسلمين بل لتبيط همهم ، فراح يوسوس لهم لا تنفروا فى الحر . فلما أبى المسلمون إلا أن ينفروا فى الحر ابتغاء مرضاة الله تخلف عبد الله وهو يرجو أن يضرب الروم المسلمين ضربة قاصمة ليعود إليه المجد والتاح ، فما جاء الحق وظهر أمر الله كاد يموت من الغم لولا بقية من أمل فى أن تأتى الأيام بما يشتهيه .

ولم تحقق الأيام أمانيه ، إنه ناء بأحقاد قلبه فسقط فى مراشه ليلتقط أنفاسه فلم يشخص ببصره إلى السماء يلتمس من ربه المعصرة ويتوب إليه من وسوسات نفسه الأمارة بالسوء ، ولكنه عاد بذاكرته إلى ذلك اليوم الذى خرج فيه على رأس الأوس والخزرج للحج . إن رجاله قد ناموا معه فى رحالهم بعد أن حجوا وما درى أن بعضهم قد واعدوا محمد بن عبد الله ليقابلوه عند العقبة . إنه ما انقضى ثلث الليل حتى خرجوا من رحالهم لميعاد ابن عبد الله يتسللون تسلل القطا مستخفين ، حتى اجتمعوا فى الشعب عند العقبة .

آه لو اتكشف أمرهم فى تلك الليلة لقضى على الفتنة قبل أن يشتد عودها ، ولما ضاع منك الملك والتاح ، إنهم دبوا أمرهم وبايعوا محمد بن عبد الله على نصره ، فلما أصبح الناس غدت عليهم حلة قريش حتى جاعوهم فى منارهم فقالوا :

— يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجوه من

بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إليا  
أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم .

فقال فى ثقة :

— ان هذا أمر جسيم ما كان قومى ليتفوتوا على مثل هذا وما علمته كان .  
وأحس وهو فى فراش الموت مرارة فى فمه ، إن غروره قد قتله . كان على  
ثقة بمكانته فى قومه وما حطرت له على قلب أن ناسا من قومه يدبرون أمرا وراء  
ظهره ، فقد احتاروه طائعين ليكون لهم ملكا وإسهم يتأهبون لتوجيهه ، فلو أن  
بادرة من الشك خامرته لفحص عن الأمر ولعرف حقيقة ما كان بين محمد بن  
عبد الله وبين النقباء الاثنى عشر عند العقبة ، ولأحمد حذوة الثورة قبل أن  
تتأجج وتأقى على آماله وأمانيه .

وانبعثت من جوفه ضحكات ساخرة ، وترادفت على رأسه صور  
انتصارات رسول الله — ﷺ — فزادت آلام نفسه فحعل يضرب رأسه  
بكف واهنة ليطرده الأفكار المظنية التى تعذبه وتلهب روحه بسيياط أشد  
قسوة من النار .

ورأى عبد الله بن عبد الله بن أبى أن أباه فى الرع الأخير ، فنزل به حزن  
ثقيل لأن أباه يموت متافقا ولم يشرح الله للإسلام صدره ، فغدا يتوسل إلى أبيه  
أن يتوب إلى الله توبة نصوحا وأن يسأله المغفرة ، ولكن أباه لم فى عياده فأشاح  
بوجهه عن ابنه الذى أشرق قلبه بأنوار اليقين .

وخرج عبد الله بن عبد الله بن أبى يعدو إلى حيث كان رسول الله — ﷺ —  
وسأله فى انفعال شديد أن يستغفر لأبيه ، كان — ﷺ — يحب عبد الله  
وكان يعرض عن إساءات أبيه فهو لا يسى أنه حرمه الملك والسلطان . فراح  
يستعمر لابل أبى فأحس ابنه عبد الله كأن كابوسا انزاح عن صدره .

ولم يطل فرح الابن فقد أنزل الله تعالى : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فنسحقهم الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (١) فأطرق عبد الله وبياط قلبه تتمزق ، فهو يحب أباه بكل خلجة من خلجات نفسه وهو يرجو له أن يتطهر من نفاقه قبل أن يلقي ربه ، ولكن الأب أصر على الكفر والعصيان إرضاء لغروره وكبريائه . ومات عبد الله بن أبي بن سلول ولم يأس ابنه عبد الله بل ظل متعلقاً بأمل ، فلعل صلاة رسول الله ﷺ — على أبيه تشفع له عند ربه ، فأتى رسول الله عليه السلام وقال له :

— أعطني قميصك حتى أكفنه فيه وصل عليه واستغفر له .

فأعطاه عليه السلام قميصه ، ثم قال :

— آذني حتى أصلي عليه .

وكفنه عبد الله بن أبي بن قيس رسول الله ﷺ — وحن أوان الصلاة على أبيه ، فقام إليه فلما وقف يريد الصلاة عليه ، جذبه عمر بن الخطاب ونحوه حتى وقف في صدره فقال له :

— يا رسول الله أتصلي على عدو الله عبد الله بن أبي بن سلول القاتل كذا يوم كذا والقاتل كذا يوم كذا ؟

وراح يعدد أيامه ورسول الله ﷺ — يتبسم حتى إذا أكثر عمر قال عليه السلام :

— يا عمر أحر عني ، إني قد خيرت فاخترت ، قد قيل لي : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ فلو أعلم أنني

قد زدت على السبعين غفرا له لزدت .

ثم صلى عليه رسول الله ﷺ — ومشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه ، فعجب عمر لنفسه ولخراجه على رسول الله ﷺ — والله ورسوله أعلم ، وظل يؤنب نفسه فما كان إلا يسيرا حتى أنزل الله تعالى : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إسمهم كبروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ (١) فأفرخ روع عمر ونزلت على قلبه السكينة وحمد الله رب العالمين .

وكلم عمر رسول الله ﷺ — فيما فعل بعبد الله بن أبي ، فقال عليه السلام :

— وما يعنى عنه قميصى وصلاتى من الله ! والله إني كنت أرجو أن يسلم به ألف من قومه .

آء أوان الحج وقد رفرؑ الإسلام على مكة ؄ الكعبة قد طهرت من الأصنام لما جاء الحق وزهق الباطل ؄ وقريش تصلى لله رب العالمين ولكن بعض القائل الذى لم تعتق الإسلام كانت على شركها وكانت توفى البيت العتيق وتحج إليه ؄ فسيجتمع المسلمون والمشركون فى بين واحد وفى وقت واحد ؄ وسيلبى كل فريق تلبية وإنه لأمر لا يستقيم ولا يتساقق مع ما ينبغى أن يكون فى أول بيت وضع للناس ليكون مبارءة للتوحيد .

كان التوحيد هو الأصل وقد جاء الشرك لما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم وقد أقام إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل لعبادة الله وحده ؄ فإن كان الناس قد أشركوا بربهم وعدوا آلهة مع الله ؄ فقد جاء الإسلام ليعيد ملة إبراهيم وليطهر بيت الله من الأصنام والأوثان لبطائفين والقائمين والركع السجود . وعاد البيت الحرام سيرته الأولى ؄ عاد منارة للتوحيد فأصبح حج المشركين البيت وإقامة شعائرهم فيه شيئاً غير مقبول ولا يساغ ؄ وكان بعض فقراء المشركين من الرجال والنساء يطوفون بالبيت عرايا لأن الخمس من قريش قالوا إنه لا يجوز الحج فى ملابس اقترفت فيها الخطايا وكانوا يبيعون الحجاج ثيابا جديدة ؄ عالدين كانوا لا يملكون ثمن الثياب كانوا يملعون ما عليهم ويطوفون بالبيت كما ولدتهم أمهاتهم ؄ وإنه لشيء يتنافى مع كرامة الإنسان وما جاء الإسلام إلا ليحفظ لناس كرامتهم .

وبات الأمر يحتاج إلى تشريع ليكون بيت الله خالصا لله ، ولكس للمشركين عهدا بينهم وبين رسول الله ﷺ — أن لا يُصد عن بيت أحد جاءه ولا يخاف أحد في الشهر الحرام . وكانت هناك عهود يبه عليه السلام وبين قبائل من العرب إلى آجال مسماة .

كانت رغبة رسول الله ﷺ — أن يحج البيت وقد نظهر من الشرك والمشركين ومن العرارة الذين يثرون اشمزاز كل ذى دوق سليم ، فبعث أبا بكر أميرا على الحج من سنة تسع ليقم للمسلمين حجهم والباس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم ، فخرج أبو بكر ومن معه من المسلمين .

واجتمع المسلمون والمشركون في أسواق مجنة وذى المجاز وعكاظ ، وقام شعراء المسلمين ينشدون الشعر في محاسن الإسلام ، وحفل القراء يتلون القرآن فرمف الإسلام على الأسواق ولم يعد هناك شك أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

أين اليوم من الأمس ؟ فاليوم بهرع الباس ليلقوا السمع إلى خطباء المسلمين يبا كان محمد عليه السلام لما أمره ربه بتبليغ رسالته يخرج إلى الأسواق يعرض نفسه على القائل فلا يجد منهم إلا الإعراض المين .

وأنزل الله على عبده : ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ﴾ فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعصوا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين ﴾ وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴾ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم يقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث

وحدثوهم وحذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم \* وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون \* كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الدين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين \* كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقوا فيكم إلا ولا ذمة يرصونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون \* اشترُوا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون \* لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون \* فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون \* وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم يتتهون \* ألا تقاتنون قوما نكثوا أيمانهم وهُمْ بآخراج الرسول وهم بدعواكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين \* قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين \* ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم \* أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتحدوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله حبير بما تعملون \* ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون \* إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴿١﴾ .

وراح رسول الله ﷺ — يتلو على المسلمين في مسجده ما أنزل عليه من ربه ، فقالوا :

— يا رسول الله لو بعثت بها إلى أبي بكر الصديق .

فقال عليه السلام :

— لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي .

ثم دعا على بن أبي طالب فقال له :

— اخرج بهذه القصة من صدر براءة وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا

بمنى : أنه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت

عريان . ومن كان له عند رسول الله ﷺ — عهد فهو له إلى مدته .

فخرج علي كرم الله وجهه على ناقه رسول الله ﷺ — العصاة . حتى

أدرك أبا بكر بالطريق . فلما رآه أبو بكر بالطريق قال :

— أمير أم مأمور ؟

— بل مأمور .

ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس الحج والعرب إذ ذاك في تلك السنة على

منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية . وراح الرجال الذين لم يشرح

الله صدورهم بعد للإسلام يرنون إلى المسلمين في عجب وإعجاب ، وأخذ

بعضهم يصفي إلى كلام الله فيستشعر كأن أنوارا من السماء تنسك في عين

ذاته وفي أعماق وجدانه ، وبذرت في قلوب بعض القبائل فكرة شد الرجال

إلى مدينة الرسول للإصغاء إلى حكمته وإعلان الإسلام والتسليم لله .

وجاء يوم النحر وقد اجتمع الناس جميعا في منى فقام علي بن أبي طالب

فأذن في الناس بالذي أمره به رسول الله ﷺ — فقال :

— أيها الناس إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ،

ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عند رسول الله ﷺ — عهد فهو له إلى مدته .

وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ليرجع كل قوم إلى ما منهم أو بلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحد كان له عند رسول الله ﷺ — عهده إلى مدته فهو له إلى مدته .

إن قريشا كانوا إمام الناس وهاديتهم وأهل البيت الحرام وقادة العرب لا ينكرون ذلك ، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله ﷺ — وخلافه . فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ودوحها الإسلام وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ — ولا عداوته ، رأت قبائل العرب أن تبعث إليه — صلوات الله وسلامه عليه — الوفود لتدين له وتعلن إسلامها .

وأحسن حسان بن ثابت شاعر الرسول أن قريشا بعد إسلامها قد تستحوذ على أحد كله . فراح حسان بعدد أيام الأنصار مع السى — ﷺ — ويذكر مواطنهم معه في أيام غزوه :

أَلَسْتُ خَيْرَ مَعَسَدٍ كُلُّهَا نَفَرَا

وَمَعَشَرًا إِنْ هُمَا عُمُوا وَإِنْ حَصَلُوا

قَوْمٌ هُمْ شُهَدَاؤُا بَدْرًا بِأَجْمَعِهِمْ

مَعَ الرَّسُولِ فَمَا آلَوْا<sup>(١)</sup> وَمَا خَذَلُوا

وَبَايَعُوهُ فَلَمْ يَنْكُثْ بِهِ أَحَدٌ

مِهِمْ وَلَمْ يَلِكْ فِي إِيمَانِهِمْ دَخَلٌ<sup>(٢)</sup>

(١) ما آلوا : ما قصروا . ويروى : ما آلوا ، بالمد ، أى ما أبطلوا .

(٢) دخل : فساد .

ويوم صَبَّحَهُمْ فِي الثُّغْبِ مِنْ أَحَدٍ  
ضَرَبَ رَصِينَ<sup>(١)</sup> كَحَرِّ السَّارِ مُشْتَعِلٌ  
وَيَوْمَ ذِي قَرْدٍ يَوْمَ اسْتَشَارَ بِهِمْ  
عَلَى الْجِيَادِ ، فَمَا خَامُوا وَمَا يَكْلُوا<sup>(٢)</sup>  
وَذَا الْعَشِيرَةِ جَاسُوهَا<sup>(٣)</sup> بِخَيْلِهِمْ  
مَعَ الرَّسُولِ عَلَيْهَا الْبَيْضُ وَالْأَسَلُ  
وَيَوْمَ وَدَّانَ أَجْلَسُوا أَهْلَهُ رَقَصًا<sup>(٤)</sup>  
بِالْخَيْلِ حَتَّى نَهَانَا الْحَزَنُ وَالْحَبْلُ  
وَلَيْلَةً طَلَبُوا فِيهَا عَدُوَّهُمْ  
وَاللَّهُ وَاللَّهُ يَجْزِيهِمْ بِمَا عَمِلُوا  
وَعِزَّةً يَوْمَ نَجْدِثُمْ كَمَا كَانَ لَهُمْ  
مَعَ الرَّسُولِ بِهَا الْأَسْلَابُ وَالْثَّقَلُ  
وَلَيْلَةً يَحْنَنِينَ جَالِدُوا مَعَهُ  
فِيهَا يَعْثُلُهُمْ<sup>(٥)</sup> بِالْحَرْبِ إِذْ نَهَلُوا  
وَعِزَّةً الْقَاعَ فَرَّقْنَا الْعَدُوَّ بِهِ  
كَأَنَّ ثَقْرُقَ دُونَ الْمَشْرِبِ الرَّسُلُ

---

(١) رَصِين : ثابت محكم .

(٢) خَامُوا وَيَكْلُوا : جَبَّوْا عَنْ هَيْبَةِ وَفَرَغَ

(٣) جَاسُوهَا : وَطَنُوهَا ، وَالْبَيْضُ : السِّيُوفُ . وَالْأَسَلُ : الرَّمَاحُ .

(٤) الرِّقَصُ : ضَرْبٌ مِنَ الْمَشْيِ ، وَهُوَ الْحَبْلُ . وَالْحَزَنُ : مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ .

(٥) يَعْثُلُهُمْ : أَيْ يَكْرِهْهَا عَلَيْهِمْ ، مِنَ الْعَمَلِ ، وَهُوَ الشَّرْبُ الثَّانِي . الْهَلْ : الشَّرْبُ

الْأَوَّلُ .

ويوم بُويغ كانوا أهل بيعته  
 على الجلال فأسّوه وما عدّوا  
 وغزوة الفتح كانوا في سرّيته  
 مُرابطين فما طاشوا وما عجلوا  
 ويوم خيبر كانوا في كتيّته  
 يمشون كلهم مُتبسل<sup>(١)</sup> بطل  
 بالبيض تُرْعش في الأجام عارِية  
 تعوّج في الضرب أحيانا وتعتدل  
 ويوم سار رسول الله مُحْتَسِبًا  
 إلى نبوك وهم راياتيه الأول  
 وساسة الحرب إن حربٌ بدّت لهم  
 حتى بدت لهم الإقبال والقفل<sup>(٢)</sup>  
 أولئك القوم أنصار النبي وهم  
 قومي أصبر إليهم حين أتصل<sup>(٣)</sup>  
 ماتوا كراما ولم تُنكث عهودهم  
 وقتلهم في سبيل الله إذ قُتلوا  
 وقال حسان بن ثابت أيضا :  
 كنا ملوك النصارى قبل محمد  
 فلما أتى الإسلام كان لنا الفضل

(١) متبسل : موطن نفسه على الموت .

(٢) القفل : الرجوع .

(٣) حين أتصل : حين اتّصّب .

وأكرم ما الله الذى ليس عيسره  
 إلهه بأيام مضت ما لها شكل (١)  
 بنصر الإله والرسول ودينه  
 وألبسناه اسما مضى ما له مثل  
 أولئك قومى خير قوم بأثرهم  
 فما عُدَّ من خير فقومى له أهل  
 يربون (٢) بالمعروف معروف من مضى  
 وليس عليهم دون معروفهم قفل  
 إذا احتطوا (٣) لم يُمحشوا في نديهم  
 وليس على سؤلهم عددهم بُخل  
 وإن حاربوا أو سالموا لم يُشبهوا  
 فحرهم حتف وميلهم سهل  
 وجارهم موف بعلاء بيتهم  
 له ما ثوى فينا الكرامة والبدل  
 وحاملهم موف بكل حمالة (٤)  
 تحمل لا غرم عليها ولا تحدل  
 وقائلهم بالحق إن قال قائل  
 وحملهم عود (٥) وحكمهم عدل

(١) شكل : مثل . (٢) يربون : يصلحون .

(٣) احتطوا : قصدوا في مجلسهم .

(٤) الحمالة : ما يتحملة الإنسان من عزم في دية

(٥) عود : قديم متكرر .

ومما أمر المسلمين حياتهم

ومن غسّلته من جانبته الرُّسل (١)

وقال حسان بن ثابت أيضا :

قومي أولئك إن تسألني	كرام إذا الضيف يوما ألم (٢)
عظام القدور لأيسارهم	يكبون فيها المسير السُّم
يؤاسون جارهم في الغنى	ويحمون مولاهم إن ظلم
فكانوا ملوكا بأرضهم	ينادون غضبا بأمر عشم (٣)
ملوكا على الناس . لم يملكوا	من الدهر يوما كحل القسم (٤)
فأنبوا بعاد وأشياعها	ثمود وبعض بقايا إرم (٥)
بيثرب قد شيدوا في النخيل	حصونا ودجن فيها النعم (٦)
نواضح قد علمتها اليهود	د ( عل ) إليك وقولا هلم (٧)
وفيما اشتبوا من عصير القطا	ف (٨) والعيش رخوا على غيرهم

(١) أمير المسلمين : يعنى سعد بن معاذ . ومن غسّلته . يعنى « حنظلة » الذى غسّلته الملائكة حين استشهد يوم أحد . والرسل ها : الملائكة .

(٢) ألم : نزل .

(٣) عشم : من العشم ، وهو أسوأ الظلم .

(٤) يريد بحل القسم : فترة قصيرة .

(٥) فأنبوا : فأنبوا ، محفف الممرة ، وإرم : هى عاد الأولى .

(٦) دجن فيها النعم : اتخذت فى البيوت ، والداجن : كل ما ألف الناس كالحمائم والدجاج ونحو ذلك ، والنعم : الإبل والبقر والغنم .

(٧) نواضح : الإبل التى يستقى منها الماء ، وعل : رحر ترجر به الإبل ، وهلم

أقبل .

(٨) القطاف : اسم لما يقطف من العنب وغيره .

فسرنا إليهم بأنفائنا  
جنبنا بين جياد الخيو  
فلما أناخوا بجنبى صيرار  
فما راعهم غير معج الخيو  
فطاروا سراعا وقد أفزعوا  
على كل سلهبة<sup>(٤)</sup> فى الصبا  
وكل كمت مطار الفؤاد  
عليه فوارس قد عودوا  
ملوك إذا عشموا فى السلا  
فأبنا<sup>(٥)</sup> بساداتهم والسنا  
ورثنا مساكنهم بعدهم  
فلما أتانا الرسول الرشيد  
قلنا صدقت رسول الملوك  
فشهد أنك عبد الإله

على كل فحل هجان قَطم<sup>(١)</sup>  
ل قد جملوها جلال الأدم<sup>(٢)</sup>  
وشدوا السروج بلى الخزم  
ل والرحف من خلفهم قد دهم<sup>(٣)</sup>  
وجننا إليهم كأسد الأجم  
ن لا يشتكن نحول السام  
أمين الفصوص كمثل الزلم<sup>(٥)</sup>  
قراع الكماء وضرب إليهم<sup>(٦)</sup>  
د لا ينكلون ولكن قدم  
وأولادهم فىهم تقسم  
وكنا ملوكا بها لم نزم<sup>(٨)</sup>  
د بالحق والنور بعد الظلم  
هلم إلينا وفينا أقم  
أرسلت نورا بديين قيم

(١) الهجان : الأبيض . وقطم : هائج يشبه الضراب .

(٢) حبسا : قدنا ، وجللوها : غطوها ، والأدم : الجلد .

(٣) معج الخيول : سرعتها ، ودهم : جاء غفلة على غير استعداد .

(٤) سلهبة : الفرس الطويلة .

(٥) مطار الفؤاد . ذكى الفؤاد ، والعصوص : مفاصل العظام ، وأمين العصوص :

قوتها ، والزلم : القدح .

(٦) الكماء : الشجعان ، وإليهم : الأبطال الشجعان .

(٧) أبنا : رجعا

(٨) لم نزم : لم نتحول .

فإننا وأولادنا جنة	نقيك وفي مالنا فاحتكم
فنحن أولئك إن كذبوك	فناد نداء ولا تحتشم
وباد بما كنت أحفنه	نداء جهارا ولا تكتتم
فسار الغواة بأسياقهم	إليه يظنون أن يحترم <sup>(١)</sup>
فقمبا إليهم بأسياقهم	نجالس عنه بغاة الأمم
بكل صقيل له ميعه	رقيق الذباب عضوض خذم <sup>(٢)</sup>
إذا ما يصادف صم العظا	م لم ينب عنها ولم يتسلم
فذلك ما ورثنا القرو	م مجدا تليدا وعزّا أشم <sup>(٣)</sup>
إذا مر نسل كفى تسله	وغادر تسلا إذا ما انفصم <sup>(٤)</sup>
فما إن من الناس إلا لنا	عليه وإن خاس فضل التعم

(١) يحترم : يهتلك .

(٢) له ميعه : أى له صقال يشبه الماء في صفائه ، والذباب : حد طرف السيف ،  
وخذم : قاطع .

(٣) القروم : السادة ، والتليد : القديم ، والأشم : المرتفع .

(٤) انفصم : انقطع وانقرض .

أثم الناس الحج المؤمنون والمشركون ، ودخلت السنة التاسعة من المحجرة وبدأت وعادات العرب على رسول الله ﷺ ، وذلك أن العرب إما كانوا ينتظرون فتح مكة وإسلام هذا الحى من قريش . فلما فتح الله عز وجل على رسوله ﷺ — مكة وأسلم من أسلم من قريش ، وعدت عند ذلك وفادات العرب من كل قبيلة وجهة ودخلوا في دين الله أفواجا .

وإن وفود القبائل أو وفود بعض رجال من القبائل على رسول الله ﷺ — لم ينقطع مد جهر بدعوته في مكة إلى أن تدفقت الوفود على المدينة في عام الوفود ، فأبو ذر العفارى قدم — ومعه أهل غفار — على النبى ﷺ — وهو مكة فأسلم نصفهم قبل أن يقدم رسول الله ﷺ — المدينة ، وكان يؤمهم خُفاف بن إيماء بن رخصة الغفارى وكان سيدهم ، وقال بقيتهم : — إذا قدم رسول الله ﷺ — أسلمنا .

فقدم رسول الله ﷺ — المدينة فأسلم بقيتهم ، وجاءت أسلم فقالوا : — يا رسول الله إخواننا ، سلم على الذى أسلموا عليه . كانت غفار إخوان أسلم فلما أسلمت غفار أسلموا ، فقال رسول الله ﷺ : —

غفار غفر الله لها ، وأسلم سالمها الله .

وقدم ضماد بن ثعلبة الأردى مكة ، وهو رجل من أرد شعوة كان صديقا

للسي — ﷺ — في الجاهلية ، وكان يتطيب ويرقى فسمع سفهاء الناس يقولون :

— إن محمدا مجنون .

فقال :

— آتى هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي .

فلقى محمدا — ﷺ — فقال :

— إنى أرق من هذه الرياح وإن الله يشفى على يدي من يشاء ، فهل .

فقال رسول الله — ﷺ :

— إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله .

— تالله لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات ، فهل يدك أباعك على الإسلام .

فبايعه رسول الله — ﷺ — وقال له :

— وعلى قومك ؟

— وعلى قومي .

بعث رسول الله — ﷺ — سرية فمروا بقوم ضماد ، فقال صاحب

الجيش للسرية :

— هل أصبم من هؤلاء شيئا ؟

فقال رجل منهم :

— مطهرة .

ردوها عليهم فإنهم قوم صماد .

وقدم قيس بن مالك بن سعد بن مالك على رسول الله ﷺ — وهو بمكة فقال :

— يا رسول الله لأومن بك وأنصرك .

— مرحبا بك ، أتأخذونني بما فتى يا معشر همدان ؟

— نعم بأنى أنت وأمى .

— فاذهب إلى قومك فإن فعلوا فارجع أذهب معك .

فخرج قيس إلى قومه فأسلموا وتوجهوا إلى القبلة ، ثم خرج بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ — فقال :

— قد أسلم قومي وأمرونى أن آخذ .

كان ذلك قبل الهجرة وما كان الله قد أدن لرسوله بالهجرة ، فقال رسول الله ﷺ :

— نعم وافد القوم قيس .. وقيت وفتى الله بك .

ومسح بإصبعه وكتب عهده على قومه همدان .

وقدم مكة الطمیل بن عمرو الدوسى وكان رجلا شريفا شاعرا ليبيًا ، فمضى إليه رجال من قريش يحذروه من أن يلقي السمع إلى محمد ﷺ — لأن قوله كالسحر يفرق بين الرجل وأبيه وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل وبين زوجه ، فما زالوا به حتى أجمع على ألا يسمع منه شيئا ولا يكلمه ، فأبى الله إلا أن يسمعه بعض القرآن فقال فى نفسه :

— واثكل أمى ! والله إني لرجل لييب شاعر وما يخفى على الحسن مع القبيح ، فما يمتنع أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ وإن كان الذى يأتى به حسنا قبلته وإن كان قبيحا تركته .

وذهب إلى السى — ﷺ — فعرض عليه الإسلام وتلا عليه القرآن ،

فأسلم الطفيل بن عمرو وأسلمت دوس بإسلامه .

وقدم على رسول الله ﷺ — وهو بمكة ، عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى حين يلعبهم حبرة من الحبشة ، فوجدوه في المسجد فجلسوا إليه وسألوه — ورجال من قريش في أندية حول الكعبة — فلما فرغوا من مسأله — ﷺ — دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله تعالى وآموا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره ، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم :

— خيكم الله من ركب ! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بحجر الرجل ، فلم تطمئن محالكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال ، ما نعلم ركباً أحق منكم ! فقالوا لهم :

— سلام عليكم لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيراً .

فأنزل الله تعالى قوله ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِمْ بِهِ يَوْمُونَ ﴾ وإذا يتلى عليهم قالوا أما به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صنعوا ويدرعون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾ (١) .

ووفد على رسول الله ﷺ — بعد الهجرة وقل فتح مكة تسعة رهط

(١) القصص ٥٢ — ٥٥ .

من بني عبس فكانوا من المهاجرين الأولين ، منهم ميسرة بن مسروق والحارث  
ابن الربيع وقنان بن دارم وبشر بن الحارث بن عبادة وهدم بن مسعدة وسباع  
ابن ريد وأبو الحص بن لقمان وعبد الله بن مالك وفروة بن الحصين بن  
فصالة ، فأسلموا فدعا لهم رسول الله ﷺ — بحير وقال :

— ابغوني رجلا يعشركم أعقد لكم لواء .

فدخل طلحة بن عبيد الله فعقد لهم لواء وجعل شعارهم : يا عشرة .

وقدم ثلاثة نفر من بني عبس على رسول الله ﷺ — فقالوا :

— إنه قدم علينا قوم فأحبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له ، ولنا أموال

ومواش هي معاشنا ، فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له بعانها وهاجرنا .

فقال رسول الله ﷺ :

— اتقوا الله حيث كنتم ، فلم يترككم من أعمالكم شيئا ولو كنتم بصمد<sup>(١)</sup>

وجازان<sup>(٢)</sup> .

ولما سمعت سعد العشيرة بخروج النبي ﷺ — وثب رجل من بني أنس

الله بن سعد العشيرة إلى صمم يقال له قرأص فحطمه ، ثم وفد إلى النبي ﷺ —

— بعد الهجرة فأسلم وقال :

تبع رسول الله ﷺ إذ جاء بالهدى وخلفت قرأصا بدار هوان

شدت عليه شدة فتركه كأن لم يكن والدهر ذو حدثان

فلما رأيت الله أظهر دينه أجبته رسول الله حين دعاني

فأصبحت للإسلام ما عشت ناصرا وألقيت فيها كل كلبي وجراي<sup>(٣)</sup>

(١) صمد : اسم ماء للضباب .

(٢) جازان : موضع في طريق صنعاء .

(٣) الكنكل : المصدر ، والخراب : باطل العق ، فإذا برك البعير ومد عقه على الأرض

قل ألقى جراحه على الأرض .

فمن مبلغ سعد العشيرة أنسى شربت الذى يقضى بأحر وان  
وجاء إلى المدينة من جهينة عمرو بن مرة الجهنى ، وكان لهم صم وكانوا  
يعظمونه وكان عمرو سادنه ، فلما سمع رسول الله ﷺ كسره وخرج  
حتى قدم على النبى ﷺ — فأسلم وشهد شهادة الحق وآمن لما جاءه به  
عليه السلام من حلال وحرام ، فقال :

شهدت بأن الله حق وأنسى لآلهة الأحجار أول تارك  
وشمرت عرس ساقى الإرار مهاجرا إليك أجوب الوعث بعد الدكادك<sup>(١)</sup>  
لأصحب خير الناس نفسا ووالدا رسول مبيك الناس فوق الحبائلك  
فبعثه رسول الله ﷺ — إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام فأجابوه  
إلا رجلا واحدا رد عليه قوله .

وقدم على رسول الله ﷺ — نفر من مزينة منهم خزاعى بن عبد نهم  
فبايعه على قومه مزينة ، وقدم معه عشرة منهم فيهم بلال بن الحارث والنعمان  
ابن مقرن ، وما دار بخلد النعمان أنه سيحارب القيس وأنه سيستشهد في  
نهاوند . ثم خرج خزاعى إلى قومه فلم يجدهم كما ظن فأقام ، فدعا رسول الله ﷺ  
— حسان بن ثابت وقال له :

— اذكر خزاعيا ولا تهجه .

فقال حسان :

ألا أبلغ خزاعيا رسولا بأن الذم يعسله الوفاء  
وأنتك خير عثمان بن عمرو وأسناها إذا ذكر المناء  
وبايعت الرسول وكان حيرا إلى حمر وآدك<sup>(٢)</sup> الثناء  
فما يعجزك أو ما لا تطلقه من الأشياء لا تعجز عدا

(١) الدكادك : أرض فيها علط .

(٢) آدى الشيء : كثر ، وآداه ماله : كثر حتى ثقل عليه .

وعداء بطنه الذى هو منه ، فقام خزاعى فقال :

— يا قوم ! قد خصكم شاعر الرجل فأنشدكم الله .

— فإننا لا ننبو عليك (١) .

فأسلموا ووفد منهم على رسول الله — ﷺ — أربعمائة وذلك في شهر

رجب سنة خمس ، ففعل لهم رسول الله — ﷺ — الهجرة في دارهم وقال :

— أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم .

فرجعوا إلى بلادهم وقد دفع رسول الله — ﷺ — لواء مزينة يوم الفتح

إلى خزاعى ، وكانوا يومئذ ألف رجل .

وجاء أفضل وافد إلى رسول الله — ﷺ — قدم ضمام بن ثعلبة من أهل

نجد إلى رسول الله — ﷺ — فأناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله ، ثم دخل

المسجد ورسول الله — ﷺ — في أصحابه . وكان ضمام رجلا جلدا أشعر

ذا غد يرتين ، فأقبل حتى وقف على رسول الله — ﷺ — في أصحابه فقال :

— أيكم ابن عبد المطلب ؟

فقال رسول الله — ﷺ — :

— أنا ابن عبد المطلب .

— أحمد ؟

— نعم .

— يا ابن عبد المطلب ! إني سائلك ومعلظ عليك في المسألة فلا تجد في

نفسك .

— لا أجد في نفسي فاسأل عما بدا لك .

---

(١) نبو عليك : لا أمتنع عما تريده منا .

— أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، الله بعثك إلينا رسولا ؟

— اللهم نعم .

— فأنتشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، الله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده لا نشرك به شيئا ، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟

— اللهم نعم .

— فأنتشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، الله أمرك أن تصلّي هذه الصلاة الخمس ؟

— نعم .

ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة : الركاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها ينشده عن كل فريضة منها كما ينشده في التي قبلها ، حتى إذا فرغ قال :

— فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وسأؤدى هذه الفرائض وأجتنب ما سهىني عنه ثم لا أزيد ولا أنقص .

ثم انصرف إلى بعيره راجعا ، فقال رسول الله ﷺ :

— إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة .

فأتى بعيره فأطلق عقاله ، ثم خرج حتى قدم على قوم بني سعد بن بكر فاجتمعوا إليه ، فكان أول ما تكلم به :

— جس اللات والعزى !

— مه يا ضمام ! اتق البرص ، اتق الحذام ، اتق الحصور ! .

— ويلكم ! إلهما والله لا يفعان ولا يضران ، إن الله قد بعث رسولا وأمرن

عليه كتابا فاستنقذكم به مما كنتم فيه . وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه .

فما أمسى من ذلك اليوم في حيه رجل أو امرأة إلا مسلما .  
وقدمت أشجع على رسول الله — ﷺ — عام الخندق وهم مائة رأسهم مسعود بن ربيعة بن نيرة بن طريف ، فنزلوا شعب سلع فخرج إليهم رسول الله — ﷺ — وأمرهم بأحمال التمر فقالوا :  
— يا محمد ! لا تعلم أحدا من قومنا أقرب دارا منك منا ولا أقل عددا ، وقد ضقنا محربك ونحرب قومك فجئنا بوادعك .  
فوادعهم ثم أسلموا بعد ذلك .

وقدم الأشعريون وهم قبيلة كبيرة باليمن على رسول الله — ﷺ — وهم خمسون رجلا ، منهم أبو موسى الأشعري ومنهم رجال من عك ، وقدموا في سفن في البحر وخرجوا بمرقا مكة ، فلما دنوا من المدينة جعلوا يقولون :  
غدا نلقى الأحبة محمدا وحريه

ثم قدموا فوجدوا رسول الله — ﷺ — في سفره بخير ، فلقوه — ﷺ —  
— فبايعوه وأسلموا . فقال رسول الله — ﷺ — :  
— الأشعرون في الناس كصورة فيها مسك .

وقدم على رسول الله — ﷺ — رجل من بني سليم يقال له قيس بن سبية ، فسمع كلامه وسأله عن أشياء فأجابته ووعى ذلك كله . ودعاه رسول الله — ﷺ — إلى الإسلام فأسلم ورجع إلى قومه فقال :

— قد سمعت برجمة الروم وهينة فارس وأشعار العرب وكهانة الكاهن وكلام معاول جمير ، مما يشبه كلام محمد شيئا من كلامهم ، فأطيعوني وحدوا بصيبيكم

منه .

ووفد رجل مهم يقال له قُدد بن عمار على النبي — ﷺ — وعاهده على أن يأتيه بألف من قومه على الخيل ، وأشد يقول :

شدت يميني إذ أتيت محمداً      بحير بد شدت بحجزة مئزر  
وذاك امرؤ قاسمته نصف دينه      وأعطيته كف امرئ غير أعسر  
وإن امرأ فارقتَه عند يثرب      لخير نصيح من معد وحمير

ثم أتى قومه فأحبرهم الخبر وكان عام الفتح ، فخرج معه تسعمائة وحلف في الحى مائة . وأقبل يريد النبي — ﷺ — فرل به الموت فأوصى إلى ثلاثة رهط من قومه وهم عباس بن مرداس وأمره على ثلاثمائة وجئار بن الحكم وأمره على ثلاثمائة والأحس بن يربد وأمره على ثلاثمائة وقال :

— إيتوا هذا الرجل حتى تقضوا العهد الدي في عقي .  
ثم مات فمضوا حتى قدموا على رسول الله — ﷺ — فقال :  
— أين الرجل الحسن الوجه الطويل اللسان الصادق الإيمان ؟  
— يا رسول الله ! دعاه الله فأجابه .

وأخبروه خبره فقال :

— أين تكلمة الألف الدين عاهدني عليهم ؟  
— خلف مائة في الحى محافة حرب<sup>(١)</sup> كان بينا وبين بني كنانة .  
— ابعثوا إليها فإنه لا يأتيكم في عامكم هذا شيء تكرهونه .  
فبعثوا إليها فأتته بالهدة بين مكة والطائف ، وقال هو سليم لرسول الله — ﷺ —  
ﷺ :

(١) الحرب مؤنثة وقد تذكر إذا أريد بها القتال

— اجعلنا في مقدمتك واجعل لواءنا أحمر وشعارنا مُقَدَّم .

ففعل ذلك هم ، وكان في القوم غاوى بن عبد العزى وكان يخدم صنعا لبني سليم ، فرأى يوما ثعلبين يبولان عليه فقال :

أرب يبول الثعلبان برأسه      لقد ذل من بالث عليه الثعالب  
ثم شد عليه فكسره ، وأتى النبي — ﷺ — فقال له :

— ما اسمك ؟

— غاوى بن عبد العزى .

— أنت راشد بن عبد ربه .

فأسلم وحسن إسلامه وشهد الفتح ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— خير بني سليم راشد .

وعقد له على قومه .

وكانت الخنساء الشاعرة قد قدمت على رسول الله — ﷺ — مع قومها

من بني سليم فأسلمت معهم وكان عليه السلام يستشدها ويعجبه شعرها فكانت تنشده وهو يقول :

— هيه يا خناس !

ويومئذ بيده .

وقدم عمير بن أفضى في عصابة من أسلم فقالوا :

— لقد آمنا بالله ورسوله واتبعنا مناجك ، فاجعل لنا عندك منزلة تعرف

العرب فضيلتنا ، فأبنا إخوة الأنصار ولك علينا الوفاء والبصر في الشدة والرخاء .

فقال — ﷺ — :

— أسلم سالمها الله ، وعفار غمر الله ها .

وكتب رسول الله ﷺ — لأسلم ، ومن أسلم من قبائل العرب ممن يسكن ساحل البحر والسهل كتابا فيه ذكر الصدقة والفرائض في المواشي ، وكتب الصحيفة ثابت بن قيس وشهد أبو عبيدة وعمر بن الخطاب .

وقدم رفاعه بن ريد بن عمير بن معد الحذامي ثم أحد بني الضبيب على رسول الله ﷺ — كتابا فيه : ( هذا كتاب من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد إلى قومه ومن دخل معهم يدعوهم إلى الله ، فمن أقبل ففي حزب الله ومن أبقى فله أمان شهرين ) . فأجابهم قومه وأسلموا .

وبعث فروة بن عمرو بن نافرة الحذامي إلى رسول الله ﷺ — رسولا بإسلامه وأهدى له بعة بيضاء واسم رسوله مسعود بن سعد وهو من قومه ، فقرأ رسول الله ﷺ — كتابه وقبل هديته وأحاز رسوله بائتي عشرة أوقية ونش . والنوش نصف أوقية ، وكتب إلى فروة جواب كتابه .

وكان فروة عاملا للروم على من يليهم من العرب وكان منزله معان وما حولها من أرض الشام فلما بيع الروم إسلامه طلبوه فحبسوه عندهم ، فقال في محبسه ذلك :

طرفت سليمى موها <sup>(١)</sup> أصحاني	والسروم بين الباب والقروان
صد الخيال وساء ما قد رأى	وهمت أن أعفى وقد أنكأني
لا تكحل العين بعدى أئدا <sup>(٢)</sup>	سلمى ولا تديت إليّ يديان
ولقد علمت أبا كبشة أسي	وسط الأعيرة لا يحص <sup>(٣)</sup> لساني

(١) الموهن : بعد منتصف الليل .

(٢) الأئد : حجر للكحل .

(٣) يحص : يقطع .

فلئن هديت لتفقدن أحكام      ولئن بقيت لتعرفن مكاني  
ولقد جمعت أجل ما جمع الفتى      من حودة وشجاعة وبيان  
فلما أجمعت الروم لصلبه على ماء لهم بفلسطين يقال له عمراء قال :  
ألا هل أتى سمي بأن حليلها      على ماء عمراء فوق إحدى الرواحل <sup>(١)</sup>  
على ناقة لم يضرب الفحل أمها      مشدبة أطرافها بالمناجل  
ولما قدموه ليضربوا عنقه قال :

أبلغ سراة المؤمنين بأنسى      سلم لربي أعظمى ومقامى  
كانت وهود القبائل تقدم على رسول الله — ﷺ — مذكراً لله أن ينذر  
قومه إلى أن فتح الله على رسوله مكة ، فلما تم فتح مكة وخرج رسول الله —  
ﷺ — لعرو الروم وبلغ تنوك وألقى الله في قلوب الروم الرعب فانسحقوا  
دون أن يلقوا رسول الله — ﷺ — تدفقت وهود القبائل إلى المدينة في السنة  
التاسعة من هجرته عليه السلام ودانت له القبائل ، وأمر الله على عهده : ﴿ إذا  
جاء نصر الله والفتح ﴾ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ﴾ فمسح بحمد  
ربك واستعقره إبه كان توابا ﴿ <sup>(٢)</sup> . وقد سميت تلك السنة بعام الوفود .

(١) الرواحل في الأصل لإبل ، ويريد بإحدى الرواحل الحشوية التي صلب عيب

(٢) سورة النصر .

## التذييل

مات موسى عليه السلام وقد بلغ مائة وعشرين سنة ، ولم تكل عيه ولا ذهبت نضارته كما تقول توراة المفى . وقبل أن يموت لم ينس الذين كتبوا التوراة أن يصعدوه إلى الجبل ليرى الأرض الموعودة : « وصعد موسى من عربات مؤاب إلى جبل نبو إلى رأس المسجة الذى قبالة أريحا ، فأراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى داد ، وجميع نفتالى وأرض أفرايم ومسى ( ابنى يوسف ) وجميع أرض يهوذا إلى البحر العربى ، والخبوب والدائرة بقعة أريحا مدينة النخل إلى صوغر . وقال له الرب : هذه هى الأرض التى أقسمت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب قائلا : لنسلك أعطيها . قد أريتك إياها بعينيك ولكنك إلى هناك لا تعبر . فمات هناك موسى عبد الرب فى أرض مؤاب حسب قول الرب ، ودفنه فى الأجواء فى أرض مؤاب مقابل بيت فعور ، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم » .

بهذا الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثية تنتهى الأسفار الخمسة التى يعترف بها السامريون واليهود . وإذا درسنا هذا الإصحاح بإمعان نجد رواية تاريخية كتبها كاتب التوراة لا يمكن أن تكون وحيا ، فالكاتب يقول : فمات موسى عبد الرب فى أرض مؤاب حسب قول الرب ، وهذا الخبر وكل ما بعده حتى نهاية الإصحاح هو قرار من الكاتب ، فلا يعقل أن موسى عليه السلام قال بعد موته : « وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات ولم تكل عيه

ولا ذهب نصارته ، فكى بو إسرائيل موسى في عربات مؤات ثلاثين يوماً ، فكملت أيام بكاء مناحة موسى .

ويشوع بن نون كان قد امتلأ روح حكمة إذ وصع موسى عليه يديه ، فسمع له بو إسرائيل وعمل كما أوصى الرب موسى .

ولم يقم بعد سى في إسرائيل مثل موسى الذى عرفه الرب وجها لوجه في جميع الآيات والعجائب التى أرسله الرب ليعملها في أرض مصر بفرعون وجميع عبيده وكل أرضه ، وفي كل اليد الشديدة وكل المخاوف العظيمة التى صنعها موسى أمام أعين جميع إسرائيل .

واضح أن عصر الإصحاح الرابع والثلاثين من إنشاء الدين كتبوا التوراة في المنفى ، وواضح أن الأسفار الخمسة التى يعترف بها السامريون واليهود والمفروض أنها قد نزلت على موسى قد أعيد كتابتها في عصر السى فدرس فيها الذين كتبوا التوراة في المنفى كثيرا من أساطير البابليين والفراعنة ، وحططوا لعودتهم إلى فلسطين فجمعوا الرب يسرف في الحديث عن الأرض التى أقسم لإبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يجعلها ميراثا لدربتهم . ولم يكتفوا بذلك بل جعلوا الرب ينزل في سحابة ويعيد الوعد لموسى والدين معه ، وإن كثرة حديث الرب عن أرض الميراث يثير الشك ، بل يؤكد أن تلك الأقوال قد وضعها أحبار اليهود على لسان الرب ، فليس من المعقول ولا المقبول أن يكرر الرب وعده في كل إصحاح من إصحاحات سفر التثنية . وباليته يذكر ذلك الوعد لأن سى إسرائيل كانوا سامعين مطيعين بل لأهم كانوا فاسقين !

وهنا حقائق ولا ريب في الأسفار الخمسة المفروض أنها أوحيت إلى موسى ولكها حقائق مزحت بأساطير الشعوب وأحلام الأحبار وأطماع الكهان . وإن درس الإصحاح يلحظ أن سيد المسيح لم يشهد بإصحاح مس

إصحاحات التوراة ، بل كان يقول : قال موسى ... وأنا أقول ... فما جاء في تلك الأسفار ليس وحيا سماويا بل ما وقر في الأذهان وفي الصدور مما أوحى إلى موسى عليه السلام ، وقد كتب بأقلام أناس تشرّبوا عادات البابليين والمصريين القدماء ، وقد فاصت أخذتهم بالحقد على البشر جميعا لما هم فيه من ذل وهوان .

وبعد الأسفار الخمسة يستمر الدين كتبوا التوراة في المنفى في تسجيل تاريخ بني إسرائيل ، إنهم لا ينسون الأرض الموعودة ، وإن ربهم لا يتوانى لحظة عن ذكر تلك الأرض وإعادة الوعد كأنما قد فرغ من شئون الأرض والسمااء ولم يعد له من شأن غير ذلك الوعد الذي قطعه على نفسه إكراما لهؤلاء العصاة الذين قال عنهم لموسى عليه السلام إنهم سيسون كل ما فعله لهم ويعبدون سواء .

وها هو ذا الرب يحاطب يشوع ويعيد له الوعد كأنما يشوع لم يكن مع موسى عليه السلام يوم قال الدين كتبوا التوراة بأيديهم أن الرب برل في سحابة وأعاد الوعد إلى موسى وإن قومه : « وكان بعد موت موسى عبد الرب أن الرب كلم يشوع بن نون حادم موسى قائلا : موسى عبي قد مات فالآن قم اعب هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لهم أي لبني إسرائيل . كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى ، من البرية ولبان هذا إلى النهر الكبير سمر الفرات جميع أرض الحبشيين وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تحمكم .. » ، إصرار عجيب من الرب كأنما كل ما يعرف من الأرض هي هذه المنطقة ، بل إصرار عجيب من الدين كتبوا التوراة بأيديهم . إنهم يكررون بمناسبة وبلا مناسبة نفس الوعد نفس الألفاظ بنفس الحلو د ليستقر في الوجدان أن رعاتهم مشيئة إلهة يسعى أن تصاطيها

الرموس وأن تطاع .

ويرسل يشوع بن نون جاسوسين فيطلقان إلى بيت رابية اسمها راحاب ويضطجعان هناك . وإن ما يثير الدهش أن التوراة تنظر إلى الاضطجاع مع رابية نظرة لا استكار فيها ؛ فيهذا أبو اليهود جميعا يضطجع مع زوج ابنة وهو يحسبها زانية ، ثم يرسل من يسأل الناس عنها دون مبالاة ، وجاسوسا يشوع ابن نون — ومن المفروض أنهما من مؤمى بنى إسرائيل — يدهنان إلى رابية ويضطجعان هناك . وإن النابليين كانوا لا يرون عيبا في التسمية بالبغايا بل كانوا يحترمون البعايا لأنهم كن كعشتار إلهة اللذة وقد أحد الذين كتبوا التوراة في المنفى عن البابليين احترام البعايا واحترام الدين يمارسون الزنى معهم !

هل يعقل أن إلها غيورا يذكر الاضطجاع مع البعايا دون أن يغضب أو يشور ؟ لو أن عشتار هي التي أوحى مثل ذلك القول لصدقاها ، أما رب غيور مثل يهوه رب موسى عليه السلام فلا يعقل أنه يوحى بمثل ذلك الدس ويرضى عنه .

ويروى كاتب سفر يشوع كيف حمل الكهنة تابوت العهد ، وكيف انحسرت مياه الأردن لما لمست أقدامهم الماء ، وكيف حمل اثنا عشر رجلا من أسباط إسرائيل — رجلا من كل سبط — حجارة من قاع الهر تذكارا لبنى إسرائيل لانفلاق المياه أمام تابوت عهد الرب . وسى الذى يكتب هذا الإصحاح أنه يكتب وحيا فقال : وصب يشوع اثني عشر حجرا في وسط الأردن تحت موقف أرجل الكهنة حاملي تابوت العهد ، وهى هناك إلى هذا اليوم .

ويأمر الرب يشوع أن يصنع لنفسه سكاكين من صوان وأن يختبئ بهي

إسرائيل لأن الدين ولدوا في التيه لم يحتوا . وهذا أمر محير فقد جعل الرب الختان عهدا بينه وبين بني إسرائيل وأمرهم أن يحتوا أولادهم في اليوم السابع من مولدهم ، فهل تعدر على بني إسرائيل أن يحتوا أولادهم ؟ وإذا كان رجال الحرب لم يحتوا أكلوا يعيشون بلا عهد بينهم وبين ربهم ؟! إن الرب الذي تصوره الدين كتبوا التوراة في المفى بهم جدا بالختان ، حتى إنه يقول بعد أن يتم ختان الرجال : « اليوم قد دحرجت عنهم عار مصر » .

وعلموا الفصح وانقطع المن عنهم لما أكلوا من غلة الأرض ، ثم حملوا تابوت العهد وداروا به حول المدينة سبع مرات في سبعة أيام : « ... وكان في اليوم السابع أتهم بكروا عند طلوع الفجر وداروا دائرة المدينة على هذا المتوال سبع مرات . في ذلك اليوم فقط داروا دائرة المدينة سبع مرات ، وكان في المرة السابعة عندما صرب الكهنة بالأبواق أن يشوع قال للشعب : اهتفوا لأن الرب قد أعطاكم المدينة . فتكون المدينة وكل ما فيها محرما للرب ، راحاب الزانية فقط تحيا ، هي وكل من معها في البيت لأنها قد حبأت المرسلين للدين أرسلاهما ، وأما أنتم فاحترزوا من الحرام لئلا تُحرموا وتأخذوا من الحرام وتجعلوا محلة إسرائيل محرمة وتكذبوها . وكل الفضة والذهب وآنية السحاس والحديد تكون قدسا للرب وتدخل في حزانة الرب . فهتف الشعب وصربوا بالأبواق ، وكان حين سمع الشعب صوت البوق أن الشعب هتف هتافا عظيما فسقط السور في مكانه وصعد الشعب إلى المدينة كل رجل مع وجهه وأخذوا المدينة » .

إنها أمنية الدين كانوا في الأسر . إهم لا يريدون أن يحوصوا حربا للعودة إلى فلسطين بل يتمون أن يفتح الكهنة في الأبواق السبعة وأن يهتف الشعب هتافا عظيما فيجد نفسه في أرض فلسطين . أمنية ليست عزيزة على الرب

ولكنها ليست من سنته ، فإن الله يصر من بصره . فالمسلمون قد حاربوا الكفار يوم بدر وأبلىء بلاء حسا فأبدهم الله بصره : ﴿ ولقد نصركم الله بيدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾ <sup>(١)</sup> . ودارت معركة رهيبة لا هوادة فيها يوم أحد بين المسلمين وقريش وقد محص الله فيها الذين آمنوا واتخذ منهم شهداء . ﴿ إن يحبسكم قرح فقد من القوم قرح مثله وتلك الأيام نداؤها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين \* ويحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾ <sup>(٢)</sup> . ﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ﴾ <sup>(٣)</sup> .

إن المؤمنين حقا يقاتلون ويجاهدون ويستشهدون ويصبرون حتى يأتي النصر من عند الله ، أما أن تسقط أسوار المدن إذا ما نفخ في الأبواق وصاحت الأصوات صيحات ملوثة فإنه وهم الخالمين .

ويعود الذين كتبوا التوراة إلى الشكوى من الرب عندما ينكسرون في معركة مثلما فعلوا لما أمرهم موسى أن يقاتلوا أعداءهم : « ... وهربوا أمام أهل عاي ، فضرب منهم أهل عاي نحو ستة وثلاثين رجلا ولحقوهم من أمام الباب إلى شاريم وضربوهم في المنحدر . فذاب قلب الشعب وصار مثل الماء . فمزق يشوع ثيابه وسقط على وجهه إلى الأرض أمام تابوت الرب إلى المساء هو وشيوخ إسرائيل ووضعوا ترابا على رؤوسهم . وقال يشوع : « آه يا سيد الرب ، لماذا عبّرت هذا الشعب الأردن تعبيرا لكي تدفعنا إلى يد الأعداء لبيدونا . ليتنا ارتضينا وسكننا في عبر الأردن . أسألك يا سيد . ماذا أقول

(١) آل عمران ١٢٣ .

(٢) آل عمران ١٤٠ ، ١٤١ .

(٣) آل عمران ١٤٦ .

بعد ما حول إسرائيل قفاه أمام أعدائه . فيسمع الكنعانيون وجميع سكان الأرض ويحيطون بنا ويقرصون اسمنا من الأرض ومادا تصنع لاسمك العظيم » .

كلام لا يمكن أن يصدر عن رجل يوحى إليه ، إنه كلام رجل ليس له عزم وليست له ثقة في ربه ، وإنه نفس ما قيل في البرية . ألا يزال بنو إسرائيل في شك من ربهم حتى بعد معجزة عبور الأردن ؟ ! لقد كان الشك في قلوب الدين كتبوا الكتاب بأيديهم ثم قالوا : هذا من عند الله ليشتروا به ثما قليلا . « فويل لهم مما كتبت بأيديهم وويل لهم مما يكسون » .

وقاد يشوع بنى إسرائيل لحرب عاي وتظاهر بالهزيمة فحرح جميع رجال عاي في أثر بنى إسرائيل ، وكان هناك كمين من بنى إسرائيل حلف المدينة فدخل الرجال المدينة وأحرقوها كما أمرهم الرب — بزعمهم — وقتل بنو إسرائيل جميع سكان عاي وصلبوا ملكها . وبنى يشوع مذبحا للرب إله إسرائيل . ويقول الذين كتبوا التوراة إن ذلك المذبح بنى « كما أمر موسى عبد الرب بنى إسرائيل ، كما هو مكتوب في سفر توراة موسى » . ولا يوجد في التوراة سفر باسم سفر توراة موسى ولعلمهم يقصدون سفر اللاويين فهو السفر الذى وصف الرب لموسى فيه — حسب زعمهم — كيفية بناء المذبح .

« ولما سمع جميع الملوك الذين في عبر الأردن وفي الحبل وفي السهل وفي كل ساحل البحر الكبير إلى جهة لبنان — الحثيون والأموريون والكنعانيون والفرزيون والجويون واللبوسيون — اجتمعوا معا لمحاربة يشوع وإسرائيل بصوت واحد » .

وتشب حروب بين بنى إسرائيل وبين ملوك المنطقة ، ويرمى الرب أعداء بنى إسرائيل بمحاربة عظيمة من السماء ويسلط عليهم الرد ، ثم يكتم يشوع ( غزوة تبوك )

الرب : يوم أسلم الرب الأمور بين أمام بنى إسرائيل وقال أمام عينو إسرائيل : يا شمس دومي على جيعون ويا قمر على وادي أيون . هدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه . أليس ذلك مكتوبا في سفر ياشر ... » . ونقب في التوراة عن سفر ياشر فكتشف أن ليس له وجود ، فهل كان هناك سفر هذا الاسم ثم رفع ؟ وماذا كان يحوى ذلك السفر ؟ ومن ذا الذى رفعه ولماذا رفعه ؟ أسئلة ليس لها جواب .

ويطلق يشوع بن نون يفتح المدن ويقتل الرجال ويشعل في المدن البيران باسم الرب إله إسرائيل : « فلا تكون رافة بل يبادوا كما أمر الرب موسى » .

ولا يختلف الإصحاح الثانى عشر من سفر يشوع عن البلاغات الحربية ، فهو يذكر الملوك الذين انتصر عليهم بنو إسرائيل في تفصيل : « وهؤلاء هم ملوك الأرض الذين ضربهم يشوع وبنو إسرائيل في عبر الأردن غربا من بعل جاد في بقعة لبنان إلى الجبل الأقرع الصاعد إلى سعيم ، وأعطاهم يشوع لأساط إسرائيل ميراثا حسب مرقهم . في الجبل والسهل والعرية والسفوح والبرية والجنوب الحثيون والأموريون والكمعانيون والفريريون والحوبيون وبيوسيون — ملك أريحا واحد — ملك عاي التى بجانب بيت إيل واحد . ملك أورشليم واحد . ملك حبرون واحد . ملك يرموث واحد . ملك . » .

أليس هذا بلاغا حريا وليس بوحى سماوى ، إن الذين كتبوا التوراة في الماضي كانوا ولا شك يتلدزون وهم يكتبون سفر يشوع ، فالله بقوة الآباء وبصر الله يشع من بين السطور . كانوا يحلمون بالمجد التالى ويتمنون لو أن تلك الأيام تعود .

« وشاح يشوع . تقدم في الأيام . فقال له الرب : أنت قد شحت . تقدمت في الأيام » . ولا يعقل بعد هذه المقدمة أن الرب سيسبى وعده ، فلا

عمل له في الأرض إلا تعيد ذلك الوعد ، أو هكذا صورته الذين كتبوا التوراة بأيديهم حتى يحيل لقارئ التوراة أنه ليس إله بني إسرائيل بل قائدهم الخرف ومؤسس مدكهم بلا سند من عدل وقانون . اسمعه يقول أو إذا أردت الدقة فاسمع لماذا أنطقه الذين كتبوا التوراة في المنفى : « وقد بقيت أرض كثيرة جدا للامتلاك . هذه هي الأرض الباقية . كل دائرة الفلسطينيين وكل الحشوريين من الشحور الذي هو أمام مصر إلى تخم عقرون شمالا تحسب للكنعانيين أقطاب الفلسطينيين الخمسة : العري والأشدودي والأشقلوني والجنسي والعقروني والعوين ، من التيمس كل أرض للكنعانيين ومعاراة التي للصيديون إلى أقيق إلى تخم الأموريين . وأرض الجليلين وكل لسان نحو شروق الشمس من بعل جاد تحت جبل حرمون إلى مدخل حماة . جميع سكان الحقل من لسان إلى مسرهوت مايم جميع الصيديون . أنا أطردهم من أمام بني إسرائيل ، إما أقسمها بالقرعة لإسرائيل ملكا كما أمرت ... » .

لم يكتفوا بأن جعلوا الرب مهندس مساحة بل جعلوه يقسم الأرض بالقرعة ، يستقسم بالأزلام ، سبحانه الله عما يصفون .

وإن الذي يقرأ الإصحاح الثالث عشر والإصحاح الرابع عشر والإصحاح الخامس عشر من سفر يشوع في إمعان يجد أن الذين كتبوا التوراة في المنفى قد أخذوا حدود المناطق التي نزل بها أسباط بني إسرائيل وجعلوها أوامر من موسى عليه السلام تلقاها من ربه ، فما من شيء في إسرائيل حتى بناء المذبح وصنع الفطير وتابوت العهد إلا بأوامر من السماء ، فما أبسر أن يصع أحبار اليهود الكلام على لسان الرب أو يجعلوه يهتم بتوافه الأشياء ، فقد رعموا أن الرب علمهم كل شيء ، حتى كيفية وضع الفطير صموفا على المذبح !

ويتهى سفر يشوع بموته ويبدأ سفر القصة يروى ما كان من بني يهوذا : « وكان بعد موت يشوع أن بنى إسرائيل سألوا الرب قائلين من ما يصعد إلى

الكعابين أولاً حاربتهم ؟ فقال الرب : يهودا يصعد . هو ذا قد دفعت الأرض ليده .. هـ .

الذين كتبوا التوراة في المنفى كانوا من سبل يهودا أي اليهود ، وقد بدعوا في هذا الإصحاح يلقون الأضواء على يهودا ليمجدوا لمجده . فجعلوه أو بمعنى أصح جعلوا بنيهم يأخذون أورشليم ، وأور معاهها مدينة وشليم معناها سلام ، فهي مدينة السلام أو بيت المقدس . ولم تعرف بهذا الاسم إلا في عهد سليمان لما بنى الهيكل بها فكيف استخدم الدين كتبوا التوراة بأيديهم ذلك الاسم قبل أن يولد داود وسليمان ؟! كانوا يكتبون تاريخاً لا وحياً يوحى ، فكانوا يقولون مرة إن يشوع دفن في جبل حارس ، وفي إصحاح آخر يقولون إنه دفن في جبل سارح . ورووا أكثر من رواية في سبب تسمية بئر سبع ، وسجلوا أحداثاً متناقضة ولا لوم عليهم ولا تنزيه ما داموا يكتبون ما حفظته الذاكرة من وقائع ماضية مضت عليها سنون طويلة قبل عصر التدوين .

ويعود ملاك الرب في الإصحاح الثالث يذكر بني إسرائيل بما أنعم الله عليهم ، ولكن بني إسرائيل قد اندمحو في الكعابين : « واتخذوا بناتهم لأنفسهم ساء ، وأعطوا بناتهم لبسهم وعبدوا آهتهم . فعمل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب ونسوا الرب إلههم وعلدوا التعليم والسواري ، فحمى غضب الرب على إسرائيل فباعهم بيد كوشان رشتان ملك آرام السهري » .

وبعد ثمانى سنين يتخلص بنو إسرائيل من هذه العبودية ، ولكن ما إن تنقضي أربعون سنة حتى يعودوا إلى الشرك بالله فعبدوا عجولون ملك مؤاب ثمانى عشرة سنة بعد أن هزمهم . إلههم مع الله ما داموا منتصرين أما إذا هزموا فسرعان ما يعبدون الذي هزمهم ، ولا غرو فهم أهل دنيا لا صلة بينهم وبين الاستشهاد والآخرة وما أعد للمتقين ، فقد رعم الدين كتبوا التوراة بأيديهم أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى لم يشربوا بالبعث والحياة الآخرة .

وقتل إهود عجلون واستولى هو إسرائيل على مؤاب واستراحت الأرض ثمانين سنة ، ولعلها قد استراحت من كفرهم وعقوقهم وشرهم .  
إسهم لا يستطيعون أن يحافظوا على عبادة الله طويلا فهي عبادة مرتبطة بمنفعة ، فإذا جاءهم النفع عن سبيل آخر فسرعان ما يعدلون الذى جلب لهم النفع أو قهرهم . فبعد أن مات إهود — حسب رعمهم — عادوا يعملون الشر فى عيسى الرب فباعهم الرب بيد باين ملك كنعان حتى قامت دبورة وكانت قاصية بنى إسرائيل فى ذلك الوقت تدعو إلى الثورة على ملك كنعان ، وخرجت مع الخارجين حتى كان المصر ، فصارت دبورة نبية من أنبياء بنى إسرائيل .

إن الدين كتبوا التوراة فى المنفى يرصون عن الرب إذا بصرهم ، ويولونه ظهورهم إذا حاقت بهم هزيمة . إنهم جعلوا دبورة وباراق اللذين شاركاهما فى الحرب يترعان بمجد الرب : « لأجل قيادة القوادى إسرائيل ، لأجل انتداب الشعب باركوا الرب . اسمعوا أيها الملوك وأصعوا أيها العظماء . أنا أنا للرب أترنم ، أرمر للرب إله إسرائيل . يارب بخروجك من سعير بصعودك من صحراء أدوم الأرض ارتعدت . السماوات أيضا قطرت . كذلك السحب قطرات ماء . تزلزلت الجبال من وجه الرب وسياء هذا من وجه الرب إله إسرائيل » .

ويستمر الدين كتبوا التوراة يصفون فى النشيد ما كان بين بنى إسرائيل وبين الحيابرة والعماليق ، وما انقضى على ذلك المصر أربعون سنة حتى عاد هو إسرائيل إلى الجهالة فدفعهم الرب ليد مدبان سبع سنين . فيقوم رجل يدعوهم إلى الله ويقودهم إلى النصر فيصبح نبيا من أنبياء بنى إسرائيل . فما من رجل أو امرأة يسدى يدا إلى إسرائيل حتى يصبح نبيا يروى فعاله فى التوراة الكتاب الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله .

وسرعان ما يتكذب بنو إسرائيل طريق الرب ويعبدون بعلا إلهه السوريين : ﴿ أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين \* الله ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ (١) . ونسرد إصحاحات القصة اخروب التي نشئت بين بنى إسرائيل وملوك فلسطين ، فما سكنت الحرب بينهم أبداً ، فقد كان بنو إسرائيل مفتشين للأرض وإن أرادوا أن يلسوا ذلك الاغتصاب ثوبا ديبيا ، جعلوا الرب يعدهم بتلك الأرض وأنطقوه في كل إصحاح من إصحاحات التوراة التي كتبوها بأيديهم بذلك الوعد .

وكان البابليون يدعون آباءهم قربانا لآلهتهم ، وقد رأى إبراهيم خليل الرحمن في المنام أنه يذبح ابنه ، فلما هم يذبحه فداه الله بذبح عظيم ، وقد انقرضت عادة ذبح الأبناء بين المؤمنين ولكن تلك العادة ظلت راسخة في أذهان الدين كتبوا التوراة ، أو أنها تجددت لما حملوا إلى المنفى ورأوها في أرض بابل فاستغلوها عند إعادة كتابة التوراة : « فكان روح الرب على يفتاح عبر جلعاد ومُسسى وعبر مصفات جلعاد ومن مصعاة جلعاد عبر إلى بنى عمون ، وبذر يفتاح نذرا للرب قائلا : إن دفعت بنى عمون ليدي الخافرح الذي يخرج من أبواب بيتي للقاءى عند رجوعى بالسلامة من عند بنى عمون يكون للرب وأصعده محرقة ، ثم عبر يفتاح إلى بنى عمون لمحاربتهم فدفعهم الرب ليده فضرهم من عروعر إلى مجيئ إلى ميت : عشرين مدينة وإلى آبل الكروم ضربة عظيمة جدا ، فذل بنو عمون أمام بنى إسرائيل .

ثم أتى يفتاح إلى المصفاة إلى بيته ، وإذا بابته حارجة للقاءه بدفوف ورقص وهى وحيدة . لم يكن له ابن ولا ابنة غيرها ، وكان لما رآها مزق ثيابه وقال : آه يا بنتى قد أحرنتنى حزنا وصرت بين مكدرى لأنى قد فتحت فمى إلى الرب ولا يمكنى الرجوع . فقالت له : يا أبى هل فتحت فاك إلى الرب فافعل بى كما

حرج من فيك بما أن الرب قد انتقم لك من أعدائك سى عمون . ثم قالت لأبيها : فليُفعل لى هذا الأمر . اتركى شهرين فأذهب وأنزل على الجبال وأبكى عذراوئى وأنا وصاحباتى . فقال : ادهسى . وأرسلها إلى شهرين فذهبت هى وصاحباتها وبكت عذراويتها على الجبال . وكان عند نهاية الشهرين أها رجعت إلى أبيها ففعل بها نذر الذى نذر . وهى لم تعرف رجلا . فصارت عادة فى إسرائيل أن بنات إسرائيل يذهبن من سة إلى سنة لينحن على بت يفتاح الجلعداى أربعة أيام فى السنة .

قدماء المصريين يلقون بعذراء كل سنة لإلههم النيل ، والبابليون يقدمون أبقارهم على المذبح قربانا للآلهة ، ويفتاح الجلعداى يحرق ابنته البكر قربانا للرب . إنها أساطير الشعوب قد دسها الدين كتبوا التوراة فى سفر القضاة لكيلا يخلو تاريخ بنى إسرائيل من مأساة عاشها شعب من الشعوب الذين عاشوا بينهم ، أو من حكمة أو لحة أدبية ، فقد كان هدفهم ألا يكون لشعب من شعوب الأرض فضل يفوق فضلهم ، حتى الجس أغرقوا توراتهم فيه ليعوق أنبياءهم عشتار إلهة اللذة البابلية والسورية ، وباسنت إلهة اللذة عند قدماء المصريين .

ولم يكن بنو إسرائيل على وفاق دائما فكثرا ما كانت تثور حروب بينهم واجتمع رجال أفرام وعبروا إلى جهة الشمال وقالوا ليفتاح : لماذا عبرت لخاربة بى عمون ولم تدعنا للدهاب معك . نحرق بيتك عليك بنار ، فقال هم يفتاح : صاحب خصام شديد كنت أنا وشعبى مع بنى عمون وناديتكم فلم تخلصونى من يدهم ، ولما رأيت أنكم لا تخلصون وضعت نفسى فى يدى وعبرت إلى بى عمون فدفعهم الرب ليدى فمأذا صعدتم على اليوم هذا لخاربتى ؟

وجمع يفتاح كل رجال جلعاد وحارب أفرام ، فضرب رجال جلعاد أفرام

لأنهم قالوا : أنتم منفلتو أفرام . جلعاد بين أفرام ومنسى . فأخذ الجلعاديون مخاوض الأردن لأفرام . وكان إذا قال منفلتو أفرام : دعوى أعر . كان رجال جلعاد يقولون له : أنت أفرامى ؟ فإن قال : لا . كانوا يقولون له : قل إذا شئت . فيقول سيولت ولم يتحفظ للفظ بحق ، فكانوا يأخذونه ويذبحونه على مخاوض الأردن . فسقط في ذلك الوقت من أفرام اثنان وأربعون ألفا ، وقضى يفتاح لإسرائيل ست سنين ، ومات يفتاح الجلعادى ودفن في إحدى مدن جلعاد . . بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » (١) .

ويروى الإصحاح الثالث عشر من سفر القضاة ولادة شمشون بعد أن رأت أمه ملاك الرب وبشرها به : « ومنزل شمشون إلى تمّنة ورأى امرأة في تمّنة من بنات الفلسطينيين ، فصعد وأخبر أباه وأمه وقال : قد رأيت امرأة في تمّنة من بنات الفلسطينيين ، فالآن خذها لي امرأة . فقال له أبوه وأمه : أليس في بنات إختوك وفي كل شعبي امرأة حتى إنك ذاهب لتأخذ امرأة من الفلسطينيين العُلف ؟ فقال شمشون لأبيه : إياها خذ لي لأنها حسنت في عيني . ولم يعلم أبوه وأمه أن ذلك من الرب لأنه كان يطلب علة من الفلسطينيين . وفي ذلك الوقت كان الفلسطينيون متسلطين على إسرائيل » .

هذا القول يستحق سؤال . إن موسى عليه السلام أوصى قومه قبل أن يموت — حسب أقوال الدين كتبوا التوراة — ألا يتزوجوا من الفلسطينيين . فكيف لم يطع شمشون الذى اصطفاه الرب للانتقام من الفلسطينيين أوامر موسى رجل الرب ؟ يقول الذين كتبوا التوراة إن شمشون كان يلتمس بذلك الزواج عنة للانتقام من الفلسطينيين ، فعنى كان بنو إسرائيل يلتمسون علة إذا أنسوا في أنفسهم قوة للبطش بأعدائهم ؟ إن دعوى التماس العلة تتناق مع

القول بأن المرأة قد حسست في عيني شمشون ، فما دامت قد صادفت هوى في نفسه فقد طلب الزواج منها استجابة للدواعي الهوى لا لأنه كان يلتبس سببا لإنقاذ بني إسرائيل من الدل المهيمن .

« فنزل شمشون وأبوه وأمه إلى تمّنة وأتوا إلى كروم تمّنة ، وإذا بشبل أسد يزجر للقاتل ، فحل عليه روح الرب فشقه كشق الجدّى وليس في يده شيء . ولم يخبر أباه وأمه بما فعل فنزل وكلم المرأة فحسست في عيني شمشون ، ولما رجع بعد أيام لكي يأخذها مال لكي يرى رمة الأسد ، وإذا دبّ من النحل في جوف الأسد مع عسل . فاشتار منه على كفه وكان يمشى ويأكل . وذهب إلى أبيه وأمه وأعطاهما فأكلا ، ولم يخبرهما أنه من جوف الأسد اشتار العسل . ونزل أبوه إلى المرأة فعمل هناك شمشون وليمة لأنه هكذا كان يفعل الفتيان . فلما رأوه أحضروا ثلاثين من الأصحاب فكاثروا معه . فقال لهم شمشون : لأحاجينكم أحجية ، فإذا حللتموها لي في سبعة أيام الوليمة وأصبتموها أعطيتكم ثلاثين قميصا وثلاثين حلة ثياب . وإن لم تقدروا أن تحلوها لي تعطوني أنتم ثلاثين قميصا وثلاثين حلة ثياب . فقالوا له : حاج أحجيتك فنسبعها . فقال لهم : « من الآكل حرج أكل ، ومن الجاني خرجت حلالة » .

ألا تذكر هذه الأحجية بافتتاح مسرحية أوديب ؟ إن بني إسرائيل كانوا على صلة بأدب اليونان والرومان أن كانوا في المنفى . إنهم قرعوا ولا ريب الأدب اليوناني والروماني وقد اطلعوا على حكم الشيخ اليوناني ورموره وأمثاله فقلدوها وقلدوا « الاسفنكس » في مسرحية أوديب ، وإن الأسلوب الذي كتب به الدين كتبوا التوراة لما قصوا قصة شمشون لا يختلف عن أسلوب ألف ليلة وليلة : « فلم يستطيعوا أن يحلوا الأحجية في ثلاثة أيام ، وكان في اليوم السابع أنهم قالوا لا امرأة شمشون : تملق رحلك لكي يطهر لنا الأحجية لثلا

محرقك وبيت أهلك بنار . ألتسبوننا دعوتونا أم لا ؟ . أليس الحق في جانبهم ؟ أيعقل أن نبياً اصطفاه الله يقامر بعض رموز مستغلا حادثاً قد وقع له لا علم لأحد به ؟ : « فبكت امرأة شمشون لديه وقالت : إنما كرهتني ولا تحسني ، قد حاجيت بني شعبي أحجية وإياي لم تخبر . فقال لها : هو ذا أبني وأمي لم أخبرهما فهل إياك أخبر ؟ » فبكت لديه السبعة الأيام التي فيها كانت الوليمة ، وكان في اليوم السابع أنه أخبرها لأنها صابقتها فأظهرت الأحجية لبني شعبها . فقال له رجال المدينة في اليوم قبل غروب الشمس أي شيء أحل من العسل وما أجفئ من الأسد ... » .

ولننظر الآن ماذا فعل الرجل الذي اصطفاه الرب : « ... وأمسك ثلاثمائة ابن آوى وأخذ مشاعل وجعل ذنبا إلى ذنب ووضع مشعلا بين كل دبين في الوسط ، ثم أضرم المشاعل نارا وأطلقها بين زروع الفلسطينيين فأحرق الأكداس والزرع وكروم الزيتون ... » .

وأحب شمشون دليلاً وعرفت أن سر قوته في شعره ، لأن الموسى لم تمسه فهو نذير الله . وتخون دليلاً حبيبها وتقص شعره ، ومن عجب أن الله يفارقه كأنما كانت الروح تسرى في شعره ، فأخذ الفلسطينيين وسملوا عينيه ووضعوه في السجن . وذات يوم بينما كانوا يلعبون في الملعب أتوا بشمشون ليسحروا منه ، فلما توسط المكان قال لعلام الذي كان يقوده : دعني أمس الأعمدة التي يقوم عليها البيت ، وكان البيت مملوءاً رجالاً ونساء ، وكان هناك جميع أقطاب الفلسطينيين وعلى السطح نحو ثلاثة آلاف رجل وامرأة .

وقبض شمشون على العمودين اللذين كان البيت قائماً عليهما وقال : تممت نفسي مع الفلسطينيين . وانحنى بقوة فسقط البيت على الأقطاب وعلى كل الشعب الذي فيه ، فكان الموق الذين أماتهم في موته أكثر من الذين أماتهم في حياته .

قصة طريقة مأخوذة من الأدب الإسرائيلي ولكنها لا يمكن أن تكون وحيا ، فلا يعقل أن الرب يروى في بساطة أن شمشون لما ذهب إلى غزة رأى هناك امرأة زانية فدحل إليها ، ولا يمكن أن تتصور أن الرب يقص قصة لا تخرج منها البشرية بعبرة . إن شمشون لم يضع موسى على رأسه لأنه نذر للرب فهل كل من يطلق شعره وينذر للرب يكون مثل شمشون ؟ إنها قصة من خيال الذين كتبوا التوراة في المنفى بعد أن قرءوا قصص جلد حاميش البابلية ومغامرات آلهة بابل وأساطير أبطالها .

ونترك لإصحاحات سفر القضاة وما فيها من أفاصيص والتأرجح بين غضب الرب ورضاه وسفر راعوث ، ولا أدري حكمة سرد قصتها في التوراة غير أنها أنجبت عوبيد وهو أبو يسى ويسى أبو داود وداود في نظر الذين كتبوا التوراة في المنفى هو أول ملك من نسل يهوذا ، وإنه لشيء عظيم عند الذين كتبوا التوراة أن يكون ملكا من أن يكون نبيا ، فما أكثر الأنبياء في بني إسرائيل وما أعظم الملوك ما دامت جنتهم أرضية .

ونقرأ معا سفر صموئيل الأول فنعلم أن الرب بعد أن كان إله إسرائيل أصبح رب الجنود ، وأن ألقانة بن برؤحام بن أليهو بن ثوحو بن صوف له امرأتان إحداها حنة والأخرى فتنة ، وأن لفتنة أولادا أما حنة فلم يرقها الله الولد ، فابتهمت إلى الرب وقالت : « يا رب الجنود إن نظرت نظرا إلى مذلة أميتك وذكرتنى ولم تنس أميتك بل أعطيت أمتك ررع بشر فإني أعطيه للرب كل أيام حياته ، ولا يعلو رأسه موسى » . ووضعت حنة ذكرا ودعته صموئيل ، « فائدة لأني من الرب سألته » .

وبعد أن فطمت حنة صموئيل قدمت للرب ثلاثة ثيران ودقيقا وورق خمر ، ووهبت صموئيل للمعبد ، وكان على كاهن المعبد وكان أباؤه يأخذون لحوم الذبائح ولا يحرقون الشحم للرب : « وشاح على جدا وسمع بكل ما عمله

بنوه بجميع إسرائيل وأنهم كانوا يضاجعون النساء المجتمعات في باب خيمة الاجتماع ، وكان صموئيل يعبد الرب وينام مع الكاهن في المعبد . وذات يوم ناداه الرب ثلاث مرات وهو يحسب أن الكاهن على يديه فيذهب إليه ، فيقول له على : « لم أدع يا بني ، ارجع اضطجع . وعاد الرب فدعا صموئيل الثالثة . فقام وذهب إلى على وقال هاأنذا لأنك دعوتني . ففهم على أن الرب يدعو الصبي ، فقال على لصموئيل : اذهب اضطجع ويكون إذا دعاك تقول : تكلم يا رب لأن عبدك سامع . فذهب صموئيل واضطجع في مكانه .

فجاء الرب ووقف ودعا كالمرات الأولى : صموئيل صموئيل ، فقال صموئيل : تكلم لأن عبدك سامع . فقال الرب لصموئيل : هو ذا أنا فاعل أمرا في إسرائيل . كل من سمع به تطن أذناه . في ذلك اليوم أقيم على على كل ما تكلمت به على بيته . ابتدء وأكمل . وقد أحبرته بأني أقضى على بيته إلى الأبد من أجل الشر الذي يعلم أن بنيه قد أوجبوا به اللعنة على أنفسهم ولم يردعهم ، ولذلك أقسمت لبيت على أنه لا يكفر عن شر بيت على بذيحة أو بتقدمة إلى الأبد .

الرب يقف كما يقف الإنسان وينادي على النائم ويغفر الذنوب لا بتوبة نصوح بل بذيحة ، وهو يقبل الخمر ، فما قدروا الله حق قدره ، سبحانه وتعالى عما يصفون . واضطجع صموئيل إلى الصباح وفتح أبواب بيت الرب ، وخاف صموئيل أن يخبر على بالرؤيا فدعا على صموئيل وقال : يا صموئيل ابني . فقال : هاأنذا . فقال : ما الكلام الذي كلمك به ؟ لا تخف عني . وأخبر صموئيل على عما أوحى إليه ، وكبر صموئيل وكان الرب معه ، وعرف جميع إسرائيل من دان إلى بئر سمع أن صموئيل صار نبيا للرب . ونشبت الحرب بين الفلسطينيين وبين إسرائيل ، وانكسرت إسرائيل :

« وقال شيوخ إسرائيل لماذا كسرنا اليوم الرب أمام الفلسطينيين ؟ لنأخذ لأنفسنا من شيلوه تابوت عهد الرب فيدخل في وسطنا ويخلصنا من أعدائنا ، فأرسل الشعب إلى شيلوه وحملوا من هناك تابوت عهد رب الجنود ... » . أصبحت إسرائيل في أرض اللبس والعسل كما يقول الذين كتبوا التوراة ، فأصبحوا في عسى عن الرب الرازق ، ولكنهم كانوا في حرب على الدوام مع الفلسطينيين ، فهم في حاجة إلى رب ينصرهم على أعدائهم ، فأصبح الرب رب الجنود فهم في غنى عنه في كل شيء إلا الحرب .

ودارت الحرب وتابوت عهد الرب مع الإسرائيليين ، وعلى الرغم من ذلك : « انكسر إسرائيل وهربوا كل واحد إلى حيمته » وكانت الضربة عظيمة جدا وسقط من إسرائيل ثلاثون ألف رجل ، وأخذ تابوت الله ومات ابنا عالي حفنى وفينحاص .

ومات عالي لما سمع أن تابوت العهد قد أحذه الفلسطينيون ، ووجهت إسرائيل وقالوا : « قد زال المجد من إسرائيل » .

انهزمت إسرائيل ولكن تابوت العهد الذي وضع في أشدود انتقم من الأشدوديين ونقل التابوت إلى جت ، فأصاب أهالي جت باليواسير كما فعل بأهالي أشدود ، فأرسل التابوت إلى عقرون ففرع منه الناس ، خافوا أن ينزفوا الموت بسبه وقد ضربوا باليواسير ، فأفتى الكهنة والعرافون برد التابوت ورشوة إله إسرائيل بذهب ، ففعلوا ذلك ، فقرح إسرائيل برد تابوت الرب ، ولا شك أن فرحهم كان أكبر بالصندوق الذي ملئ ذهباً .

أبعقل إن إسرائيل وتابوت العهد يحاربون وينهزمون ثم يتنصر تابوت العهد وحده على الفلسطينيين ويرغمهم على أن يعيدوه بلا حرب إلى إسرائيل بعد سبعة أشهر ؟! أيمكن أن يصدق مؤمن أن هذا وحى الله ؟ إن الله ينصر من ينصره وما كان ليحارب عن قوم يأتون الساء على باب بيته ، على باب حيمة

الاجتماع ، ولكنها أحلام الذين كتبوا التوراة في المنفى .

وكان بنو إسرائيل يعملون بعلا وعشار فقال لهم صموئيل : إن كنتم بكل قلوبكم راجعين إلى الرب فانزعوا الآلهة الغريبة والعشاروت من وسطكم وأعدوا قلوبكم للرب واعبدوه وحده ، فينقذكم من يد الفلسطينيين . فتزع بنو إسرائيل البعلين والعشاروت وعبدوا الرب وحده .

واستصر صموئيل على الفلسطينيين واستعاد المدن التي أخذها الفلسطينيون من إسرائيل ، ولولا ذلك النصر لما كان لصموئيل ذكر في التوراة ، فكل من انتصر على الفلسطينيين جعلوه نبيا يقضى بين بسى إسرائيل .

وكان لما شاخ صموئيل أن جعل بنيه قضاة لإسرائيل ، وأخذ ابناه الرشوة ولم يحكما بالعدل فجاء شيوخ إسرائيل إلى صموئيل وقالوا له : هو ذا أنت قد شخت وابناك لم يسيرا في طريقك . فالآن اجعل لنا ملكا يقضى لنا كسائر الشعوب . فسأ الأمر في عيني صموئيل إذ قالوا أعطنا ملكا يقضى لنا ، وصلى صموئيل إلى الرب فقال الرب لصموئيل : اسمع لصوت الشعب في كل ما يقولون لك . لأنهم لم يرفضوك أنت بل إياي رفضوا حتى لا أملك عليهم ، حسب كل أعمالهم التي عملوا من يوم أصعدتهم من مصر إلى هذا اليوم وتركوني وعبدوا آلهة أخرى . هكذا هم عاميون بك أيضا . فالآن اسمع لصوتهم ، ولكن اشهدن عليهم وأخبرهم بقضاء الملك الذي يملك عليهم .

فكلم صموئيل الشعب الذين طلبوا منه ملكا بجميع كلام الرب ، وقال : هذا يكون قضاء الملك الذي عليكم ، يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه لمرأكة وفرسانه فيركضون أمام مرأكة ويجعل لنفسه رؤساء ألوف ورؤساء خماسين فيحرقون حرثته ويحصدون حصاده ويعملون عدة حربه وأدوات مرأكة . ويأخذ بناتكم عطارات وطباحات وخبارات ، ويأخذ حقولكم وكرمكم

وزيتونكم أحودها ويعطيها لعبيده . ويعشر رروعكم وكرومكم ويعطي لخصيانه وعبيده . ويأخذ عبيدكم وجواريكم وشبانكم الحسان وحميركم ويستعملكم لشغله . ويعشر غنمكم وأنتم تكونون له عبيدا ، فصرخون في ذلك اليوم من وجه ملككم الذي أخذتموه لأنفسكم فلا يستجيب لكم الرب في ذلك اليوم . فأبى الشعب أن يسمعوا الصوت صموئيل وقالوا : لا بل يكون علينا ملك . فنكون نحن أيضا مثل سائر الشعوب ويقصى لنا ملكنا ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا . فسمع صموئيل كل كلام الشعب وتكلم به في أذني الرب . فقال الرب لصموئيل : اسمع لصوتهم وملك عليهم ملكا . فقال صموئيل لرجال إسرائيل اذهبوا كل واحد إلى مدينته . . .

أليس أمر إسرائيل عجبا ؟ تابوت الرب يحارب وحده الفلسطينيين ويرغمهم على أن يعيدوه إلى أعدائهم ثم يطلب هو إسرائيل ملكا ليخرج أمامهم ويحارب حروبهم ؟ وهل يستطيع ذلك الملك أن يفعل أكثر مما فعل تابوت العهد ؟ وإذا وقع ذلك الملك في الأسر أيسطيع وحده أن يضرب الفلسطينيين وأن يرغمهم على أن يعيدوه ومعه صندوق ملى ذهباً ؟ إن الدين كتبوا التوراة في المنفى عاجزون عن صياغة قصة محبوبة تقود مقدماتها إلى نتائجها الطبيعية ، وإهم جاهلون ماهية الرب وقدرته ، فقد جعلوا صموئيل يسمع كلام الشعب ويتكلم به في أذني الرب ، كأما الرب في حاجة إلى من يقل إليه كلام الناس : « ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من بحوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينتهم بما عملوا يوم القيامة . إن الله بكل شيء عليم » (١) .

كان النسي يدعى الرائي ، وقد وقع اختيار صموئيل الرائي بوحى من الله على

شاؤل ، فأخذ صموئيل قينة الدهن وصب على رأس شاؤل وقبله ، واستدعى صموئيل الشعب إلى الرب إلى المصفاة وقال لى إسرائيل : هكذا يقول الرب إله إسرائيل : إني أصعدت إسرائيل من مصر وأنقذتكم من يد المصريين ومن يد جميع الممالك التى ضايقتكم ، وأنتم قد رفضتم اليوم إلهكم الذى هو مخلصكم من جميع الذين يسيئون إليكم ويصايقونكم وقلتم له بل نجعل علينا ملكا ، فالآن امثلوا أمام الرب حسب أسباطكم وألوفكم . فقدم صموئيل جميع أسباط إسرائيل فأخذ سبط بنيامين ثم قدم سبط بنيامين حسب عشائره فأخذت عشيرة مطرى وأخذ شاؤل بن قيس ، فقتلوا عليه فلم يوجد ، فسألوا أيضا من الرب هل يأتى الرجل أيضا إلى هنا ؟ فقال الرب : هو ذا قد اختبأ بين الأمتعة . فركضوا وأخذوه من هناك فوقف بين الشعب فكان أطول من كل الشعب من كتفه فما فوق . فقال صموئيل لجميع الشعب : رأيتم الذى اختاره الرب لكم ؟ إنه ليس مثله فى جميع الشعب . فهتف كل الشعب وقالوا : ليحيى الملك . فكلّم صموئيل الشعب بقضاء المملكة وكبه فى السفر ووضعهم أمام الرب ... » .

والله إنه لشيء محير . بنو إسرائيل يرفضون إلههم ويطلبون ملكا ، فيستجيب لهم الإله المرفوض ويختار لهم ذلك الملك ويعاون على اختياره نبي الله صموئيل ! هل يعقل أن نبيا يطيع قومه فى معصية ويأليتها معصية عادية ، إنها رفض حكم الله والتماس ملك أرضى يقضى بينهم . إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى يتنهفون على ملك يعيدهم إلى أرض فلسطين فأساعوا الأدب مع ربهم ، ما دام ذلك الرب لا يحملهم إلى الأرض التى يطمعون فيها .

وفى الإصحاح الحادى عشر من سفر صموئيل الأول بداية التفريق بين بنى إسرائيل ورجال يهودا وإن كان ذلك التفريق سابقا لأوانه ، فلم يشتد مساعد اليهود وهم بنو يهوذا إلا بعد أن صار الملك لداود ولأبيه سليمان من بعده ، فإنه

لما أوشكت الحرب تنشب بين أهل عماد وبنى إسرائيل .. « موقع رعب الرب على الشعب ، فخرجوا كرجل واحد وعدهم ( شاول ) في بازق فكان بنو إسرائيل ثلاثمائة ألف ورجال يهودا ثلاثين ألفا » .

وانتصر صموئيل وشاول على أعداء بنى إسرائيل ، ونصب شاول ملكا على إسرائيل وصار مسيح الرب « وأخذ شاول الملك على بنى إسرائيل وحارب جميع أعدائه حواليه مؤاب وبنى عمون وأدوم وملوك صوبة والفلسطينيين ، وحيث توجه غلب » .

وقال الذين كتبوا التوراة إن رب الجود أمر شاول أن يحارب العماليق وأن يقتل رجالهم وساءهم ، فخرج شاول في مائتي ألف رجل وعشرة آلاف رجل من يهودا ، فقتل كل الرجال واستحى كل ما هو جيد من الغنم والبقر والخراف ، وقتل كل ما هو هزيل وحقير .

وقد يدغ الذين كتبوا التوراة متبى السفاهة لما كتبوا : « وكان كلام الرب إلى صموئيل قائلا : ندمت على أنى قد جعلت شاول ملكا لأنه رجع من ورائى ولم يقيم كلامى ، فاغتاظ صموئيل وصرخ إلى الرب الليل كله » . علام الغيوب يندم على أنه اختار شاول ملكا ، عالم الغيب والشهادة لم يكن يعرف سريرة الرجل الذى اختاره لملك إسرائيل . إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى تخبطوا تخبطا أعمى عندما كتبوا سفر صموئيل الأول ، جعلوا الرب مع علمه أن بنى إسرائيل يرفضون حكمه ويكتمسون حكم ملك يختار ذلك الملك ويأمر نبيه أن يمسخه ثم يعود ويندم على اختياره لذلك الملك .

صورة مضطربة لا تستقيم لمطلق ، ونقائص تنسب إلى رب العزة سبحانه وتعالى عما يصفون . أفليس لهم قلوب يبصرون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

ويذهب صموئيل بأمر الرب إلى بيت لحم وهو يرتحف من شاول ، ويزعم ( غزوة نبوك ) .

أنه ذاهب ليذبح للرب فيما كان مطلقا لمسح علامات من أبناء يسي . وعرض يسي أبنائه على صموئيل فرفضهم جميعا ، وسأل عما إذا كانوا قد كملوا فقال يسي : « بقي بعد الصغير وهو ذا يرعى الغنم . فقال صموئيل ليسى : أرسل وأت به ، لأننا لا نجلس حتى يأتى إلى هنا . فأرسل وأتى به ، وكان أشقر مع حلاوة العينين وحسن المنظر ، فقال الرب : قم امسحه لأن هذا هو . فأخذ صموئيل قرن الدهن ومسحه في وسط إخوته . وحل روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعدا ، ثم قام صموئيل وذهب إلى الرامة .

وذهب روح الرب من عند شاول وبغته روح ردىء من قبل الرب !

( هذا كلام الذين كتبوا التوراة بأيديهم ) .

فقال عبيد شاول له : هو ذا روح ردىء من قبل الله يفتك . فليأمر سيدنا عبيده قدامه أن يفتشوا على رجل يحسن الضرب بالعود ويكون إذا كان عليك الروح الردىء من قبل الله أنه يضرب بيده فتطيب .

( أهدأ وحى أم كلام كهان أم كدية زار ؟ ) .

فقال شاول لعبيده : انظروا لى رجلا يحسن الضرب وأتوا به إلى . فأجاب واحد من العلماء وقال : هو ذا قد رأيت ابنا ليسى البتلحمى يحسن الضرب ، وهو جبار بأس ورجل حرب وفصيح ورجل جميل والرب معه . فأرسل شاول رسلا إلى يسي يقول : أرسل إلى داود ابك الذى مع الغنم . فأخذ يسي حمارا حاملا خبزا وزق حمر وجدى معزى وأرسلهما بيد داود ابنه إلى شاول .. فاجاء داود إلى شاول ووقف أمامه فأحبه جدا وكان له حامل سلاح . فأرسل شاول إلى يسي يقول : ليقف داود أمامى لأنه وجد نعمة فى عيني . وكان عندما جاء الروح من قبل الله على شاول أن داود أخذ العود وضرب بيده فكان يرتاح شاول ويطيب ويذهب عنه الروح الردىء .

أهذه وطيفة رجل الرب معه ؟ وهل إذا أراد الله بشاول سوءا يستطيع عود

داود أن يرده عنه ؟ إن الذين كتبوا التوراة كانوا متأثرين بأساطير بابل وبالأرواح الشريرة التي كانت تطرد بالبخور وبالأعاني والأناشيد . ومن أين عرف عبيد شاول أن روحا شريرة من قبل الرب قد حلت به ؟

ووقف جيش شاول على جبل ووقف جيش الفلسطينيين على جبل والوادي بينهم ، فمخرج رجل مبارز من جيوش الفلسطينيين اسمه حليات من جت طوله ست أذرع وشبر ، وعلى رأسه خوذة من نحاس ، وكان لابساً درعا حرسفيا ووزن الدرع خمسة آلاف شاقل نحاس ، وجرموقا نحاس على رجله ، ومزراق نحاس بين كتفيه ، وقناة رمح كنبول الساجين ، وسان رمح سنانة شاقل حديد ، وحامل الترس كان يمشى قدامه . فوقف ونادى صفوف إسرائيل وقال لهم : لماذا تخرجون لتضطفوا للحرب ؟ أما أنا الفلسطيني وأنتم عبيد لشاول . احاروا لأنفسكم رجلا ولينزل إلى فإن قدر أن يحاربى ويقتلنى نصير لكم عبيدا . وإن قدرت أنا عليه وقتلته تصيرون أنتم لنا عبيدا وتخدمونا .

ولما سمع شاول وجميع إسرائيل كلام الفلسطيني هذا ارتاعوا وخافوا جدا .

وكان الفلسطيني يتقدم ويقف صباحا ومساء أربعين يوما ، فقال يسى لداود ابته : خذ لإخوتك ( وكانوا ثلاثة فى جيش شاول ) إيفة من هذا الفريك وهذه العشر خبزات واركض إلى الحملة إلى لإخوتك . وهذه العشر القطعات من الخبز قدمها لرئيس الألف واعتقد سلامة لإخوتك وخذ منهم عربونا . وكان شاول وهم وجميع رجال إسرائيل فى وادى البطم يحاربون الفلسطينيين .

فبكر داود صباحا وترك النعم مع حارس وحمل وذهب كما أمر يسى وأتى إلى المتراس والحيش بخارج إلى الاصطفاة وهتفوا للحرب . واصطف

إسرائيل والفلسطينيون صفا مقابل صف . فترك داود الأمتعة التي معه بيد حافظ الأمتعة وركض إلى الصف وأتى وسأل عن سلامة إخوته . وهما هو يتكلم إذا برجل مبارز اسمه جليات الفلستيني من جت صاعد من صفوف الفلسطينيين وتكلم بمثل هذا الكلام فسمع داود . وجميع رجال إسرائيل لما رأوا الرجل هربوا منه وحافوا جدا فقال رجال إسرائيل : أرأيتم هذا الرجل الصاعد ليعبر إسرائيل هو صاعد ، فيكون أن الرجل الذي يقتله يعني الملك غنى جزيل . ويعطيه بنته ويجعل بيت أبيه حرا في إسرائيل .

وبضرب داود جليات بالمقلاع : « ومد داود يده إلى الجراب وأخذ منه حجرا ورماه بالمقلاع وصرب الفلستيني في جبهته فسقط على وجهه ، فأسرع داود إليه فقتله . »

وإن قارئ هذه القصة ليقف حائرا يتساءل : ألم يأخذ شاول داود ليصرب له بالعود ؟ فكيف عاد إلى رعي غنم أبيه ؟ وهل كان داود علما أو رجلا لما قتل جليات ؟ فشاول يقول له : لا تستطيع أن تذهب إلى هذا الفلستيني لتحاربه لأنك غلام ، ييا يقول غلام شاول لما كلمه عن داود : وهو جبار بأس ورجل حرب ومصبح ورجل جميل والرب معه . إن قارئ التوراة كثيرا ما تتناه حيرة ويتساءل : هل يكتب التوراة أكثر من كاتب ؟ إن كل الدلائل تدل على أن أكثر من واحد قد اشتركوا في كتابتها وإلا لما وجدت المتناقضات التي تفيض بها التوراة .

إن القرآن الكريم قد روى هذه القصة ، فشاول هو طالوت وجليات هو حالوت ، وإن عبارات لقرآن تفيض بالحياة وتشع إيمانا : « ألم تر إلى الملائكة نزلت على إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لبي لمبعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلون قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فنمنا كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم

والله عليم بالظالمين . وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت منكبا ، قالوا أننى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وراده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم . وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين . ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم باذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين <sup>(١)</sup> .

قتل داود جليات ، ومع أن داود كان يضرب العود لشاول فإن الذين كتبوا التوراة ينسبون ذلك فيقولون عند عودة داود برأس جليات : « فقال له شاول : ابن من أنت يا غلام ؟ فقال : داود بن عبدك يسى البتلمي » . عجيب أمر شاول أو عجيب أمر الذين كتبوا التوراة . أنسى شاول الخبز ورق الخمر والجدي كل هذه الأشياء التي حملها داود معه هدية للملك يوم جاءه ليضرب العود ليطرد الروح الشريرة التي كانت تحل به من قبل الرب ؟ ألم يحبه جدا وكان له حامل سلاح ؟ فكيف نسيه وكيف يسأل عنه ؟

وكعادة كتاب التوراة جعلوا العذر شيمة الأنبياء ، فقد خرجت النساء من جميع مدن إسرائيل يرقصن احتفالاً بالنصر وارتفعت أصواتهن بالغناء . فكان

مديحهم لداود يفوق مديحهم لشاول ، فحقق شاول على داود : « وقال شاول لداود : هو ذا ابنتي الكبيرة ميرب أعطيك إياها امرأة . إنما كن لي ذا بأس وحارب حروب الرب ، فإن شاول قال لا تكن يدي عليه . بل لتكن عليه يد الفلسطينيين ، فقال داود لشاول : من أباوما هي حياتي وعشيرة أُنّى في إسرائيل حتى أكون صهر الملك ؟ » .

و لم يتزوج داود ميرب وأحب ميكال ابنة شاول داود : « فأخبروا شاول فحسن الأمر في عينيه ، وقال شاول : أعطيه إياها فتكون له شركا وتكون يد الفلسطينيين عليه . وقال شاول لداود ثانية تصاهر في اليوم » . وكان مهر داود مائة غلقة من الفلسطينيين أعداء الملك « وكان شاول يتفكر أن يوقع داود بيد الفلسطينيين » . فخرج داود ورجاله لقتال الفلسطينيين فقتل منهم مائتي رجل ، وأتى داود بغلغهم وتزوج ميكال .

يقول كتاب التوراة في الإصحاح السادس عشر من سفر صموئيل الأول ، إن أحد غلمان الملك قال له وهو يحدثه عن داود : « قد رأيت ابنا ليسى التلحمي يحسن الضرب وهو جبار بأس ورجل حرب وفصيح ورجل جميل والرب معه » . ثم يعودون ليقولوا في الإصحاح الثامن عشر : « وكان شاول يخاف داود لأن الرب كان معه » . ولما قتل داود مائتين من الفلسطينيين قالوا : « فرأى شاول وعلم أن الرب مع داود .. وعاد شاول يخاف داود بعد وصار شاول عدوا لداود كل الأيام » . لقد علم شاول ثلاث مرات أن الرب مع داود فكيف خطر له على قلب أن الرب يتخلى عن رجله ويتركه لأعدائه العلف يقتلوه تنميذا لرغبة ملك حقود ! شتان بين شاول في التوراة وطالوت في القرآن المجيد . فشاول التوراة اصطفاه الرب وهو كاره لذلك الاصطفاء ثم ندم على أن جعله ملكا على إسرائيل ، أما طالوت في القرآن فقد اصطفاه الله على

علم والله يعطى ملكه من يشاء وقد زاده بسطة في العلم والجسم ، وآية علمه أنه لما هم بقتال الأعداء عرف أين يتوجه ومن يدعو فوقف هو ورجاله المؤمنون يدعون ربهم : « ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » (١) .

كانت أفعلة الدين كتبوا التوراة في المنفى قد ملكت حقدا على كل شيء ، فانعكس ذلك الحقد على كل ما كتبوه فإذا بتصرفات الملوك الذين اصططاهم الله بل والأنبياء الذين بعثوا لهداية البشر تنبض بالحقد بل بالخسة في كثير من الأحيان .

« وكلم شاول يوناثان ابنه وجميع عبيده أن يقتلوا داود ، وأما يوناثان بن شاول فسر بداود جدا ، فأحبر يوناثان داود قائلا : شاول أبى ملتمس قتلك ، والآن فاحفظ على نفسك إلى الصباح وأقم في خفية واختبئ ، وأنا أخرج وأقف بجانب أبى في الحقل الذي أنت فيه وأكلم أبى عنك وأرى ماذا يصير وأحبرك ، وتكلم يوناثان عن داود حسنا مع شاول أبيه وقال له : لا يخطئ الملك إلى عبده داود لأنه لم يخطئ إليك ، ولأن أعماله حسنة لك جدا فإنه وضع نفسه بيده وقتل الفلسطينيين فصنع الرب خلاصا عظيما لجميع إسرائيل . أنت رأيت وفرحت فلماذا تخطئ إلى دم بريء يقتل داود بلا سبب ؟ فسمع شاول لصوت يوناثان وحلف شاول : حتى هو الرب لا يقتل . فدعا يوناثان داود وأحبره يوناثان بجميع هذا الكلام ، ثم جاء يوناثان بداود إلى شاول فكان أمامه كأمس وما قبله .

وعادت الحرب تحدث فخرج داود وحارب الفلسطينيين وضربهم ضربة عظيمة فهربوا من أمامه . وكان الروح الرديء من قبل الرب على شاول وهو

جالس في بيته ورعجه يده . وكان داود يضرب بالعود فالتمس شاول أن يطعن داود بالرمح حتى إلى الحائط ، ففر من أمام شاول فضرب بالرمح إلى الحائط . فهرب داود ونجا تلك الليلة . فأرسل شاول رسلا إلى بيت داود ليراقبوه ويقتلوه في الصباح . فأحبرت داود ميكال امرأته قائلة : إن كنت لا تنجو بنفسك هذه الليلة فإنك تقتل غدا . فأنزلت ميكال داود من الكوة فذهب هاربا ونجا .

« فهرب داود ونجا وجاء إلى صموئيل في الرامة وأخبره بكل ما عمل به شاول ، وذهب هو وصموئيل وأقاما في نايوت . فأخبر شاول وقيل له : هو داود في نايوت في الرامة . فأرسل شاول رسلا لأخذ داود ، ولما رأوا جماعة الأنبياء يتنبئون وصموئيل واقفا رئيسا عليهم كان روح الله على رسل شاول فتبعوا هم أيضا ، وأخبروا شاول فأرسل رسلا آخرين فتبعوا هم أيضا ، ثم عاد شاول فأرسل رسلا ثلاثة فتبعوا هم أيضا ، فذهب هو أيضا إلى الرامة وجاء إلى البر العظيمة التي عند سيخو وسأل وقال : أين صموئيل وداود ؟ فقيل ها هما في نايوت في الرامة . فذهب إلى هناك إلى نايوت في الرامة فكان عليه أيضا روح الله فكان يذهب ويتنبأ حتى جاء إلى نايوت في الرامة . فخلع هو أيضا ثيابه وتنبأ هو أيضا أمام صموئيل وانطرح عريانا ذلك النهار كله وكل الليل ، لذلك يقولون : إن شاول أيضا بين الأنبياء . »

أكانت النبوة عدوى حتى إن كل من يقترب من صموئيل تنبأ وتخل عليه روح الله ؟ أم كانت السوة في نظر الذين كتبوا التوراة الانقطاع للعبادة ؟ وإن كان شاول من الأنبياء أتلقى الأفعال التي نسبوها إليه بنبي ؟ وإذا كانت روح الله عليه فماذا بدم الرب لأنه اصطفاه ملكا لبني إسرائيل ؟ إنها أقاويل كهان اهترت في أدهامهم صمات الله تعالى لما اختلطت بصفات آلهة البابليين وقدماء

للمصريين وما وصل إليهم من صفات آلهة اليونان والرومان ، فقد كانوا في بابل في تلك العهود الساسانية التي تسربت فيها الآداب اليونانية والرومانية إلى العراق وإيران .

وعلى الرغم من أن شاول قد تنبأ — على زعم الذين كتبوا التوراة — فإن قلبه لم يبرأ من عداوة داود . إنه يريد قتله ، فيرسل يوناثان إلى داود أن يهرب من وجه أبيه فيفر داود إلى أخيمالك الكاهن ، ثم إلى أخيش ملك جت . فلما يحس بالخطر يتظاهر بالجنون أمام الملك ، ثم يلجأ إلى مغارة « فلما سمع إخوته وجميع بيت أبيه نزلوا إليه هناك واجتمع إليه كل رجل متضايق وكل من كان عليه دين وكل رجل مر النفس فكان عليهم رئيسا ، وكان معه نحو أربعمائة رجل .. » .

شاول — على رأى الذين كتبوا التوراة — كان نبيا ، وكان داود نبيا ، فهل يمكن أن نتصور أن نبيين أرسلهما الله يتنازعا السلطة الأرضية ؟ وهل ذلك النزاع الذى شب بين النبيين يمكن أن يكون قدوة للبشر ؟ إن شاول زوّج داود ابنته ولم تكن نيته خالصة فلم يزوجه إياها لأنه داود البى . وما أراد بذلك الزواج وجه الله أو حتى وجه يهوه ، بل أراد بذلك الزواج أن يكون داود في قبضة يده مسحقه أى شاء . إنها أخلاق أنبياء بنى إسرائيل كما تصورها الذين كتبوا التوراة في المنفى .

وراح شاول يتتبع داود : « ... وكان هناك كهف فدخل شاول لكي يغطى رجله ، وداود ورجاله كانوا جلوسا في معاب الكهف ، فقال رجال داود له : هو ذا اليوم الذى قال لك عنه الرب : هاأندا أدفع عدوك ليديك متفعل به ما يحسن في عينك ، فقام داود وقطع طرف جبة شاول سرا ، وكان بعد ذلك أن قلب داود ضربه على قطعه طرف جبة شاول . فقال لرجاله : حاشا لى من قبل الرب أن أعمل هذا الأمر بسيدى مسيح الرب فأمد يدي إليه لأنه

مسيح الرب هو . فوبح داود رحاله بالكلام ولم يدعهم يقومون على شاول .  
وأما شاول فقام من الكهف وذهب في طريقه ، ثم قام داود بعد ذلك وخرج  
من الكهف وبأدى شاول قائلاً : يا سيدى الملك . ولما التفت شاول إلى ورائه  
حر داود على وجهه إلى الأرض وسجد . وقال داود لشاول : لماذا تسمع كلام  
الناس ... ؟ » . داود انسى يخر ساجدا لبشر بينا دحية الكلبي لما أرسله رسول  
الله ﷺ — إلى هرقل بكتاب وأشاروا عليه أن يسجد لقيصر أبى وقال :  
لا أسجد إلا لله . إن داود لم يخر ساجدا لشاول ولا ريب ولكنها خيالات الدين  
كتبوا التوراة في المنهى الذين كانوا يخرعون سجدا لقورش ودارا وأخشوئروش  
وكل أكاسرة الفرس الذين أحسنوا إليهم بعد أن علمهم « زرادشت » احترام  
أهل الكتاب .

وقال شاول لداود : أنت أبر منى . لأن داود أتيت له فرصة القضاء على  
شاول ولكنه لم يفعل ، ولم يكن هم شاول إلا الدنيا فقد التمس من داود أن  
لا يقطع سلسله من بعده ولا يبني اسمه من بيت أبيه . ومات شاول وقام داود  
ونزل إلى بركة فاران .

ونزوج داود أبيجايل ، امرأة رجل أراد أن يؤذيه داود ولكن أبيجايل  
خرجت تستعطف داود فقبل شفاعتها ، وبعد أن مات زوجها أرسل إليها رسله  
يعرض عليها الزواج فنهلت بالفرح وخرجت إليه . ثم اتخذ داود امرأة أخرى  
زوجة ولم يحرك تعدد أزواج داود أقلام المستشرقين الحاقدين على الإسلام  
ونبى الإسلام ، فما كتب أحد منهم حرفا واحدا ينتقد أنبياء التوراة الذين  
أسرفوا في عدد الزيجات وإن سودوا الصفحات لا تنقاد نبى الإسلام الذى جاء  
ليحدد الزواج الذى كان بلا حدود ، فما كانوا يقصدون وجه الحقيقة  
وما كانوا محايدين كما يحاولون أن يوهوا الناس على الدوام ، بل كان العرص  
ملا عقولهم والحق يميز في أفئدتهم والافتراء يتدفق من أسنة أقلامهم ، فهم

ألد الخصام .

وجعل الذين كتبوا التوراة في المعنى بينهم شاول يستعين بالجان ويحضر صموئيل الذى مات : « ولما رأى شاول جيش الفلسطينيين خاف واضطرب قلبه جدا ، فسأل شاول من الرب فلم يجبه لا بالأحلام ولا بالأوريم ولا بالأنبياء ، فقال شاول لعيده : فتشوا لى على امرأة صاحبة جان فأذهب إليها وأسألها . فقال له عيده : هو ذا امرأة صاحبة جان فى عين دور . فتسكر شاول ولبس ثيابا أخرى وذهب هو ورجلان معه وجاءوا إلى المرأة ليلا وقال : اعرفى لى بالخان وأصعدى لى من أقول لك . فقالت له المرأة : هو ذا أنت تعلم ما فعل شاول كيف قطع أصحاب الجان والتوابع من الأرض ، فلماذا تصنع شركا لنفسى تميتها ؟ فحلف لها شاول بالرب قائلا : حى هو الرب إنه لا يلحقك إثم فى هذا الأمر . فقالت المرأة : من أصعد لك ؟ فقال : أصعدى لى صموئيل . فلما رأت المرأة صموئيل صرخت بصوت عظيم ، وكلمت المرأة شاول قائلة : لماذا خدعتنى وأنت شاول ؟ فقال لها الملك : لا تخافى عما ذا رأيت ؟ فقالت المرأة لشاول : رأيت آلهة يصعدون من الأرض . فقال لها : ما هى صورته ؟ فقالت : رجل شيخ صاعد وهو مغطى بحبة . فعلم شاول أنه صموئيل فحرق على وجهه إلى الأرض وسجد . فقال صموئيل لشاول : لماذا أقلقتنى بإصعادي إياى ؟ فقال شاول : لقد ضاقت فى الأمر جدا ، الفلسطينيون يحاربوننى والرب فارقتى ولم يعد يجيبنى لا بالأنبياء ولا بالأحلام ، فدعوتك لى تعلمنى ماذا أصنع . فقال صموئيل : ولماذا تسألنى والرب قد فارقتك وصار عدوك ؟ وقد فعل الرب لنفسه كما تكلم عن يدي وقد شق الرب المملكة من يدك وأعطاهما لقريبك داود . لأنك لم تسمع لصوت الرب ولم تفعل حُمو غضبه فى عماليق ، لذلك قد فعل الرب بك هذا الأمر اليوم ... » .

ألا يدرك الاستعانة بالجن لإقامة الميت من قبره بحكايات ألف ليلة

وليلة؟! وألا يحيرك أمر شاول؟ إن الله اصطفاه ملكاً لبني إسرائيل ثم بدم على ذلك، ثم عاد وجعله نبياً ثم فارقه وعاداه! أيمكن أن يختار الرب نبياً ثم يعزله؟! إن قصة شاول كما رواها الدين كتبوا التوراة بأيديهم إن دلت على شيء فإنما تدل على أن إله إسرائيل لا يعلم الغيب وأنه يتحبط في اختيار أنبيائه وأنه يصطلي بعضهم دون علم، فإذا بطقوا بهوى نفوسهم طردهم من رحمته وناصبهم العداء.

لهم تصوروا إله إسرائيل كملك أوصى من الملوك الذين عاشوا بالقرب منهم يقدمون إليهم بنات اليهود الجميلات، إنه يختار ثم يتضح له سوء اختياره فيندم ثم يصب جام غضبه على من وقع عليه الاختيار.

لماذا حقد الذين كتبوا التوراة على شاول؟ لأنه قد هزم من الفلسطينيين. إنهم يجمعون كل من انتصر منهم على الفلسطينيين نبياً، أما الذين هزموا فليسب منهم كل محد وكل اصطفاء ويطردون من رحمة إله إسرائيل.

تأثر الدين كتبوا التوراة في بابل بمعتقدات البابليين ومعتقدات المصريين وأخذوا أساطيرهم ودموها في توراتهم. ويقول برستد في كتابه فجر الضمير: «هذا ولديها الآن الأدلة الوافرة على أن التطور الديني الذي أحرره العبرانيون بعد عودتهم من المقي (في بابل) كان متأثراً بتعاليم «زروستر» (زرادشت)، وأنه يجب لذلك أن نضيف إلى المؤثرات الدولية التي تعرضت لها الخلفيات العبرانية، التعاليم التي جاء بها هذا النبي «الميدى الفارسي» العظيم «زروستر» (زرادشت).

وكان قد نما قبل ظهور الملكية العبرانية في أواخر القرن الحادى عشر مجموعة كبيرة من الأمم المتحضرة على طول الطرف الشرقى للبحر الأبيض المتوسط. تقع بين بلاد الحبشيين شمالاً وتحوم مصر جنوباً. والأرجح أن أهم هذه الشعوب من وجهة تاريخ المدينة هم الفينيقيون.

وقد كانت بعض العناصر الهامة في المدينتين البابلية والمصرية القديمة عاملا جوهريا في تكييف الحياة والثقافة في مدن الساحل الفينيقي الراهرة التي كانت تتألف منها المراكز التجارية الفينيقية ، ومن ثم كان من السهل أن تدخل هذه الحيوط الأجنبية في مسيج ثوب الحياة العبرانية ، وعلى أية حال فنحن لا نعلم شيئا تقريبا عن نوع التطور الخلقى عند الفينيقيين .

وأما في بلاد فلسطين التي احتلها العبرانيون فيما بعد فإن الكنعانيين الذين كانوا يسكنون هذه البلاد قبل العبرانيين ، كانوا قد اجتازوا مرحلة من النمو المتحضر تبلغ أكثر من ألف سنة حينما غزا العبرانيون البلاد .

وقد عرفنا من النقوش التاريخية البابلية والمصرية القديمة ، وكذلك من الحفائر الأثرية شيئا كثيرا عن هذه المدينة الفلسطينية الراقية السامية السابقة لعهد العبرانيين . كما أنه كان للثقافة البابلية كما ذكرنا من قبل أثر هام خالد في فلسطين الكنعانية . وعن طريق الكنعانيين — بوجه خاص — وصل أثر البابليين في الفن والأدب والدين إلى العبرانيين .

يضاف إلى ذلك أن هذا الإقليم كان منذ زمن بعيد واقعا تحت نفوذ الحصار المصرية القديمة . فقد بدأ المصريون يسيطرون سيطرتهم على الساحل الفينيقي قبل أن يظأ العبرانيون فلسطين بأكثر من ألفى سنة ، إذ اقتحمت الجيوش المصرية فلسطين قبل سنة ٢٥٠٠ ق . م .

ولما فتح الفراعنة المصريون آسيا العربية ووصلوا في فتحهم إلى سر الفرات في خلال القرن السادس عشر ق . م ، بقيت فلسطين مستعمرة في أيديهم أكثر من أربعة قرون .

والواقع أنهم حكموا فلسطين مدة قريين بعد دخول العبرانيين فيها ، وبذلك بلغت المدينة الكنعانية مرتبة سامية في القرون التي احتلتها فيها مصر . فلما غزاها العبرانيون كانت قد صبت مرارا وتكرارا بالعناصر المصرية .

وكان من نتائج ذلك أن العبرانيين حينما دخلوا فلسطين صاروا على اتصال مباشر بتلك الحضارة الكنعانية المركبة التي أُنشئ معظمها من العناصر البابلية والمصرية القديمة معا . هذا فضلا عن أن تلك المدينة الكنعانية بمرورها في تحارب اجتماعية طويلة ، كسبت كذلك عناصر ثقافية كثيرة من صرع الكنعانيين أنفسهم . والواقع الذي لا شك فيه أن اللغة التي وجدها العبرانيون الفاتحون ، وهى اللغة الكنعانية لغة البلاد وتنتش ، قد اتخذها العبرانيون أنفسهم لغة لهم ، وهى التى احدثت إليا فيما بعد فى ثوب اللغة العبرانية التى كتبت بها التوراة . ومما يؤسف له أننا لا نعرف شيئا يذكر عن التاريخ الخلقى لذلك الشعب قبل الغزو الإسرائيلى .

« كان ظهور العبرانيين لأول مرة فى ميدان التاريخ فى خطابات « تل العمارنة » التى يرجع تاريخ أقدمها إلى ما بعد سنة ١٤٠٠ ق . م بقليل ، أى فى عهد يسبق بكثير أى أدب عبرانى وصل إليها .

وهذه الخطابات المسمارية تكشف لنا عن وجود جماعات من العبرانيين الرحل كانوا ينتزحون إلى فلسطين التى كانت وقتئذ تحت سيطرة مصر ، حيث كانوا يدخلون هناك فى سلك الحدود المرتزقة . ولا نعرف من شأنهم بعد ذلك شيئا مدة قرنين من الزمان إلى أن كان وقت ذلك الأثر المصرى الذى أقامه فى طيبة ( الأقصر ) « مرستاح » ( منفتاح ) بن رعمسيس الثانى قبل سنة ١٢٠٠ ق . م . بنحو عشر سنين أو عشرين سنة . فقد حفظت لنا فيه أنشودة نصر نجد فيها ذلك الملك يفتخر بقوله : « وإسرائيل قد دمرت وبذرتها بحيث . . .

وقد كان ذلك الحادث فى « عهد القضاة » وقت أن كانت الحياة العبرانية القومية لا تزال خامنة لا تكاد تعرف شيئا من الحكم المركزى أو النظام القومى ، فقد كان العبرانيون لا يزالون متأثرين كل التأثر بحياة القرون الطويلة

التي قصوها في الرعى وتلمس الكلاً على حدود الصحراء قبل أن يدحوا  
فلسطين ، فكانوا لا يرلون متمسكين بالعادة الساذجة المتبررة الشائعة بين  
قبائل الصحراء ، بل بعض التقاليد القريية من الوحشية التي تلامح الحياة  
القطرية مثل ذبحهم الولد المكر قربانا لآله القبيية .

واستمرت الحرب مشتعلة الأوار بين الفلسطينيين والعبرانيين فقتل  
الفلسطينيون شاول وبنيه ، وأسر العمالقة زوجتي داود ، وساقوا النساء  
والأطفال معهم ولم يقتنوا الرجال كما يفعل اليهود لما يتصرفون على أعدائهم ،  
فجاء داود وخلص الأسرى من الفلسطينيين . « وكان بعد موت شاول  
ورجوع داود من مصاربة العمالقة أن داود أقام في صقلع يومين وفي اليوم  
الثالث إذا برجل أتى من المحلة من عند شاول وثيابه ممزقة وعلى رأسه تراب ،  
فلما جاء إلى داود خمر إلى الأرض وسجد . فقال له داود : من أين أتيت ؟ فقال  
له : من محلة إسرائيل نحو . فقال له داود : كيف كان الأمر ؟ فقال : إن  
الشعب قد هرب من القتال وسقط أيضا كثيرون من الشعب وماتوا ومات  
شاول ويوناثان ابنه أيضا . فقال داود للغلام الذي أخبره : كيف عرفت أنه قد  
مات شاول ويوناثان ابنه ؟ فقال الغلام الذي أخبره : اتفق أني كنت في جبل  
جلعوع وإذا شاول يتوكأ على رمحه وإذا بالمركبات والفرسان يشدون وراءه ،  
فالتفت إلى ورائه فرأى ودعاني فقلت : هاأيدا . فقال لي : من أنت ؟ فقلت له :  
عماليقي أنا . فقال لي : قف عليّ واقتسى لأنه قد اعتراني الدوار لأن كل نفسي  
بعد قتي . فوقفت عليه وقتله لأنني علمت أنه لا يعيش بعد سقوطه ، وأخذت  
الإكليل الذي على رأسه والسوار الذي على دراعه وأتيت بهما إلى سيدي  
ههنا .

هذه رواية الإصحاح الأول من سفر صموئيل الثاني عن موت شاول ،  
وهي تناقض مع ما جاء في الإصحاح الحادي والثلاثين . . . واشتدت

الحرب على شاول فأصابه الرماة رجال القسي فانجرح جدا من الرماة ، فقال شاول لحامل سلاحه : استل سيفك واطعنى به لكلا يأتى هؤلاء الغلف ويطعنونى ويقبحونى . فلم يشأ حامل سلاحه لأنه خاف جدا ، فأخذ شاول السيف وسقط عليه ، ولما رأى حامل سلاحه أنه قد مات شاول سقط هو أيضا على سيفه ومات معه . فمات شاول وبوه الثلاثة وحامل سلاحه وجميع رجاله فى ذلك اليوم معا . ولما رأى رجال إسرائيل الذين فى عبر الوادى والذين فى عبر الأردن أن رجال إسرائيل قد هربوا وأن شاول وبنيه قد ماتوا . تركوا المدد وهربوا فأتى الفلسطينيون وسكنوها .

الرواية الأولى تقول إن علاما قتل شاول وحاء بالخبر إلى داود ، والرواية الثانية تقول إن شاول قد انتحر حشية أن يمثل به . وهذا التضارب يؤكد أن التوراة التى كتبت فى المنفى قد كتبها أكثر من واحد فتضاربت أقوالهم وإن هملوا جميعا من الأدب البابلي والأدب المصرى القديم وسلبوا لغة الكنعانيين وأساطير الشعوب .

وأمر داود بضرب عرق العماليقى لأنه قتل مسيح الرب .  
ورثا داود بهذه المراثاة شاول ويوناثان ابنه ، وقال إن يتعلم بنو يهوذا نشيد القدس . هو ذا مكتوب فى سفر ياشر :

الظلمى يا إسرائيل مقتول على شواعحك ، كيف سقط الحبايرة ؟ لا تخبروا فى جت . لا تبشروا فى أسواق أشقلون لكلا تفرح بنات الفلسطينين ، لكلا تشمت بنات الغلف .

ويعود الذين كتبوا التوراة يذكرون سفر ياشر وإن لم يظهر ذلك السفر بين أسفار التوراة : « وكان بعد ذلك أن داود سأل الرب قائلا : أأصعد إلى إحدى مدائن يهوذا ؟ فقال له الرب : اصعد . فقال داود : إلى أين أأصعد ؟ فقال إلى حبرون . فصعد داود إلى هناك وامراتاه أحيسوعم البررعيبية وأبيجايل امرأة

نابال الكرملى . وأصعد داود رجاله الذين معه كل واحد وبيته وسكنوا في مدن  
حبرون . وأتى رجال يهوذا ومسحوا هاشك داود ملكا على بيت يهوذا .  
كان داود من نسل يهوذا وكان أول ملك في بيت يهوذا ، ولما كانت جنة  
اليهود أرضية فالملك عندهم أفضل من النبوة ، فراح اليهود يؤكدون صفة  
الملك لداود أكثر من تأكيدهم لنبوته . وقد بدأ بتولية داود انقسام دولة بني  
إسرائيل إلى دولتين ، دولة إسرائيل ودولة اليهودية .

أصبح داود ملكا على اليهودية ، « وأما أنير بن نير رئيس جيش شاول  
فأخذ ايشبوشث بن شاول وعبر به إلى مخنايم وجعله ملكا على جلعاد وعلى  
الأشوريين وعلى يزرعيل وعلى أفرام وعلى بنيامين وعلى كل إسرائيل » .  
ونشب قتال بين عبيد أنير وعبيد داود هُزم فيه أنير ورجال إسرائيل شر  
هزيمة ، وكانت الحرب طويلة بين بيت شاول وبيت داود وكان داود يذهب  
يتقوى وبيت شاول يذهب يضعف . وولد لداود بنون في حبرون وكان بكره  
أمنون من أختينوعيم البزرعيلية ، وثانيه كبلاب من أيجليل امرأة نابال  
الكرملى ، والثالث أشالوم بن معكة بنت تلماي ملك حبشور ، والرابع أدونيا  
ابن حجيث ، والخامس شفتليا ابن أبطال ، والسادس بترعام من عجلة امرأة  
داود . هؤلاء ولدوا لداود في حبرون » .

ولم يغضب المستشرقون الذين دأبوا على مهاجمة نبي الإسلام — صوات  
الله وسلامه عليه — لأنه تزوج أكثر من واحدة ، فزواج داود لست روجات  
حتى الآن في حبرون لا يثير تساؤلا ولا دهشة ، أما زواج محمد عليه الصلاة  
والسلام من أمهات المسلمين صلة للرحم وضئنا بين على المهانة فأمر يستحق  
أن يشرع المستشرقون والحاقدون أسنة أقلامهم لقطعته وتجريحه واقتراءاتهم  
للنيل من نبي الرحمة ، ولكن ماذا تستطيع أن تفعل ذرات من الرماد في منع  
الطهر .

( غزوة تبوك )

وإن تعجب فاعجب لزعمهم أن داود أتى أن يتم صلح يبه وبين أبتر قبل أن يأتيه أبتر بميكال بنت شاول وهو يعلم أنها زوجة رجل آخر : « فأرسل أبتر من فوره رسلا إلى داود قائلا : لمن هي الأرض ، يقولون أقطع عهدك معي وهو ذا يدي معك لرد جميع إسرائيل إليك . فقال حسبا . أنا أقطع معك عهدا إلا أني أطلب منك أمرا واحدا وهو ألا تترى وجهي ما لم تأت أولا بميكال بنت شاول حين تأتي لترى وجهي . وأرسل داود رسلا إلى ايشبوش بن شاول يقول : أعطني امرأتى ميكال التي خطبتها لفسى بمائة غلفة من الفلسطينيين . فأرسل ايشبوش وأحدها من عند رجتها من فسطييل بن لايش . وكان رجلا يسير معها ويكي وراءها إلى بحوريم . فقال له أبتر : اذهب ، ارجع . فرجع » .

تزوج رسول الله ﷺ — ريب بنت جحش بعد أن طلقها ريد لحكمة ظاهرة ، للقضاء على عادة جاهلية ظالمة ، لتأكيد معنى سام هو أن الناس سواسية لا فرق بين حر وعبد وشریف ووضيع ، وأن الناس جميعا لآدم لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى . فقام الحاقدون على الإسلام منذ ذلك الوقت ولم يفعلوا منذ ذلك الرواج ، أما ما رعمه الذين كتبوا التوراة من أن داود قد انتزع زوجة من أحضان زوجها فلم يحرك منهم ساكنا . وقد تعمّدوا أن نخوهم الذاكرة لما هاجموا رواج محمد — ﷺ — من بنت عمته زينب بنت جحش ، فلو أنهم تذكروا هذه الحادثة التي جاءت في كتابهم المقدس لحقت أفلانهم ولتفصّد منهم عرق الخجل لو كانوا يحجلون !

« وكان كلام أبتر إلى شيوخ إسرائيل قائلا : قد كنتم منذ أمس وما قبله تطلون داود ليكون ملكا عليكم ، فالآن افعلوا ، لأن الرب كلم داود قائلا : إني بيد داود عبدي أحلص شعبي إسرائيل من يد الفلسطينيين ومن أيدي جميع أعدائهم » .

إسرائيل شعب الله ، هكذا يزعم الذين كتبوا التوراة بأيديهم أما الشعوب الأخرى فأنتم كلاب الشرية ، والرب رب إسرائيل لا هو رب الناس ولا هو إله الناس ولا هو ملك يوم الدين ، فالذين كتبوا التوراة لا يؤمنون باليوم الآخر وهم يعبدون إله إسرائيل ليبتلي أيامهم في الأرض وينصرهم على أعدائهم ويسوق إليهم ثروة الشعوب ليملئوا خزائهم بالذهب والفضة .

وقتل أبير غلرا وهو يدعو لداود ، فماذا فعل نبي الله الذي بعثه الله ليعلم الناس مكارم الأخلاق ؟ زعم الذين كتبوا التوراة في بابل أن داود شق الثياب وأمر الناس أن يشقوا ثيابهم بل وأن يلطموا : « فقال داود ليوآب وللجميع الشعب الذي معه : مزقوا ثيابكم وتنطقوا بالمسوح والطموا أمام أبير . وكان داود الملك يمشى وراء النعش . ودفوا أبير في حبرون ورفع الملك صوته وبكى على قبر أبير وبكى جميع الشعب » .

وأصبح داود ملكا على إسرائيل كلها ودخل أورشليم ، وجعل الذين كتبوا التوراة بأيديهم إله إسرائيل قائد جيوشهم ورأس حططهم : « وسمع الفلسطينيون أنهم قد مسحوا داود ملكا على إسرائيل فصعد جميع الفلسطينيون ليفتشوا على داود ، ولما سمع داود نزل إلى الحصن . وجاء الفلسطينيون وانتشروا في وادي الرفائين . وسأل داود من الرب قائلا : أأصعد إلى الفلسطينيين . أتدفعهم ليدي ؟ . فقال الرب لداود : أصعد لأني دفعا أدفع الفلسطينيين ليدك . فجاء داود إلى بعل فراصم وضربهم داود هناك . وقال : قد اقتحم الرب أعدائي أمامي كاتقحام المياه ، لذلك دعى اسم ذلك الموضع بعل فراصم وتركوا هناك أصنامهم فزرها داود ورجاله .

ثم عاد الفلسطينيون فصعدوا أيضا وانتشروا في وادي الرفائين ، فسأل داود من الرب فقال : لا تصعد بل در من ورائهم وهلم عليهم مقابل أشجار التكا . وعندما تسمع صوت خطوات في رعوس البكا حيثشد احترس لأنه إذ ذاك يخرج الرب أمامك لضرب محلة الفلسطينيين . ففعل

داود كذلك كما أمره الرب وضرب الفلسطينيين من جبع إلى مدخل جازر .  
 إن قارئ التوراة يلمس أن الرب قد خلق الفلسطينيين لعداوته وليطش بهم  
 إكراما لشعبه إسرائيل ، سواء أحسن بنو إسرائيل إلى الله أو تسكوا الطريق ،  
 وسواء أكان الفلسطينيون على الهدى أو في ضلال مبين . إنه إله متحيز إلى  
 إسرائيل ، أو بمعنى أصح إنه إله في خدمة إسرائيل . وهذا تصور مريض للدين  
 كتبوا التوراة في المضي فقد بلغ بهم العرور أن سخروا الرب لخدمة مآربهم ،  
 وبلغ بهم السفه وسوء الأدب مع الرب أن جعلوا داود يقتاظ من بعض  
 تصرفات الرب بل ويشك في نواياه نحوه . ففى الإصحاح السادس من  
 صموئيل الثانى خرج داود وجميع الشعب ليحملوا تابوت الرب من بيت  
 أبناداب ... وكان عزة وأخيو ابنا أبناداب يسوقان العجلة الجديدة فأخذوها  
 من بيت أبناداب اللى فى الأكمة مع تابوت الله . وكان أخيو يسير أمام  
 التابوت وداود وكل بيت إسرائيل يلعبون أمام الرب بكل أنواع الآلات من  
 خشب السرو بالعيدان وبالرباب وبالدفوف وبالجنوك وبالصنوج ولما انتهوا  
 إلى بيدر ناحون مد عزة يده إلى تابوت الله وأمسكه لأن الثيران انشمصت .  
 فحمى غضب الرب على عزة وضربه الله هناك لأجل غفلة فمات هناك لدى  
 تابوت الله . فاعتاظ داود لأن الرب اقتحم عرة اقتحاما وسمى ذلك الموضع  
 فارص عزة إلى ذلك اليوم ، وخاف داود من الرب فى ذلك اليوم وقال : كيف  
 يأتى إلى تابوت الرب ؟ ولم يشأ داود أن ينقل تابوت الرب إليه فى مدينة داود ،  
 فمال به داود إلى بيت عويد أدوم الحنى . وبقي تابوت الرب فى بيت عويد  
 أدوم الحنى ثلاثة أشهر وبارك الرب عويد أدوم وكل بيته .

أكان داود فى شك من بركة تابوت الله ؟ أم أن داود كان يخشى عصب الله  
 عليه لما اغتاط من الرب لهلاك عرة ؟ إنه لم يطمش إلى بركة تابوت الله إلا بعد  
 أن أحر أن الركة حلت ببيت عويد : « فأحر الملك داود وقيل له : قد بارك

الرب بيت عويد أدوم وكل ماله بسبب تابوت الله . فذهب داود وأصعد تابوت الله من بيت عويد أدوم إلى مدينة داود بفرح . وكان كلما خطا حاملو تابوت الرب ست خطوات تذبح ثورا معلوفا . وكان داود يرقص بكل قوته أمام الرب . وكان داود منتظقا بأفود من كتان . فأصعد داود وجميع بيت إسرائيل تابوت الرب بالهتاف وبصوت البوق ، ولما دخل تابوت الرب مدينة داود أشرفت ميكال بنت شاول من الكوة ورأت الملك داود يطفر ويرقص أمام الرب فاحتقرته في قلبها . فأدخلوا تابوت الرب وأوقفوه في مكانه في وسط الخيمة التي نصبها له داود ، وأصعد داود محرقات أمام الرب وذبائح سلامة ، ولما انتهى داود من إصعاد المحرقات وذبائح السلامة بارك الشعب باسم رب الجنود . وقسم على جميع الشعب على كل جمهور إسرائيل رجالا ونساء ، على كل واحد رغيف خبز وكأس خمر وقرص زبيب ، ثم ذهب كل الشعب كل واحد إلى بيته ، ورجع داود ليبارك بيته .

فخرجت ميكال بنت شاول لاستقبال داود وقالت : ما كان أكرم ملك إسرائيل اليوم حيث تكشف اليوم في أعين إماء عبده كما يتكشف أحد السفهاء . فقال داود لميكال : إنما أمام الرب الذي اختارني دون أيك ودون كل بيته ليقمني رئيسا على شعب الرب إسرائيل . فلعبت أمام الرب وإلى أتصاغر دون ذلك وأكون وضيعا في عيني نفسي . وأما عند الإماء التي ذكرت فأتعجب ، ولم يكن لميكال بنت شاول ولد إلى يوم موتها .

جعل الذين كتبوا التوراة ميكال بنت شاول تحتقر داود لأنه رقص من الوجد أمام الرب ولم يجعلوها تحتقره لأنه انتزعها من أحضان زوجها ليتخذها زوجة ، ولا غرو فانتزع امرأة من زوجها لم يكن شيئا يثير الغضب في نفوس الذين كانوا يقدمون نساءهم شهوة للأكاسرة ليحلبوا رضاهم على بني إسرائيل .

واسمع ماذا يقول الذين كتبوا التوراة بأيديهم عن الرب ، لقد جعلوه يشتهى أن يسكن بيتا عوضا عن الخيمة التي كان يسكنها : » وكان لما سكن الملك في بيته وأراحه الرب من كل الجهات من جميع أعدائه ، أن الملك قال لثان النبي : انظر ، إني ساكن في بيت من أرز وتابوت الله ساكن داخل الشقق . فقال ثان للملك : اذهب افعل كل ما بقلبك لأن الرب معك . وفي تلك الليلة كان كلام الرب إلى ثان قائلا : اذهب وقل لعبدي داود هكذا قال الرب : آنت تبنى لي بيتا لسكنائى ، لأنى لم أسكن في بيت منذ يوم أصعدت بنى إسرائيل من مصر إلى هذا اليوم بل كنت أسير في خيمة وفي مسكن . في كل ما سرت مع جميع بنى إسرائيل هل تكلمت بكلمة إلى أحد قصاة إسرائيل الذين أمرتهم أن يرعوا شعبى إسرائيل قائلا : لماذا لم تبنوا لي بيتا من الأرز ؟ والآن فهكذا نقول لعبدي داود . هكذا قال رب الخنود أنا أخذتك من المربع من وراء الغنم لتكون رئيسا على شعبى إسرائيل ، وكنت معك حيثما توجهت وقرضت جميع أعدائك من أمامك وعملت لك اسما عظيما كاسم العظماء الذين في الأرض ... » .

لماذا حدث الرب النبي ثان ولم يحدث داود مباشرة وقد سبق أن استشاره داود في حرب الفلسطينيين فأشار عليه ووعدته بالصبر بل رسم له خطة الهجوم ؟ وهل يعقل أن الرب يذكر داود بما أكرمه به ليقنع داود ببناء بيت له من الأرز ؟ وهل الرب في حاجة إلى مسكن من الأرز أو الذهب ؟ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون (١) .

وحارب داود أعداءه حتى بلغ دمشق وأقام في اورشليم ، وأرسل يوتاب وعبده معه وجميع بنى إسرائيل لمحاربة بنى عمون » وكان في وقت المساء أن

داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم . وكانت المرأة جميلة المنتظر جدا . فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد : أليست هذه بثشبع بنت ألبعام امرأة أوريا الحثي ؟ فأرسل داود رسلا وأخذها ، فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمئها ، ثم رجعت إلى بيتها ، وحملت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت : إني حُبلى . فأرسل داود إلى يوباب يقول : أرسل إلى أوريا الحثي . فأرسل يوباب أوريا إلى داود . فأتى أوريا إليه فسأله داود عن سلامة يوباب وسلامة الشعب ونجاح الحرب . وقال داود لأوريا : انزل إلى بيتك واغسل رجلك . فخرج أوريا من بيت الملك وخرجت وراءه حصاة من عند الملك . ونام أوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده ولم ينزل إلى بيته ، فأخبروا داود قائلين لم ينزل أوريا إلى بيته . فقال داود لأوريا : أما جئت من السفر ! فلماذا لم تنزل إلى بيتك ؟ فقال أوريا لداود : إن الثابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام ، وسيدى يوباب وعبيد سيدى نازلون على وجه الصحراء ، وأنا أتى إلى بيتى لأأكل وأشرب واضطجع مع امرأتى ، وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر . فقال داود لأوريا : أقم هنا اليوم أيضا وغدا أطلقك . فأقام أوريا في أورشليم ذلك اليوم وغده ، ودعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكره وخرج عند المساء ليضطجع في مضجعه مع عبيد سيده وإلى بيته لم ينزل .

وفي الصباح كتب داود مكتوبا إلى يوباب ورسله بيد أوريا ، وكتب في المكتوب يقول : اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من وراءه فيصرب ويموت . وكان في محاصرة يوباب المدينة أنه جعل أوريا في الموضع الذى عدم أن رجال البأس فيه . فخرج رجال المدينة وحاربوا يوباب فسقط بعض الشعب من عبيد داود ومات أوريا الحثي أيضا . فأرسل يوباب وأخبر داود بجميع أمور الحرب . وأوصى الرسول قائلا : عندما تمرع من الكلام مع

الملك عن جميع أمور الحرب ، فإن اشتعل غضب الملك وقال لك لماذا دنوت من المدينة للقتال ؟ أما علمت أنهم يرمون من على السور ؟ من قتل أيمالك بن بريوشت ؟ ألم ترمه امرأة بقطعة رحي من على السور فمات في ناباص . لماذا دنوت من السور ؟ فقل : قد مات عبدك أوريا الحثي أيضا .

فذهب الرسول ودخل وأخبر داود بكل ما أرسله فيه يوآب ، وقال الرسول لداود : قد تجبر عليها القوم وخرجوا إلينا إلى الحقل فكنا عليهم إلى مدخل الباب . فرمى الرماة عبيدك من على السور فمات البعض من عبيد الملك ، ومات عبدك أوريا الحثي أيضا . فقال داود للرسول هكذا تقول ليوآب : لا يسوف عيني هذا الأمر ، لأن السيف يأكل هذا وذاك . شدد قتالك على المدينة وأخربها وشدده .

ولما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها نذبت بعلمها ، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابنا . وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب .

زعم الذين كان الدنس مداد أقلامهم أن داود عليه السلام قد زنى بامرأة قائد من قواده أثناء أن كان يجاهد في سبيل الله فحملت منه سفاحا ، ولم يكن بذلك بل أرسله في مقدمة الجيش ليقتل وقد قتل . ونسى هؤلاء المفترون أن الله كلم داود وأوحى إليه ، وأن ما نسبوه إلى الرجل لا يمكن أن يصدر عن رجل صالح لا عن رجل اصطفاه الله ، ومما يؤسف له أن بعض المؤرخين الإسلاميين قد قبلوا هذا الافتراء ورووا قصة داود كما جاءت في توراة المنفى ، مع أن الإمام علي بن أبي طالب كان يحذ الذي يروى هذه الرواية فيجلده ثمانين جلدة ، أربعين لافتراء الزنى وأربعين لأن الافتراء كان في حق نبي .

وقد أفتى داود فتوى في حق غي له تسع وتسعون نعجة ولرجل فقير نعجة واحدة ، وقد أخذ الغني نعجة الفقير ، فجعلوا تلك الفتوى تخدم قصتهم

المفترة : « فأرسل الرب ناثان إلى داود ، فجاء إليه وقال له : كان رجلان في مدينة واحدة واحد منهما غنى والآخر فقير ، وكان للغنى عنب وبقر كثيرة جدا ، وأما الفقير فلم يكن له شيء إلا نعجة واحدة صغيرة قد اقتناها ورباها وكبرت معه ومع بنيه جميعا . تأكل من لقمته وتشرب من كأسه وتنام في حضنه وكانت له كابة ، فجاء ضيف إلى الرجل الغنى فعفا أن يأخذ من غنمه ومن بقره ليبئى للضيف الذى جاء إليه ، فأخذ نعجة الرجل الفقير وهيا للرجل الذى جاء إليه فحمى غضب داود على الرجل جدا وقال لناثان : حى هو الرب : إنه يقتل الرجل الفاعل ذلك ورد النعجة أربعة أضعاف لأنه فعل هذا الأمر ولأنه لم يشفق .

فقال ناثان لداود : أنت هو الرجل . هكذا قال الرب إله إسرائيل ، أنا مسحك ملكا على إسرائيل وأنقذتك من يد شاول وأعطيتك بيت سيدك وساء سيدك فى حصنك وأعطيتك بيت إسرائيل ويهوذا . وإن كان ذلك قليلا كنت أريد كذا وكذا ، لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر فى عينيه ؟ قد قتلت أوريا الحثى بالسيف وأخذت امرأته لك امرأة ، وإياه قتلت بسيف بنى عمون . والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد لأنك احتقرتنى وأخذت امرأة أوريا الحثى لتكون لك امرأة . هكذا قال الرب : ها أنذا أقيم عليك الشر من بيتك وأخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهم لقريبك فيضطجع مع نساءك فى عين هذه الشمس لأنك أنت فعلت بالسر وأنا أفعل هذا الأمر قدام جميع إسرائيل وقدام الشمس ... » .

لندع ما أفتى به داود ، أو معنى أصح ما وصفه الذين كتبوا التوراة بأيديهم على لسان داود ، فهى فتوى ملؤها الغضب والثورة ، فهل من يسرق نعجة من جاره يقتل ؟ وفى أى شرع هذا ؟ إن أمر هذه الفتوى هين ولكم الأمر الذى يفزع البشرية جمعاء أن الرب يقابل العاشة بالفاحشة ، بل إنه يفوق الشر

في التردى في حماة الرذيلة . إنه ينهم داود — على زعم الذين كتبوا التوراة — أنه ارتكب خطيئته سرا ولكن الرب ينذر داود بأنه سيأخذ نساءه أمام عينيه ويدفعهن إلى قريبه ليرى بهن على أعين الناس في عيب الشمس . أى جهارا نهارا ، ولم يذكر لنا الذين كتبوا التوراة ما إذا كان سيفعله قريب داود في نساء داود بأمر الرب وتدبيره سيعتبر زنى أو سيكتب له في الدنيا حسنات ، فيمد الله في عمره ويمد خزائنه بالذهب ؟!

إن القرآن الكريم قد رد للرسول والأنبياء كراماتهم التي دنسها كتاب التوراة في المنفى عن قصد أو متأثرين بالرذيلة التي كانوا يتمرغون فيها ، فدارس التوراة يخيل إليه أحيانا أن الذين كتبوا التوراة في المنفى كانوا متأثرين بالحياة الماجنة التي كانوا يجيئونها في بابل ، وأحيانا أنهم كانوا يبذلون الجهود لينفوا النبوة عن داود وسليمان ويؤكدوا لها الملك ، فالملك كان حلم المشردين في بابل ، أما النبوة فقد كانت متشرة فيهم على حسب ما يزعمون . وقد مجد القرآن الكريم داود عليه السلام بما هو أهله ، فلا يعقل أن رجلا يصطفيه ربه ويوحى إليه بفعل مثل تلك الأفعال التي اشتهرها كتاب التوراة : « اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب . إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق . والطير محشورة كل له أواب . وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب . وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب . إذ دخلوا على داود ففرع منهم قالوا لا تخف خصمان بماي بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط . إن هذا أخى له تسع وتسعون معجزة ولى نعمة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى في الخطاب . قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظر داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب . فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن

مآب . يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب »<sup>(١)</sup> .

« ... ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبوراً »<sup>(٢)</sup> .  
« ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوفى معه والطير وألنا له الحديد . أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير »<sup>(٣)</sup> .  
وجعل الذين كتبوا التوراة بأيديهم داود يصوم للرب ليحقق له أمنية فإذا لم تتحقق يفتطر ، فلما مرض الذي ولدته امرأة أوريا لداود نذر الله صوما :  
« فسأل داود الله من أجل الصبي وصام داود صوما ودخل وبات مضطجعا على الأرض . فقام شيوخ بيته عليه ليقيموه عن الأرض فلم يشأ ولم يأكل معهم خبزا . وكان في اليوم السابع أن الولد مات . فخاف عبيد داود أن يخبروه بأن الولد قد مات لأنهم قالوا : هو ذا لما كان الولد حيا كلمناه فلم يسمع لصوتنا ، فكيف نقول له قد مات ، ورأى داود عبيده يتناجون فقطن داود أن الولد قد مات ، فقال داود لعبيده : هل مات الولد ؟ فقالوا مات . فقام داود عن الأرض واغتسل وادهن وبدل ثيابه ودخل بيت الرب وسجد ، ثم جاء إلى بيته وطلب فوضعوا له خبزا فأكل ، فقال له عبيده : ما هذا الأمر الذي فعلت ؟ لما كان الولد حيا صمت وبكيت ، ولما مات الولد قمت وأكلت خبزا ... » .

ترى ماذا كان رد داود ؟ أقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ؟ أحمد الله الذي لا يحمد على مكروه سواه ، إنه قال — على حسب رعم الذين كتبوا التوراة —  
« لما كان الولد حيا صمت وبكيت لأنني قلت : من يعلم ؟ ربما يرحمني الرب

(٢) الإمرأ ٥٥ .

(١) ص ١٧ — ٢٦ .

(٣) سبأ ١٠ ، ١١ .

ويحيا الولد . والآن قد مات فلماذا أصوم ؟ هل أقدر أن أردّه بعد . أنا ذاهب إليه وأما هو فلا يرجع إلى .

أيمكن أن يتصور عقل أن داود صام وبكى من أجل ابه الذى كان ثمرة الزنى ؟ إن كل ما جاء عن داود فى التوراة من خيال عقول مريضة لا تفرق بين النبوة والملك وإن كانت تفضل الملك على النبوة ، ولا تميز بين الحلال والحرام ولا تعرف حقيقة الرسالة وعصمة الأنبياء .

إن الرافى يرجع فى شريعة موسى ، وقد قام جدل حول ذلك بين محمد — صلى الله عليه وسلم وبين يهود المدينة انتهى بأن اعترف أحبار اليهود برجم الرافى ، فما بال الذين كتبوا التوراة بأيديهم ووصموا الأنبياء بكل نقیصة مروا على ما زعموه من زنى داود ببتشبع امرأة أوریا مرور العاشين بكل القيم الأخلاقية ؟ فما استكروا الفعلة ولا حتى أشاروا إلى توبته وأنه ظل يبكى ندما حتى نبت الزرع من دمعه كما زعم بعض المؤرخين الإسلاميين الذين اعترفوا من التوراة دون حرص .

« وعزى داود ببتشبع امرأته ودخل إليها واضطجع معها ، فولدت ابنا فدعاه سليمان والرب أحبه ... » .

إن الرب أوحى إلى داود فأبى الذين كتبوا التوراة فى بابل إلا أن يجعلوه ملكا ينتزع الزوجات من أزواجهن ، وأحب الرب بيت داود وأحب سليمان فكيف جعل الذين كتبوا التوراة أحياء الله يتصرفون ؟ إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى كانوا غارقين فى الذل والعار ، وكان أشراف فارس وبابل يتسرون بسائهم لا يعرفون حلالا من حرام ، فكانوا متأثرين بالبيئة التى وجدوا فيها لما كتبوا قصص الأنبياء ، فما ارتفع نبى من أنبيائهم عن الدنس الذى كانوا فيه يلعون ، وما هام نبى منهم فى عالم الطهر وقرع أبواب ملكوت الله لأن الذين كتبوا التوراة كانوا يخلصون فى الخطايا فهل ستظفر من فاقد الشيء أن يعطيه ؟

و جرى بعد ذلك أنه كان لأبشالوم بن داود أخت جميلة اسمها ثامار ، فأحبها أمون بن داود ، وأحصر أمون للسقم من أجل ثامار أخته لأنها كانت عذراء ، وعسر في عيبى أمون أن يفعل لها شيئا . وكان لأمون صاحب اسمه يوناداب بن مشمعي أخى داود . وكان يوناداب رجلا حكيما جدا ، فقال له : لماذا يا بن الملك أنت ضعيف هكذا من صباح إلى صباح ؟ أما تخبرني ؟ فقال له أمون : إني أحب ثامار أخت أبشالوم أخى . فقال يوناداب : اضطجع على سريرك وتمارص ، وإذا جاء أبوك ليراك فقل له : دع ثامار أختي فتأتى وتطعمنى خبزا وتعمل أمامى الطعام لأرى فأكل من يدها .

واضطجع أمون وتمارض فجاء الملك ليراه ، فقال أمون للملك : دع ثامار أختي فتأتى وتصنع أمامى كحكيتين فأكل من يدها . فأرسل داود إلى ثامار قائلا : اذهبي إلى بيت أمون أهلك واعملى له طعاما .

فذهبت ثامار إلى بيت أمون أختها وهو مضطجع ، وأخذت العجيين وعجنت كعكا أمامه وخبزت الكعك وأخذت المقلاة وسكت أمامه فأبى أن يأكل . وقال أمون : أخرجوا كل إنسان عنى . فخرج كل إنسان عنه ، ثم قال أمون لثامار : إيتى بالطعام إلى الخدع ، فأكل من يدك ، فأخذت ثامار الكعك الذى عملته وأتت به أمون أخاها إلى الخدع وقدمت له ليأكل فأمسكها وقال لها : تعالى اضطجمى معى يا أختي ، فقالت له : لا يا أخى لا تذلى ، لأنه لا يفعل هكذا فى إسرائيل . لا تعمل هذه القباحة . أما أنا فأين أذهب بعارى ، وأما أنت فتكون كواحد من السفهاء فى إسرائيل . والآن كلم الملك فإنه لا يمنعى منك . فلم يشأ أن يسمع لصوتها بل تمكن منها وقهرها واضطجع معها .

أستغفر الله العظيم . إن قلمى ليضطرب فى يدي وأنا أكتب قصة ابن داود مع أخته بنت داود ، ولكن ما حيلتى وأنا أنقل عن كتاب مقدس يحترمه كل

اليهود وكل المسيحيين . أقول إن زواج الأخ من الأخت كان معروفا عند الفراعين ، وأن الذين كتبوا التوراة كانوا متأثرين بتلك العادة الفرعونية ؟ إنها كانت مقصورة على الملوك للحفاظ على الدم الملكي النبيل ، وما كانت سائدة بين سواد الشعب ، وكان الأخ يتزوج أخته ولا يفتصبها . وإن تعجب فاعجب لقول الذين كتبوا التوراة إن الرجل الذي وسوس لابن داود طريقة استدراج أخته إلى الخطيئة قد وصف بأنه كان رجلا حكيما جدا . أهذه إحدى حكمه يا كتاب التوراة في المنفى ؟ الحمد لله أننا لم نعرف عنه إلا حكمة واحدة .

وإن قول الأخت لأخيها : « والآن كلم الملك لأنه لا يمضى منك » . يثير سؤالا : أكان زواج الأخ من الأخت معترفا به في البلاط الملكي اليهودي أم أن ذلك الزعم من وهم الذين كتبوا التوراة في بابل وكانوا متأثرين بعادات المجوس التي تحيز زواج المحارم ؟ وفي رأي أن قصة ابن داود مع أخته بنت داود من وضع كتاب التوراة الذين كانوا يرون زواج الأخ من الأخت أمرا مشروعا في أرض السبي .

واغتصب الأخ أخته واستمرت الأخت ذلك الاغتصاب ، ثم أبغضها أمنون بغضة شديدة جدا حتى أن البعضة التي أبغضها إياها كانت أشد من المحبة التي أحبا إياها . وقال ها أمسون : قومي انطلقى . فقالت له : لأى سبب ؟ هذا الشر بطردك إياى هو أعظم من الآخر الذى عملته لى ، فلم يشأ أن يسمع لها . بل دعا غلامه الذى كان يخدمه وقال له : اطرد هذه عني حارجا وأقفل الباب وراءها . وكان عليها ثوب ملون لأن بنات الملك العذارى كن يلبسن جيئات مثل هذه . فأخرجها حادمه إلى الخارج وأقفل الباب وراءها . فجعلت ثامار رمادا على رأسها ومزقت الثوب الملون الذى عليها ووضعت يدها على رأسها وكانت تذهب صارحة ، فقال لها أبهاشالوم أخوها : هل كان

أمون أخوك معك ؟ فالآن يا أحتى اسكتى ... » .

وعدم الملك داود بما فعل ابنه بابتة فلم يحرك ساكنا ، وقتل أبشالوم أخاه أمون بما فعل بأخته . ففاح داود على أمون الذى يستحق أكثر من الرجم لو كان هناك ما هو أقسى من الرجم ، وهرب أبشالوم من وجه أبيه ، وكما هي عادة كتاب التوراة أغلقوا قلب داود عن رؤية الصواب وجعلوا امرأة ترشده إلى طريق الحق فعفا عن أبشالوم . وأراد أبشالوم أن يكون قاضيا لإسرائيل فوقف على باب الملك داود يفصل في قضايا بنى إسرائيل بالعدل فأحبه الشعب . ولما انقضت أربعون سنة طلب أبشالوم من أبيه الملك أن يذهب من أورشليم إلى حبرون لينقطع لعبادة الرب فقبل طلبه ، وما كان أبشالوم الذى صورته الذين كتبوا التوراة في المعنى لينقطع للعبادة فلا بد من أن يرتك حيانه ، فالمعقول المريضة التى كتبت التوراة لا تعرف الاستقامة : » وأرسل أبشالوم جواسيس في جميع أسباط إسرائيل قائلا إذا سمعتم البوق فقولوا : قد ملك أشالوم في حبرون . وانطلق مع أبشالوم مائتا رجل من أورشليم قد دعوا ودهوا بساطة ولم يكونوا يعلمون شيئا ... » .

وعلم داود بمؤامرة أبشالوم فصره وعيده وترك عشر نساء سرارى لحفظ القصر ، وحمل الشعب تابوت الرب وتركوا أورشليم ، ولكن داود أمر صادق الكاهن أن يعود بتابوت الرب إلى المدينة » وأما داود فصعد في مصعد جبل الزيتون . كان يصعد باكيا ورأسه مغطى ويمشى حافيا وجميع الشعب الذين معه غطى كل واحد رأسه وكانوا يصعدون وهم يبكون . » .

ونشبت الحرب بين داود وابنه أبشالوم ، فانتصر داود وقتل أبشالوم ، وجاء الخبر إلى داود : » فانزعج الملك وصعد إلى عليية الباب وكان يبكى ويقول هكذا وهو يتمشى : » يا أبى أبشالوم ! يا أبى يا أبى أبشالوم ! يا ليتنى مت عوضا عنك يا أبشالوم ، أبى أبى . » .

أيمكن أن تصدق أن داود قد جزع مثل ذلك الخزع لموت ابنه الذى شق عصا الطاعة وجعل قلوب إسرائيل شتى ؟ أين هذا الموقف الذى إن دل على شيء فإما يدل على عدم إيمان بقضاء الله وقدره من موقف محمد — ﷺ — لما مات ابنه إبراهيم ، كان لداود أبناء غير أبشالوم ولم يكن لمحمد — عليه صلوات الله وسلامه — من البنين غير إبراهيم . كان محمد عليه السلام واثقا من أن الأبناء وديعة يستردها صاحبها فى أى وقت يشاء ، وكانت العين تدمع ولا ينطق اللسان بما يعضب الرب . أما الذين كتبوا التوراة بأيديهم فقد كانت الدنيا هى الحياة ولا حياة بعدها فكان الموت فى أعينهم أبشع مما يمكن أن يصيب إنسانا ، فبالموت الذى لا بعث بعده تنقضى الآلام والآمال ، وعلى حسب فهمهم لهذه الحياة جعلوا داود يجزع جزعا لموت ابنه لا يليق بنبي بله يحكيم لا يوحى إليه يفهم حقيقة الوجود وكنه الحياة .

ومنذ عهد داود بدأ كتاب التوراة يفرقون بين إسرائيل واليهودية ، فقد انقسمت المملكة إلى مملكتين : مملكة إسرائيل وهى تاهض داود ، ومملكة يهوذا وهى تؤيد داود لأن داود كان أول ملك من نسل يهوذا .

وقد اضطربت قصة داود فى أيدي الذين كتبوا التوراة اضطرابا عميرا ، فبينما هو ينتزع النساء من أحصان أزواجهن ، وبينما هو يسطو على الأعراض ويكفى ابنه الذى كان ثمرة الزنى ، إذا به يهاجى الرب كما يهاجيه الصالحون الذين تكاد تنفطر أهدتهم رهبة من الله : « وكلم داود الرب بكلام هذا الشيد فى اليوم الذى أنقذه فيه الرب من أيدي كل أعدائه ومن يد شاول فقال : الرب صخرتى وحصى ومنقذى . إنه صخرتى به أحتسى . ترسى وقرن خلاصى . ملجئى ومناصى . مخلصى من الظلم تخلصنى ، أدعو الرب الحميد فأخلص من أعدائى ، لأن أمواج الموت اكتسفتى . سيول الهلاك أفرغتنى . جبال الهاوية أحاطت بى . شرك الموت أصابتى . فى ضيقى دعوت الرب وإلى إلهى

صرخت فسمع من هيكله صوتي وصراخى دخل أذنيه ، فارجت الأرض  
وارتعشت . أسس السماوات ارتعدت وارجت لأنه غضب . صعد دخان  
من أنفه ونار من فمه أكلت . جهر اشتعلت منه . طأطأ السماوات ونزل  
وضباب تحت رجله . ركب على كروب وطار ورنى على أجنحة  
الريح ... » .

حسم الذين كتبوا التوراة في بابل الإله ووصفوه لكأنما كانوا يصفون  
مردوخ أو نانا أو شماش أو أيا من آلهة البابليين ، الدخان يصعد من أنفه والكلام  
ينفذ إليه من أذنيه ، ويرل من السماء والضباب تحت قدميه ، ويركب متن  
الريح . وما قدروا الله حق قدره ، سبحانه وتعالى عما يصفون .

وإن أعجب ما في دعاء داود أن الذين افتروا عليه وجعلوه يفتصب بتشبع  
امرأة أوريا راحوا يرددون عبارات رضا الرب عليه وطهارة اليد وحفظ العهد  
وطاعة الله . وإنه لتناقض عجيب بين أقوال الذين كتبوا التوراة بأيديهم ،  
ولا غرو فما برأت توراتهم من التناقض وما عرفت الأخذ عن يتاييع طهر  
الرمالات وعصمة الأنبياء . وكيف يفترون من معين طاهر وهم يسبحون  
في بحور الرجس ويضربون في سبل الضلال ؟

قال داود في دعائه : ١ ... خلصنى لأنه سرى . يكافئنى الرب حسب  
برى . حسب طهارة يدى يرد على . لأنى حفظت طرق الرب ولم أعص  
إلهى . لأن جميع أحكامه أمامى وفرائضه لا أحيد عنها . وأكون كاملا لديه  
وأعظم من إثمى . فردد الله على كبرى وطهارتى أمام عينيه .

إن داود يقول إنه لم يعص إلهه وهو صادق ، ويقول إنه طاهر وهو  
صادق ، ويقول الذين كتبوا التوراة بأيديهم إنه اغتصب امرأة أوريا واغتصب  
امرأة أخرى قبلها ، وأنه سكنت على فعلة ابنه الشنعاء يوم اغتصب أخته وهم  
كاذبون ، فقد كانوا يصورون حياتهم التى يجيئونها في قصور الملوك في العراق

ويلصقونها ظلماً بأنبياء الله ليوهوا أنفسهم أنهم والأنبياء سواء ، وليخففوا عن اليهود الذين كانوا في المفى وطأة العار .

نالت توراة المفى من جميع الأنبياء بلا استثناء وجعلتهم يرتكبون حماقات يرتفع عنها المتقون من عباد الله . وجاء القرآن المجيد ليعيد إلى أنبياء الله كرامتهم وعصمتهم فقد اصطفاهم علام الغيوب لرسالاته ، وما كان القدير العليم ليصطفى من الناس رسلاً يشركون به ويعبدون معه آلهة أخرى أو رسلاً يفرقون في الحرام حتى الآذان . إن الله يقول في محكم كتابه : « يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » (١) . فلم يتبع داود عليه السلام الهوى ولكن الذين كتبوا التوراة بأيديهم ضلوا عن سبيل الله .

وبنى داود مذبحاً للرب وذبح القرابين ليرش الكهنة الدم إرضاء للرب ، وليحرقوا الذبائح لأن الرب تسره رائحة الشواء ، وهذا كله من زعم الذين كتبوا التوراة ، فداود عليه السلام يعلم أن الله لا يتال دماء الذبائح ولا لحومها ولكن يناله التقوى من عباده ، وليس من المعقول أن يكون الملك الأهناسي المجهول الاسم الذي أوصى ابنه « مريكارع » قبل عهد داود عليه السلام بأكثر من ألف عام أشد معرفة بالله من أنبياء بني إسرائيل إذ يقول له : « إن فصيلة الرجل المستقيم أكثر قبولاً من ثور الرجل الذي يرتكب الظلم » .

وتستمر أساطير الذين كتبوا التوراة في إفساد عقول البشر ، فانظروا كيف يحبون الدفء لداود عليه السلام لما شاح « وشاخ الملك داود ، تقدم في الأيام ، وكانوا يدثرونه بالثياب فلم يدفأ ، فقال له عبيده ليغتسوا سيدنا الملك

على فتاة عذراء فلتقف أمام الملك ولتكن له حاضنة ولتضطجع في حضنك فيدفاً سيدنا الملك . ففتشوا على فتاة جميلة في جميع تخوم إسرائيل فوجدوا أيشح الشومعة فجاءوا بها إلى الملك ، وكانت الفتاة جميلة جداً فكانت حاضنة الملك وكانت تخدمه ولكن الملك لم يعرفها .

هكذا كان استهلال الإصحاح الأول من سفر الملوك ، فالذين كتبوا التوراة يعز عليهم أن يموت داود وقلبه يهوى إلى الرفيق الأعلى ، بل يأبون إلا أن يموت في أحضان عذراء ، وحاول أدونيا بن داود أن يكون منكا على إسرائيل ويهوذا ، ولكن بتشيع تدخل على داود وتسجد له وتستطيع بمعاونة ناتان النبي أن تنصب سليمان ملكاً في عهد أبيه ، ولم تذكر التوراة سبباً معقولاً لتولية سليمان الملك ولم يكن أكبر أبناء داود ، ولكن القرآن الكريم يذكر أن سليمان أوتي من الحكمة ما يؤهله للحكم : « وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين . » (١) .

ونسى الدين كتبوا التوراة الآخرة ويوم الدين ، وتأثروا بالبابليين الذين يقولون إن الموتى يذهبون إلى الأرض التي لا رجعة منها ، فلما مات داود لم يقولوا إنه ذهب إلى ربه بل لم يقولوا إنه ذهب ليرقد في حضن أبيه إبراهيم كما يرقد الصالحون من بني إسرائيل واليهود ، بل قالوا : « ولما قربت أيام وفاة داود أوصى سليمان ابنه قائلاً : أنا ذاهب في طريق الأرض كلها ، فتشدد وكن رجلاً . احفظ شعائر الرب إلهك إذ تسير في طرقه وتحفظ فرائضه ووصاياهم وأحكامه وشهاداته كما هو مكتوب في شريعة موسى لكي تفلح في كل ما تفعل وحيثما توجهت ... » .

إن الناس يدعون ربهم خوفا وطمعا بيد أن الذين كتبوا التوراة في بابل يدعون ربهم — على لسان أنبيائهم — طمعا فحسب ، يطلبون منه أن يطعمهم ويكسوهم وأن يهزم أعداءهم وأن يشت ملكهم ، فإن فعل عبوده وإن لم يفعل بخلو بعبادته وأعرضوا عنه .

وقد طلب أدونيا من بشيع أن تتوسط له لدى سليمان ليزوجه أيشع الشوغية التي كانت تدعى أباه ، فلم يقبل سليمان الطلب وقتل أخاه . وإن زواج الابن من امرأة أبيه كان معروفا في الجاهلية وكان يطلق عليه زواج المقت وقد حرمه الإسلام . ويطش سليمان ييواب قائد جيش أبيه وهو متعلق بقرون المذبح في خيمة الرب .

٥ وصاهر سليمان فرعون ملك مصر وأخذ بنت فرعون وأتى بها إلى مدينة داود إلى أن أكمل بناء بيته وبيت الرب وسور أورشليم حواليا ، إلا أن الشعب كانوا يذبحون في المرتفعات ( عادة بابلية ) لأنه لم يبن بيت لاسم الرب إلى تلك الأيام . وأحب سليمان الرب سائرا في فرائض داود أبيه إلا أنه كان يذبح ويوقد في المرتفعات . وذهب الملك إلى جبعون ليذبح هناك ، لأنها هي المرتفعة العظمى . وأصعد سليمان ألف محرقة على ذلك المذبح ، في جبعون تراءى الرب لسليمان في حلم ليلا ، وقال الله : أسأل ماذا أعطيتك ، فقال سليمان إنك قد فعلت مع عبدك داود أبى رحمة عظيمة حسبا سار أمامك بأمانة وبر واستقامة قلب معك فحفظت له هذه الرحمة العظيمة وأعطيت ابنه يجلس على كرسيه كهذا اليوم ، والآن أيها الرب إلهي أنت ملكت عبدك مكان داود أبى وأنا قتي صغير لا أعلم الخروج والدخول ، وعبدك في وسط شعبك الذي اخترته شعب كثير لا يحصى ولا يعد من الكثرة ، فأعط عبدك قلبا فهيمًا لأحكم على شعبك وأمير بين الخير والشر لأنه من يقدر أن يحكم على شعبك العظيم هذا ؟ فحسن الكلام في عيني الرب لأن سليمان سأل هذا

الأمر ، فقال له الله من أجل أنك قد سألت هذا الأمر ولم تسأل لنفسك أياما كثيرة ولا سألت لنفسك غنى ولا سألت أنفس أعدائك بل سألت لنفسك تمييزا لتفهم الحكم ، هو ذا قد فعلت حسب كلامك ، هو ذا أعطيتك قلبا حكيما مميزا حتى إنه لم يكن مثلك قبلك ولا يقوم بعدك نظيرك ، وقد أعطيتك أيضا ما لم تسأله : غنى وكرامة حتى إنه لا يكون رجل مثلك في الملوك كل أيامك ، فإن سلكت في طريقي وحفظت فرائضي ووصاياي كما سلك داود أبوك فأني أطيل أيامك .

فاستيقظ سليمان وإذا هو حلم . وجاء إلى أورشليم ووقف أمام تابوت عهد الرب وأصعد محرقات وقرب ذبائح سلامة وعمل وليمة لكل عبده .  
 إن أمر الذين كتبوا التوراة بأيديهم يحمر أولى الأبواب ، فقد جعلوا الرب يقول لسليمان عن أبيه داود : « فإن سلكت في طريقي وحفظت فرائضي ووصاياي كما سلك داود أبوك فأني أطيل أيامك » . فهل اغتصاب زوجة قائده الذي زعموه يتفق مع قولهم إن داود سلك طريق الرب كما شهد الله بذلك ؟ إنهم اقتصروا على داود — عليه السلام — بغير حق وألصقوا به نقائص كانوا يقاسون منها في المنفى ليخرسوا صوت الضمير ، إن كانت لهم ضمائر تؤنبهم على ارتكاب الفواحش وعصيان الله .

ولم يعد الله سليمان بحنات عرضها السماوات والأرض بل اكتفى بأن وعده بإطالة أيامه على الأرض ، وهذا غاية مراد كنية التوراة من رب العباد .  
 وروى كتاب التوراة قصة المرأتين اللتين احتكمتا إلى سليمان في ولد تدعيه كل منهما لنفسها : « فقال الملك : هذه تقول هذا ابني الحى وابنتك الميت . وتلك تقول : لا بل ابلك الميت وابني الحى . فقال الملك : يتونى بسيف . فأتوا بسيف إلى بين يدي الملك . فقال الملك : اشطروا الولد الحى اثنتين وأعطوا نصفا للواحدة ونصفا للأخرى . فتكلمت المرأة التى أبها الحى

إلى الملك ، لأن أحشائها اضطربت على ابها وقالت : استمع يا سيدي . أعطوها الولد الحى ولا تميتوه ، وأما تلك فقالت : لا يكون لى ولا لك . اضطروه . فأجاب الملك وقال : أعطوها الولد الحى ولا تميتوه فإنها أمه ، ولما سمع جميع إسرائيل بالحكم الذى حكم به الملك خافوا الملك لأنهم رأوا حكمة الله فيه لإجراء الحكم .

كتاب التوراة فى المنفى قالوا إن الله حاطب سليمان فى الحلم وقالوا إن الله آتى سليمان الحكمة . ترى هل سينجو سليمان من حقدهم على الأنبياء جميعا ومن افتراءاتهم على الأنبياء جميعا دون تفريق ؟ سنقرأ معا ما كتبوه فى سفر الملوك الأول ، فسليمان عندهم ملك فحسب ، يفعل ما يفعله ملوك الساسانيين : « وكان سليمان متسلطا على جميع الممالك من النهر إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر . كانوا يقدمون الهدايا ويخدمون سليمان كل أيام حياته . وكان طعام سليمان لليوم الواحد ثلاثين كُرَّ سميد ، وستين كر دقيق ، وعشرين ثيران مسممة ، وعشرين ثورا من المراعى ، ومائة خروف ، وما عدا الأيائل والقطباء واليحامير والأوز المسمن . لأنه كان متسلطا على كل عبر النهر من نفسج إلى غزة على كل ملوك عبر النهر ، وكان له صلح مع جميع جواربه حوله ، وسكن يهوذا وإسرائيل آمنين كل واحد تحت كرمته وتحت تينته من دان إلى ثر سبع كل أيام سليمان ، وكان لسليمان أربعون ألف مزود لخليل مركبته ، واثنا عشر ألف فارس . وهؤلاء الوكلاء كانوا يمتارون للملك سليمان ولكل من تقدم إلى مائدة الملك سليمان كل واحد فى شهره ، لم يكونوا يحتاجون إلى شئ وكانوا يأتون بشعر وتبن للخليل والجياد إلى الموضع الذى يكون فيه كل واحد حسب قضائه .

وأعطى الله سليمان حكمة وفهما كثيرا جدا ورحبة قلب كالرمل الذى على شاطئ البحر ، وفاقت حكمة سليمان حكمة جميع بنى المشرق وكل

حكمة مصر وكان أحكم من جميع الناس ، من إيثان الأزرأحي وهيمان وكلكلول ودررع بنى ما حول ، وكان صيته في جميع الأمم حواله . وتكلم بثلاثة آلاف مثل وكانت بشائده ألفا وحمسا ، وتكلم عن الأشجار من الأرز الذى في لبنان إلى الزوفا النبات في الحائط ، وتكلم عن البهائم وعن الطير وعن الديب وعن السمك . وكانوا يأتون من جميع الشعوب لسمعوا حكمة سليمان من جميع ملوك الأرض الذين سمعوا بحكمته .

١ ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالوا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ، وورث سليمان داود وقال يأبها الناس علّمنا مطلق الطير وأوتينا من كل شىء إن هذا هو الفصل المبين . وحشر لسليمان جنوده من الحس والإنس والطير فهم يوزعون . حتى إذا أتوا على واد التمل قالت نملة يأبها التمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلى برحمتك فى عبادك الصالحين ١(١) .

إن الله قال لسليمان فى التوراة : إنه لا يكون رجل مثلك فى الملوك كل أيامك . وجاء فى القرآن الكريم : قال رب اغفرلى وهب لى ملكا لا ينبغي لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب . فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص . وآخرين مقرين فى الأصفاد . هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . وإن له عندنا لرلقى وحسن مآب ١(٢) .

إن ملك سليمان فى توراة المفسى من النهر إلى أرض فلسطين وإلى تحوم مصر ، وهى رقعة من الأرض ملكها كثير من الملوك قبل سليمان وبعده . بل

إن عمر بن الخطاب كان يحكم رقعة من الأرض أوسع من تلك الرقعة بكثير ، فإذا كانت الأرض هي المقصودة مملك سليمان فعبارة التوراة تصحح لا معنى لها ، أما القرآن فقد أوضح الملك الذى لا ينبغي لأحد بعد سليمان ، إنه تسخير الريح ومعرفة منطق الطير وتسخير الشياطين ، وهو ملك لا ينبغي لأحد حتى لو ملك العالم .

ويذكر كتاب التوراة في فخر طعام سليمان في اليوم ، أنه لا يقل فحامة عن طعام بختنصر أو أخشوريش وهذا هو بيت القصيد من ذكر ذلك الطعام ، فهم يحلمون مملك أكثر من حلمهم نبوة أو رسالة ، فالملك يوطد سلطانهم في الأرض وهى دنياهم وأغرائهم وجنتهم وجحيمهم ومحور آمالهم وآلامهم ، أما النبوة فتقتصر على النبؤ عما سيكون وإرشادهم إلى طريق الرب ، وهم ليسوا في حاجة إلى ذلك الرب ما دام سلطانهم في الأرض قويا .

كان إله إسرائيل يعيش في حيمة وكان يتحرق شوقا إلى أن يبنى له مسكن من خشب الأرز وأن يكون له قصر كقصور الأغنياء ، وقد بث داود هذه الرغبة ، فلما ملك سليمان بدأ في بناية بيت الرب : « وأرسل حيرام ملك صور عبيده إلى سليمان لأنه سمع أنهم مسحوه ملكا مكان أبيه ، لأن حيرام كان عبدا لداود كل الأيام فأرسل سليمان إلى حيرام يقول : أنت تعلم داود أبى أنه يستطيع أن يبنى بيتا لاسم الرب إلهه بسبب الحروب التى أحاطت به حتى جعلهم الرب تحت بطن قدميه ، والآن قد أراحنى الرب إلهى من كل الجهات فلا يوجد خصم ولا حادثة شر . وهأنذا قائم على بناء بيت لاسم الرب إلهى كما كلم الرب داود أبى قائلا : إن ابك الذى أجعله مكانك على كرسيك هو يبنى البيت لاسمى . والآن فأمر أن يقطعوا لى أرزا من لبنان ويكون عبيدى مع عبيدك وأجرة عبيدك أعطيك إياها حسب كل ما تقول ، لأنك تعلم أنه ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب من الصيغونيين .

فلما سمع حيرام كلام سليمان فرح جدا وقال : مبارك اليوم الرب الذى أعطى داود ابنا حكيما على هذا الشعب الكثير . وأرسل حيرام إلى سليمان قائلا : قد سمعت ما أرسلت به إالى أنا أفعل كل مسرتك فى خشب الأرز وخشب السرو . عبيدى ينزلون ذلك من لبنان إلى البحر وأنا أجعله أرماتا فى البحر إلى الموضع الذى تعرفنى عنه وأنفضه هناك وأنت تحمله ، وأن تعمل مرضاتى بإعطائك طعاما لبيتى ، فكان حيرام يعطى سليمان خشب أرز وخشب سرو حسب كل مسرته ، وأعطى سليمان حيرام عشرين ألف كره حنطة طعاما لبيته وعشرين كره زيت رضى . هكذا كان سليمان يعطى حيرام سنة فسنة والرب أعطى سليمان حكمة كما كلمه ، وكان صلح بين حيرام وسليمان وقطعا كلاهما عهدا .

وسخر الملك سليمان من جميع إسرائيل وكانت السخرة ثلاثين ألف رجل . فأرسلهم إلى لبنان عشرة آلاف فى الشهر بالبوبة . يكونون شهرا فى لبنان وشهرين فى بيوتهم . وكان أدونيرام على التسخير . وكان لسليمان سبعون ألفا يحملون وثمانون ألفا يقطعون فى الجبل . ما عدا رؤساء الوكلاء لسليمان الذين على العمل : ثلاثة آلاف وثلاثة مائة المتسلطين على الشعب العاملين العمل . وأمر الملك أن يقنعوا حجارة كبيرة ؛ حجارة كريمة لتأسيس البيت حجارة مربعة ، ففتحها بناؤو سليمان وبناؤو حيرام والحلبيون وهياؤا الأخشاب والحجارة لبناء البيت .

يقول كتاب التوراة إن سليمان سخر ثلاثين ألف رجل لبناء هيكل الرب ، والأقرب إلى المطلق — إن كان شعب إسرائيل شعبا متدينا — أن يتطوع المؤمنون لبناء بيت الله التماسا لنشواب . وإن قدماء المصريين قد بنوا الأهرام لتكون مثوى للآلهة الفراعين ، وفى رأى أنهم كانوا يتهللون بالفرح لاشتراكهم فى بناء مقابر الآلهة . إن فكرة السخرة فى بناء بيوت الآلهة فكرة

حاططة ، فالناس يتطوعون لهذا العمل طمعا في رضا الرب . ولكن لما كانت فكرة المثوبة قد التوت في أذهان كتاب التوراة بعد أن نسوا ثواب الآخرة ، فإن أى عمل في بناء بيت الرب لا يمكن من وجهة نظرهم إلا أن يكون مسخرة ، ما دام الأجر الذى يناله العامل في دنياه هو الأكل والشرب والمأوى ؛ جزاء الإيعام .

ووصف كتاب التوراة أبعاد الهيكل ثم قالوا : « وكان كلام الرب إلى سليمان قائلا : هذا البيت الذى أنت بانيه إن سلكت في فرائضى وعملت أحكامى وحفظت كل وصاياى للسلوك بها فإنى أقيم معك كلامى الذى تكلمت به إلى داود أيلك ، وأسكن في وسط بنى إسرائيل ولا أترك شعبى إسرائيل » .

ما هو مدلول هذا الكلام ؟ هل اصطفاه ربه أو وضعه تحت الاختبار ؟ وهل يمكن أن يكون وحى الله لغير الأنبياء ؟ إن الذين كتبوا التوراة في المنفى جعلوا الله يحدث الناس حديث بعضهم إلى بعض . إنهم جعلوا داود ملكا يرتكب المعاصى ولا يقام عليه الحد ثم جعلوا الله يحدثه في ود كأنما قد رضى الله عن معاصيه المفتراة . أقوال متضاربة لا يمكن أن تستقيم مع مكارم الأخلاق ، بله النبوة وعصمة الأنبياء .

ووصف كتاب التوراة الهيكل وصفا دقيقا ، والذى يوقف النظر في ذلك الوصف أن صحن الهيكل « كان قائما على اثني عشر نورا : ثلاثة متوجهة إلى الشمال وثلاثة متوجهة إلى الغرب وثلاثة متوجهة إلى الجنوب وثلاثة متوجهة إلى الشرق » . فما صلة اليهود بالثيران ؟ إن الذين كتبوا التوراة في المنفى كانوا متأثرين بالعحول المجنحة التى كانت تزين مدن آشور ، وقد وصفوا الهيكل بعد أن أشعل بختنصر فيه النيران فاحتلظ عليهم الأمر ، فوصفوا هيكلهم من هياكل الآشوريين أو البابليين وهم يحسون أنهم يصفون هيكل سليمان . فمن

غير المقبول أن يقيم سليمان بحر هيكله على اثني عشر ثورا إلا إذا كان بنو إسرائيل ظلوا يعبدون المحل حتى بعد أن غادروا أرض الفراعين .

وفي وصف الهيكل نجد كتاب التوراة يذكر في زهو ما في بيت الرب من ذهب ، فالذهب معبود اليهود الحق في كل عصر . وإن ادّعوا أن ربهم يهوه أو أي رب آخر يسهر على مصالحهم ثمنا للحوام القرايين التي تحرق له لأن رائحة الشواء تسره أو ثمنا للدماء التي يتعطش لها على الدوام : « وعمل سليمان جميع آنية بيت الرب في المذبح من ذهب ، والمائدة التي عليها حبز الوجوه من ذهب ، والمائرت خمسا عن اليمين وخمسا عن اليسار أمام المحراب من ذهب خالص ، والأرهار والسرج والملاقط من ذهب ، والطسوس والمقاص والمناضح والصحون والمجامر من ذهب خالص » .

ويبدأ احتفال نقل تابوت العهد من صهيون مدينة داود إلى الهيكل : « حيث جمع سليمان شيوخ إسرائيل وكل رعوس الأسباط رؤساء الآباء من بني إسرائيل إلى الملك سليمان في أورشليم لإصعاد تابوت عهد الرب في مدينة داود وهي صهيون . فاجتمع إلى الملك سليمان جميع رجال إسرائيل في العيد في شهر أبتانيم ، هو الشهر السابع . وجاء جميع شيوخ إسرائيل وحمل الكهنة التابوت وأصعدوا تابوت الرب وحيمة الاجتماع مع جميع آنية القدس التي في الخيمة فأصعدوها الكهنة واللاويون . والملك سليمان وكل جماعة إسرائيل المحتتمعين إليه أمام التابوت كانوا يذبحون من العنم والقر ما لا يحصى ولا يعد من الكثرة ، وأدخل الكهنة تابوت عهد الرب إلى مكانه في محراب البيت في قدس الأقداس إلى تحت جناحي الكرويين ، لأن الكرويين بسطا أجنحتهما على موضع التابوت ، وظلل الكروبان التابوت وعصيه من فوق ، وحذبوا العصي فترأت رعوس العصي من القدس أمام المحراب ولم تر خارجا ، وهي هناك إلى هذا اليوم . لم يكن في التابوت إلا لوحا الحجر اللذان

وضعهما موسى هناك في حوريب حين عاهد الرب بنى إسرائيل عند خروجهم من أرض مصر ، وكان لما خرج الكهنة من القدس أن السحاب ملأ بيت الرب ولم يستطع الكهنة أن يقفوا لخدمة بسبب السحاب لأن مجد الرب ملأ بيت الرب .

حينئذ تكلم سليمان . قال الرب إنه يسكن في الصباب إلى قد بيت لك بيت سكنى مكانا لسكناك إلى الأبد .. ٤ .

هذا رعم الذين كتبوا التوراة ، سليمان الذى أوتى الحكمة لا يمكن أن يتصور أن الله يعيش في السحاب وأنه بعد أن بنى الهيكل أصبح للرب مسكن يأوى إليه ، فما قدروا الله حق قدره ، ومن هذا الرعم جاء اعتقاد اليهود أن من يعيش في القدس يعيش مع الله ، وأن الذى يبيت خارج بيت المقدس فهو بعيد عن الله . وهنا يثور سؤال : هل يحاسب الله الذين يعيشون في بيت المقدس وحدهم فإن أحسوا أحسن إليهم وإن أساءوا أساء إليهم أو يحاسب الناس كافة ؟ وإن كان يحاسب الناس جميعا فمن أين له العلم بأعمالهم ما دام يعيش في الهيكل ؟ كان الملك أمل الذين في المنفى فعملوا إليهم ملكا يعيش في قصر موسى بالذهب ، وقد أطلقوا على ذلك القصر الهيكل !

إن صورة سليمان في التوراة مادية بينا صورته في القرآن روحية وإن منحه الله ملكا لا ينفى لأحد بعده . لم تطفأ أبهة الملك وتسخير الرياح والشياطين له على نقاوة روحه ولم تطفئ نور الله الذى أشرق في قلبه .

ولما كان التصارب هو سمة الذين كتبوا التوراة فإنهم جعلوا سليمان في مساجاته لربه يقرر أن السماوات لا تسع الله فالحرى البيت الذى بناه ، وإنها مساجاة لا تتسق مع ما سبقها من القول بأن الرب يعيش في السحاب ، وأن سليمان قد بنى الهيكل ليكون مسكنا للرب إلى الأبد ، ولا تتسابق مع ما بعدها من أن سليمان بعد أن كلمه الله وبعد أن بنى لله بيتا قد مال إلى نساء

الأمم وزاغ قلبه عن الإيمان وعبد آلهة الأمم ، ولقرأ معادعاء سليمان : « ووقف  
سيمحام أمام مذبح الرب تجاه كل جماعة إسرائيل وبسط يديه إلى السماء  
وقال : أيها الرب إله إسرائيل ليس إله مثلك في السماء من فوق ولا على  
الأرض من أسفل حافظ العهد والرحمة لعبيدك السائرين أمامك بكل قلوبهم .  
الذى قد حفظت لعبدك داود أبى ما كلمته به فتكلمت بفمك وأكملت بيدك  
هكذا اليوم ، والآن أيها الرب إله إسرائيل احفظ لعبدك داود أبى ما كلمته به  
قائلا لا يعدم لك أمامى رجل يجلس على كرسى إسرائيل إن كان بنوك ، إنما  
يحفظون طرقهم حتى يسروا أمامى كما سرت أنت أمامى ، والآن يا إله  
إسرائيل فليتحقق كلامك الذى كلمت به عبداك داود أبى ، لأنه هل يسكن  
الله حقا على الأرض ؟ هو ذا السماوات وسما السماء لا تسعك فكم  
بالأقل هذا البيت الذى بنيت . فالتفت إلى صلاة عبداك وإلى تضرعه أيها الرب  
إلهى . واسمع الصراخ والصلاة التى يصليها عبداك أمامك اليوم . لتكون  
عينك مفتوحة على هذا البيت ليلا ونهارا على الموضع الذى قلت إن اسمى  
يكون فيه لتسمع الصلاة التى يصليها عبداك فى هذا الموضع ، واسمع تصرع  
عبداك وشعب إسرائيل الذين يصلون فى هذا الموضع ، واسمع أنت فى موضع  
سكنائك فى السماء وإذا سمعت فاغفر ، إذا أخطأ أحد إلى صاحبه ووضع عليه  
حنفا ليحلفه وجاء الحلف أمام مذبحك فى هذا البيت ، فاسمع أنت فى السماء  
واعمل واقض بين عبيدك إذ تحكم على المذنب فتجعل طريقة على رأسه ، وتبرر  
البار إذ تعطيه حسب بره . إذا انكسر شعبك إسرائيل أمام العدو لأنهم أخطأوا  
إليك ثم رجعوا إليك واعترفوا باسمك وصلوا وتضرعوا إليك نحو هذا البيت ،  
فاسمع أنت من السماء واعفر خطيئة شعبك إسرائيل وأرجعهم إلى الأرض التى  
أعطيتها لأبائهم » .

الذين كتبوا التوراة بأيديهم جعلوا داود ينتزع النساء من أحضان

أزواجهن ثم عادوا يقولون إن الرب قال لداود : لا يعدم لك أمامي رجل يجلس على كرسي إسرائيل إن كان بنوك ، إنما يحفظون طرفهم حتى يسيروا أمامي كما سرت أنت أمامي . فهل الزعم بان داود اعتدى على بتشيع زوجة أوربا وأنها حلت منه وهي في عصمة رجل آخر من دلائل السير في طريق الله ، أم أن السير في سبيل الله عند الذين كتبوا التوراة هو انتصار داود على أعدائه وذلك يغفر له كل خطاياہ المزعومة ؟ وهل ينتظر الرب أن يسير سليمان في نفس الطريق ليباركه ويبارك خطاياہ ؟ فما أقل الظهر في كل ما كتبه كتاب توراة المنفى .

كان شاغبهم الأكبر تأكيد وعد الله في كل صفحة من صفحات التوراة ، فجعلوا سليمان يتהל إلى ربه قائلا : إذا انكسر شعبك إسرائيل أمام العدو لأنهم أخطأوا إليك ثم رجعوا إليك واعترفوا باسمك وصلوا وتصرعوا إليك نحو هذا البيت ، فاسمع أنت من السماء واغفر خطية شعبك وأرجعهم إلى الأرض التي أعطيتها لأبائهم . فهل يعقل أن سليمان ناجى ربه ليرجع شعبا إلى أرض لم يخرجوا منها بعد ؟! إنهم خرجوا بعد عصر سليمان الزاهر ، وما خطر الخروج لهم على قلب وهم في أوج مجدهم ، ولكنهم عندما وضعوا التوراة وهم في المضي كانوا يتحرقون شوقا إلى العودة إلى فلسطين فوضعوا على ألسنة أسبائهم ابتهالات تفضح التزوير .

خلق الله الإنسان وهو أعلم بما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، لذلك يدعو الناس الله قياما وقيودا وعلى جنوبهم وفي كل مكان ، ولكن الذين كتبوا التوراة في المنفى قصرُوا دعاء التوبة على الهيكل : « إذا أعلقت السماء ولم يكن مطر لأنهم أخطأوا إليك ثم صلوا في هذا الموضع واعترفوا باسمك ورجعوا عن خطيتهم لأنك ضابقتهم ، فاسمع أنت من السماء واغفر خطية عبيدك وشعبك إسرائيل فتعلمهم الطريق الصالح الذي يسلكون

فيه ، وأعط مطرا على أرضك التي أعطيها لشعبك ميراثا . إذا صار في الأرض جوع إذا صار وباء إذا صار لفتح أو يرقاد أو جردا جردم ، أو إذا حاصره عدوه في أرض مدنه في كل ضربة وكل مرض . فكل صلاة وكل تضرع تكون من أى إنسان كان من كل شعبك إسرائيل الذين يعرفون كل واحد ضربة قلبه فيسقط يديه نحو هذا البيت ، فاسمع أنت من السماء مكان سكائك واغفر واعمل وأعط كل إنسان حسب كل طريقه كما تعرف قلبه ، لأنك أنت وحدك قد عرفت قلوب بني البشر لكي يخافوك كل الأيام التي يحيون فيها على وجه الأرض التي أعطيت لآبائنا .

إصرار من الذين كتبوا التوراة على أن السماء سكر الله وعلى أن الهيكل مكان الدعاء الوحيد الذي يستجيب الله فيه للداعين . ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم﴾ (١) .

ويستمر سليمان في الابتغال لربه على لسان الدين كتبوا التوراة ، فيقرر أن إسرائيل هم شعب الله وأن على الله أن يعفر لهم خطاياهم ما دام الله قد اصطفاهم لما كلم موسى عليه السلام : « إذا خرج شعبك لمحاربة عدوه في الطريق الذي ترسلهم فيه وصلوا إلى الرب نحو المدينة التي اخترتها والبيت الذي بنيته لاسمك ، فاسمع من السماء صلاتهم وتضرعهم واقض قضاءهم إذا أخطأوا إليك ، لأنه ليس إنسان لا يخطيء ، وغضبت عليهم ودفعتهم أمام العدو وسباهم سايهم إلى أرض العدو بعيدة أو قرية ، فإذا ردوا إلى قلوبهم في الأرض التي يسبون إليها ورجعوا وتضرعوا إليك في أرض سايهم قائلين قد

أخطأنا وعوّجنا وأذنبنا ، ورجعوا إليك من كل قلوبهم ومن كل أنفسهم في أرض أعدائهم الذين سبّوهم وصلّوا إليك نحو أرضهم التي أعطيت لآبائهم نحو المدينة التي أخطرت والبيت الذي بنيت لاسمك ، فاسمع في السماء مكان سكناك صلاتهم وتضرعهم واقض قضاءهم ، واغفر لشعبك ما أخطأوا به إليك وجميع ذنوبهم التي أدنّبوا بها إليك وأعطهم رحمة أمام الذين سبّوهم فیرحموهم ، لأنهم شعبك وميراثك الذين أخرجت من مصر من وسط كور الحديد ، لتكون عينك مفتوحة نحو تضرع عبدك وتضرع شعبك إسرائيل فتصغي إليهم في كل ما يدعونك ، لأنك أنت أفرزتهم لك ميراثا من جميع شعوب الأرض كما تكلمت عن يد موسى عبدك عند اخراجك آباءنا من مصر يا سيدي الرب .

أهذه ابتهالات سليمان أم ابتهالات الذين كانوا في المنفى ؟ من أين جاءت لسليمان فكرة سبّ الشعب الإسرائيلي ولم يكن السبّ قد وقع بعد ؟ وهل يحظر السبّ على قلب رجل دانت له الشعوب من حوله ؟ إنها أمانى الذين كتبوا التوراة في المنفى وضعوها على لسان سليمان ، إنها دعواتهم التي كانوا يتمنون أن يستجيب الله لها ، وإنها دعواهم العريضة بأنهم ميراث الله وأنهم شعب الله وأن أرض فلسطين قد منحها الله لهم مكافأة على شرورهم وعلى كفرهم وعلى آثامهم التي تندى لها جباه البشرية خجلا ، ولكنه الفرور قاتله الله .

كان سليمان يعلم أن الله رب العالمين وليس رب إسرائيل وحدهم ، وأن الناس كلهم من آدم وأن لا فرق بين بني إسرائيل وبين الأمم ، ولكن الذين عبدوا أنفسهم غرورا في المنفى راحوا يعيرون عن خفايا نفوسهم على ألسنة أنبياء الله . وقد تناولوا في الافتراء فوضّعوا على لسان رب العزة أقوالا لا تتسم بالعدل ولا بالمنطق ولا بمكارم الأخلاق ، سبحان الله عما يصفون وتعالى علوا

كبيراً .

وانتهت صلاة سليمان وتصرمت أيام الاحتفالات : « وكان لما أكمل سليمان بناء بيت الرب وبيت الملك وكل مرغوب سليمان الذى سر أن يعمل ، أن الرب تراءى لسليمان ثانية كما تراءى له فى جبعون وقال له الرب : قد سمعت صلاتك وتضرعت الذى تضرعت به أمامى . قدست هذا البيت الذى بنيت لأجل وضع اسمى فيه إلى الأبد وتكون عينائى وقلبى هناك كل الأيام ، وأنت إن سلكت أمامى كما سلك داود أبوك بسلامة قلب واستقامة حسب كل ما أوصيتك وحفظت فرائضى وأحكامى فإنى أقم كرسى ملكك على إسرائيل إلى الأبد كما كلمت داود أباك قائلاً : لا يعدم لك رجل عن كرسى إسرائيل » .

أين عقول الذين كتبوا التوراة ؟ يقولون على لسان الرب وهو يخاطب سليمان : وأنت إن سلكت أمامى كما سلك داود أبوك بسلامة قلب واستقامة . يقولون ذلك دون أن تضطرب الأقلام فى أيديهم بعد أن زعموا أن داود ارتكب معصية الزنا جهاراً نهاراً ، فهل ما زعموه من أنه اغتصب بتشيع يدل على سلامة القلب والاستقامة ؟ إن كانت عقول الذين كتبوا التوراة قد طاشت فأين عقول الذين قرأوا التوراة منذ زمن السبى إلى الآن ؟ هل أغلقوا عقولهم أم قبلوا تلك المزاعم على أنها شيء مقدس لا يناقش ؟ إن الأخلاق الفاضلة هى الأخلاق الفاضلة منذ فجر التاريخ حتى اليوم ، فلماذا يريد المتحمسون لتوراة المنفى أن نكيل الأخلاق الفاضلة بمكيالين وأن نقيسها بمقياسين ، مقياس البيئة فى أيام أنبياء بنى إسرائيل والعادات والتقاليد فى تلك الأزمنة ، ومقياس البيئة فى زماننا وما ورثناه من أخلاق فاضلة على مر العصور ؟

إن مستوى الأخلاق عند الفرعونى حتى قبل عصر أنبياء قدماء المصريين ( عزرة تبوك )

كان أرفع من ذلك المستوى الهابط الذى تنضح به توراة المنعى ، فالحقيقة التى لا تحتمل الجدل أن الذين كتبوا التوراة كانوا أدلاء فى بابل وكانوا يلغون فى الخطايا وكانت نساؤهم محطيات للملوك والأغبياء ، فأرادوا أن يعزوا أنفسهم فألصقوا التهم الدنيئة بآسياء بنى إسرائيل ليصبح الجميع فى الانحلال سواء .

« إن كنتم تنقلبون أنتم أو أبناؤكم من ورائى ولا تحفظون وصاياى فرائضى التى جعلتها أمامكم بل تذهبون وتعبدون آلهة أخرى وتسجدون لها ، فإنى أقطع إسرائيل عن وجه الأرض التى أعطيتهم إياها والبيت الذى قدسته لاسمى أنفيه من أمامى ويكون إسرائيل مثلاً وهرأة فى جميع الشعوب ، وهذا البيت يكون عبرة ، كل من يمر عليه يتعجب ويصفر ويقولون : لماذا عمل الرب هكذا لهذه الأرض ولهذا البيت ؟ فيقولون : من أجل أنهم تركوا الرب إلههم الذى أخرج آباءهم من أرض مصر وتمسكوا بآلهة أخرى وسجدوا لها وعبدوها ، لذلك جلب الرب عليهم كل هذا الشر » .

هذا وصف حال الذين حاربهم يختنصر وحملهم من فلسطين إلى العراق بعد عصر سليمان . وقد وضع الذين كتبوا التوراة ذلك الوصف الذى وقع فعلاً على لسان إلههم ليوهما بنى إسرائيل أن ذلك كان وعيد ربهم وليوحوا إليهم العودة إلى طريق الرب ، ليعود إليهم هيكلمهم الذى أهانه يختنصر ، وإن تلك العبارات إن أكدت شيئاً فإنها تؤكد أن الشعب الذى عبد نفسه غرورا قد عبد آلهة البابليين كما عبد آلهة المراعين من قبل ، وأنه شعب ليس معصوما وأنه سرعان ما يحمى عن طريق الله ، فلماذا لا تحمر وجوههم خجلاً لما يزعمون أنهم شعب الله المختار ؟ !

« وسمعت ملكة سبأ تجبر سليمان لحد الرب فأنت لتتحنه بمسائل . فأنت إلى أورشليم عوكب عظيم جداً بجمال حاملة أطيابا ودهبا كثيراً وحجارة كريمة ، وأنت إلى سليمان وكلمته بكل ما كان بقلها ، فأخبرها سليمان بكل

كلامها . لم يكن أمرا مخفيا عن الملك لم يخبرها به . فلما رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان والبيت الذى بناه وطعام مائدته ومجلس عبيده وموقف خدامه وملابسهم وسقائه ومحرقاته التى كان يصعدنها فى بيت الرب لم يبق فيها روح بعد . فقالت للملك : صحيحا كان الخير الذى سمعته فى أرضى عن أمورك وعن حكمتك ، ولم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عيالى ، فهو ذا النصف لم أخبر به . زدت حكمة وصلاحا على الخير الذى سمعته . طوبى لرجالك وطوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائما السامعين حكمتك . ليكن مبارك الرب إلهك الذى سر بك وجعلك على كرسي إسرائيل ، لأن الرب أحب إسرائيل إلى الأبد جعلك ملكا لتجزى حكما وبراً . وأعطت الملك مائة وعشرين وزنة ذهب وأطياها كثيرة جدا وحجارة كريمة ، لم يأت بعد ذلك مثل ذلك الطيب فى الكثرة الذى أعطته ملكة سبأ للملك سليمان ، وكذا سفن حيرام التى حملت ذهباً من أوفير أنت من أوفير بخشب الصندل كثيرا جدا وبحجارة كريمة ، فعمل سليمان حشب الصندل درابزيناً لبيت الرب وبيت الملك وأعوادا وربابا للمغنين ، لم يأت ولم يُر مثل حشب الصندل ذلك إلى هذا اليوم . وأعطى الملك سليمان لملكة سبأ كل مشتهاها الذى طلبت عدا ما أعطاها إياه حسب كرم الملك سليمان ، فاصرفت وذهبت إلى أرضها هى وعييدها .

هذه صورة للقاء بين سليمان وملكة سبأ فى التوراة ، وهو لقاء مادي بين ملك وملكة . إنها أخذت بطعام سليمان ومائدته وملابس جده ولم تر حكمة سليمان أو سلطانه وقد عرف مطلق الطير وأعطاها الله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده . أما لقاء سليمان وملكة سبأ فى القرآن فإنه لقاء مثير ، يبرز الحاجة الروحية ويؤكد سلطان سليمان وحكمته وتسحير الجن وقدرته من عده علم من الكتاب ، وكلها برهان مبين على أن ملك سليمان لا ينبغي لأحد من بعده

حتى لو حكم الدنيا بأسرها : هـ وتفقد الطير فقال ما لى لا أرى المدهد أم كان من الغائبين . لأعذبه عذابا شديدا أو لأذبحه أو لياتينى بسلطان مبين . فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتكم من سبأ نبأ يقين إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم . وجئتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم . قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت يا أيها الملأ إنى ألقي إلى كتاب كريم . إني من سليمان وإني بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتوى مسلمين . قالت يا أيها الملأ أفتوى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون . قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين . قالت إن المذوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإنى مرسله إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون . فلما جاء سليمان قال أئمنونى بما لى فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاعرون . قال يا أيها الملأ أليكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتوى مسلمين . قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلونى لأشكر أم أكفر فمن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غنى كريم . قال فكروا لها عرشها ننظر أئنتدى أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ؟ قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين . وصدها ما كانت تعد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين . قيل

لها ادخل الصرح فلما رأته حسبته لُجّة وكشفت عن ساقها قال إنه صرح مرد من قوارير قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين (١).

سليمان في القرآن نبي مرسل وفي التوراة ملك أوتي الحكمة وقد حدثه الله وباركه لأنه بنى في القدس هيكل الرب . وقد ناحى سليمان في الهيكل ربه مساجاة صادرة من قلب مؤمن ولكن الذين كتبوا التوراة في المنفى عز عليهم أن يستمر الرجل الذي أوتي الحكمة عبدا مؤمنا لربه حتى آخر أيامه بل جعلوه يكفر بالله ، ولم يشفع له عندهم أنه الذي بنى بيت الرب ، فهم قد عدوا آلهة الأمم في أرض بابل وأشركوا بالله فحق على الأنبياء جميعا أن يشركوا بالله مثلهم . إنهم كانوا يعكسون شرك أفتدتهم على ما كانوا يكتبون : « وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون وموابيات وعمونيات وأشوميات وصيدونيات وحيثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لسي إسرائيل : لا تدخلوا إليهم وهم لا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم . فالتصق سليمان بهؤلاء بالحبة وكانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلاثمائة من السراري . فأملت نساؤه قلبه وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ، ولم يكن قلبه كاملا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه . فذهب سليمان وراء عشتورت ( عشتار ) إلهة الصيدونيين وملكوم ربة العمونيين ، وعمل سليمان الشر في عيني الرب ولم يتبع الرب تماما كداود أبيه . حيثذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموابين على الجبل الذي تجاه أورشليم ولولك رجس بني عمون . وهكذا فعل لجميع نساءه الغريات اللواتي كن يوقدن ويدعن لآلهتهن . فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين وأوصاه في هذا الأمر أن

لا يتبع آلهة أخرى ، فلم يحفظ ما أوصى به الرب . فقال الرب لسليمان : من أجل أن ذلك عندك ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها فإني أمزق المملكة عنك تمزيقا وأعطيها لعبدك . إلا أنني لا أفعل ذلك في أيامك من أجل داود أهلك بل من يد ابك أمزقها . على أنني لا أمزق منك المملكة كلها بل أعطى سبطا واحدا لابنك لأجل داود عبدي ولأجل أورشليم التي اخترتها .

حتى سليمان الذي بنى هيكل الرب لم ينج من حقد الدين كتبوا التوراة في المنفى ، فقد زعموا أنه مال إلى آلهة سائه اللاتي تزوجهن من غير بني إسرائيل ، وإنه لقول عجيب . فهل يعقل أن يعبد سليمان عشتار إلهة اللذة والقسوة بعد أن خاطبه الرب مرتين حسب زعمهم ؟ وهل يعقل أنه بعد أن بنى لله بيتا أن يبنى بيوتا للأصنام في المرتفعات كما كان يفعل البابليون ؟ ولماذا لم يحاول سليمان أن يهدي أزواجه إلى عبادة إلهه وهو الذي ناجى ربه مناجاة حارة لا تصدر إلا عن قلب سليم ؟ وكيف يزعمون أن الرب قال لسليمان إنه لا يمزق مملكته جزاء على شركه به في أيامه إكراما لأبيه داود وهم الذين زعموا أن داود قد زنى بامرأة أوريا وامرأة أخرى قبلها ، فهل رب إسرائيل يرضى عن الزنى ويباركه ؟ لقد تضاربت أقوالهم ، قالوا مرة إن الله غضب على ما فعله داود وأنه قد رأى أن ينتقم من داود بأن يسمح للرجال بأن يزنوا في بيت داود في عين الشمس ، وحاشا لله أن يرضى عن أن تشيع الفاحشة بين الناس أو أن يجارى الفاحشة بالفاحشة . وقالوا مرات إن الله قد أخر عذابه إكراما لداود الذي عرف طريق الرب ، فهل اغتصاب نساء الآخرين هو السبيل إلى رضا الله ؟!

إن القرآن الكريم قد أخبر أن ملكة سبأ قد أسلمت مع سليمان لله رب

العالمين<sup>(١)</sup> ، وهو قول يتساق مع شخصية سليمان الذي أوحى الله إليه أن يبنى له بيتا ، فالمقدمات تتفق مع النتائج ، أما أن يكفر سليمان بعد أن يبني بيت الله فهو قول لا يسيغه عقل وهو اتهام الله سبحانه وتعالى بالجهل بالغيب . فكيف يصطفى الله رجلا يبني بيته وهو يعلم أن ذلك الرجل سينحرف عن طريقه إكراما لزوجاته وسراره الألف ١٩

إن محمدا — ﷺ — تروج مشركات ويهودية وبصرانية وقد هداها جميعا إلى الصراط المستقيم ، فكيف يميل قلب سليمان إلى آلهة نسائه بعد أن عرف قلبه النور ؟ وكيف يكفر سليمان بعد أن أوحى الله إليه ما أوحى : « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولان إنما نحن فتنة فلا تكفر ... »<sup>(٢)</sup> . « ووهبنا لداود سليمان ، نعم العبد إنه أواب »<sup>(٣)</sup> .

كُتبت التوراة في المنفى بعد عهد داود وسليمان ، فكان التلوين بعد أن وقعت الأحداث في إسرائيل وبعد أن حمل يختصر اليهود إلى العراق ، فأراد الذين كتبوا التوراة أن يكون لكل حدث تاريخي سبب ديني . فإذا كان ملك سليمان قد انتقل من بعده إلى آخرين فلا بد أن يكون سبب ذلك أن سليمان كفر بربه حتى أذهب الملك من بيته إلى أحد عبيده ، فرضا الرب لا يكون في إسرائيل إلا بالتمكين في الأرض ، ما دامت جنتهم أرضية .

« وأقام الرب خصما لسليمان هدد الأدمي ، كان من نسل الملك في أدوم . وحدث لما كان داود في أدوم عند صعود يوأب رئيس الجيش لدفن القتلى وضرب كل ذكر في أدوم — لأن يوأب وكل إسرائيل أقاموا هناك ستة

(١) جاء ذلك في سورة النمل ٤٤ .

(٢) سورة ص ٣٠ .

(٣) البقرة ١٠٢ .

أشهر حتى أفوا كل ذكر في أدوم — أن هدد هرب هو ورجال أدوميون من عبيد أبيه معه ليأتوا مصر وكان هدد غلاما صغيرا . وقاموا من مديان وأتوا إلى فاران وأخذوا معهم رجالا من فاران وأتوا إلى مصر إلى فرعون ملك مصر فأعطاه بيتا وعين له طعاما وأعطاه أرضا . فوجد هدد نعمة في عيني فرعون جدا وروجه أخت امرأته أخت نحفيس الملكة . فولدت له أخت نحفيس جنوب ابنه ، وفطمته نحفيس في وسط بيت فرعون . وكان جنوب في بيت فرعون بين بني فرعون . فسمع هدد في مصر بأن داود قد اضطجع مع آياله وبأن يوباب رئيس الجيش قد مات ، فقال هدد أطلقني فأنتقل إلى أرضي . فقال له فرعون : ماذا أعورك عندى حتى إنك تطلب الذهاب إلى أرضك ؟ فقال : لا شيء وإنما أطلقني .

وأقام الله له خصما آخر رزود بن اليداع الذى هرب من عند سيده هدد عزز ملك صوبة . فجمع إليه رجالا فصار رئيس غزاة عند قتل داود إياهم ، فانطلقوا إلى دمشق وأقاموا بها وملكوا في دمشق ، وكان خصما لإسرائيل كل أيام سليمان مع شر هدد ، فكره إسرائيل وملك على آرام .

ويرعام بن ناباط أفرامى من صرودة عبد لسليمان واسم أمه صروعة ، وهى امرأة أرملة رفع يده على الملك ، وهذا هو سبب رفعه يده على الملك : أن سليمان بنى القلعة وسد شقوق مدينة داود أبيه . وكان الرجل يربعام جبار بأس . فلما رأى سليمان الغلام أنه عامل شغلا أقامه على كل أعمال بيت يوسف ، وكان في ذلك الزمان لما خرج يربعام من أورشليم أنه لاقاه أخيا الشيلوفى السبى في الطريق وهو لابس رداء جديدا وهما وحدهما في الحقل ، فقبض أخيا على الرداء الجديد الذى عليه ومزقه اتنتى عشرة قطعة . وقال ليرعام خذ لنفسك عشر قطع لأنه هكذا قال الرب إله إسرائيل ، هاأنذا أفرق المملكة من يد سليمان وأعطيك عشرة أسباط ويكون له سبط واحد من أجل

عبدى داود ومن أجل أورشليم المدينة التى اخترتها من كل أسباط إسرائيل ، لأنهم تركوني وسجدوا لعشتورت إلهة الصيديين وليكموش إله الموائين ولملكوم إله بنى عمون ولم يسلکوا فى طرق ليعملوا المستقيم فى عینى وفرائضى وأحكامى كداود أبيه . ولا آخذ كل المملكة من يده بل أصيره رئيسا كل أيام حياته لأجل داود عبدى الذى اخترته الذى حفظ وصاياى وفرائضى . وآخذ المملكة من يد ابه وأعطيك إياها أى الأسباط العشرة وأعطى ابنه سبطا واحدا ليكون سراج لداود عبدى كل الأيام أمامى فى أورشليم المدينة التى اخترتها لنفسى لأضع اسمى فيها . وآخذك تملك حسب كل ما تشتهى نفسك وتكون ملكا على إسرائيل . فإذا سمعت لكل ما أوصيك به وسلكت فى طرق وفعلت ما هو مستقيم فى عینى وحفظت فرائضى ووصاياى كما فعل داود عبدى ، أكون معك وأبني لك بيتا آمنا كما بنيت لداود وأعطيك إسرائيل ، وأذل نسل داود من أجل هذا ولكن لا كل الأيام .

هل نسى الذين كتبوا التوراة فى المنفى ما زعموه من أن داود أغضب الرب واغتصب بتشبع روجة أوريا الحثي وأن الرب قد هدد داود بأن يؤذى فى أهل بيته فى عين الشمس ؟ وهل كان ما زعموه هو سبيل الله الذى لا يفتأ رب إسرائيل يذكره لداود كلما أراد أن يكافئ بيت داود على استقامة داود ، أم أن أكثر من كاتب كتب التوراة دون أن يطلع على ما كتبه غيره ؟!

أقوال لا تستقيم مع منطق الأحداث ولو صدرت عن قصاص لا تنقد على تحبظه وعلى عدم وضوح تصرف شخصوس روايته وتناقض تصرفاته .

ورعوموا أن سليمان كفر فهل يمكن أن يرتد إلى الوثنية ؟! إن الله — فى رعمهم — حدث سليمان مرتين فهل يعقل أن المرء يكفر بعد وحي الله ؟ وهل يعقل أن الله يحدث عبدا من عباده دون اصطفاء ؟!

إن مزاعم الذين كتبوا التوراة فى المنفى تطعن فى علم رب إسرائيل

بالغيب ، فلو كان يعلم الغيب لما اصطفى أناسا لساء بيته يرتدون عن دينه ويكفرون به ، ولما صب غضبه عليهم بعد إذ هداهم .

دونت أحداث هذا العصر في المضي بعد أن مات سليمان وبعد أن انتزع يربعام الملك من رحبعام بن سليمان وبعد أن وقعت وقائع ذلك الزمان ، فجعلوا أخيا النبي يتنبأ بكل ما وقع بعد أن صيغوه بأفكارهم الحاقدة وما قرأ في أذهانهم من كفر سليمان ، فلو لا ذلك الكفر الذي زعموه ما خرج الملك من بيته وما نزع رب إسرائيل من يد ذريته ، فالملك والملك وحده هو آية رضا الرب في عرف الدين كتبوا تورا المنفى .

« وطلب سليمان قتل يربعام فقام يربعام وهرب إلى مصر إلى شيشنق ملك مصر ، وكان في مصر إلى وفاة سليمان . وبقيت أمور سليمان وكل ما صنع وحكمته أما هي مكتوبة في سفر أمور سليمان » .

هل الحكمة تقود إلى عبادة عشتار وآلهة الوثنيين بعد أن يشرق في القلب نور الله ؟ إن كل ما أُلصقه كتبة التوراة بسليمان يعده عن الحكمة ، فمن أوتي الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا . وإن ما نسب إلى سليمان يجعله يحيد عن طريق الخير ويفرق في الشر حتى أدنيه ، فهل أخطأ كتبة التوراة لما نسبوا إليه الحكمة أو أخطأوا لما زعموا أنه كفر ؟ فالحكمة والكفران بعد إشراق أنوار اليقين في القلب لا يتفقان .

وذكر كتبة التوراة أن حكمة سليمان مكتوبة في سفر أمور سليمان ، ولا يوجد في التوراة سفر بهذا الاسم . فهل كانت التوراة تضم ذلك السفر ثم رفع منها ؟ وإذا كان قد رفع فما سبب رفعه ومن ذا الذي يملك عدم إثباته إن كان ما في التوراة من وحي الله ؟ !

وكل ما ذكره كتاب التوراة أن سليمان قد مات بعد أن حكم أربعين عاما : « وكانت الأيام التي ملك فيها سليمان في أورشليم على كل إسرائيل

أربعين سنة ، ثم اضطجع سليمان مع آبائه ودفن في مدينة داود أبيه وملك رحبعام ابنه عوضاً عنه . أما موت سليمان في القرآن فيختلف كل الاختلاف عن موته في التوراة واضطجاعه مع آبائه : « فلما قضينا عليه الموت مآدهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرت تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين » (١) .

ولترك سليمان عليه السلام في رحاب الله يترقب نزول القرآن الكريم ليرثه من افتراءات كتاب التوراة الذين كانت أفدتهم مفعمة بالحقد على الأنبياء جميعاً وكان مداد أقلامهم الصديد ، ولا غرو فقد كانوا أسرى في بابل فكانوا يرسفون في العبودية والعذاب المهين ، ولر ماذا كان مصير يربعام الذي وعد الله أن يعطيه عشرة أسباط من أسباط إسرائيل ؟ وهل نجنا من مرض قلوب كتاب التوراة ؟

« وذهب رحبعام إلى شكيم لأنه جاء إلى شكيم جميع إسرائيل ليملكوه ، ولما سمع يربعام بن ناط وهو في مصر — لأنه هرب من وجه سليمان الملك وأقام يربعام في مصر — وأرسلوا فدعوه . أتى يربعام وكل جماعة إسرائيل وكلموا رحبعام قائلين : إن أباك قسَى نيرنا وأما أنت فحفف الآن من عبودية أبيك القاسية ومن نيره الثقيل الذي جعله علينا فنخذملك . فقال لهم اذهبوا إلى ثلاثة أيام أيضاً ثم ارجعوا إلى . فذهب الشعب . فاستشار الملك رحبعام الشيوخ الذين كانوا يقفون أمام سليمان أبيه وهو حي قائلاً كيف تشيرون أن أرد جواباً إلى هذا الشعب ؟ فكلموه قائلين : إن صرت اليوم عبداً لهذا الشعب وخدمتهم وأجبتهم وكلمتهم كلاماً حسناً يكونون لك عبيداً كل الأيام ، فترك مشورة الشيوخ التي أشاروا بها عليه واستشار الأحداث الذين نشأوا معه ووقفوا أمامه ، وقال لهم : بماذا تشيرون أنتم فرد جواباً على هذا الشعب الذين كلموني

قائلين : خفف من النير الذى جعله علينا أبوك ؟ فكلّمه الأحداث الذين نشأوا معه قائلين : هكذا تقول لهذا الشعب الذين كدّموك قائلين إن آياك ثقل نيرنا وأما أنت فخفف من نيرنا . هكذا تقول لهم : إن خصصرى أعلظ من متنى أبى . والآن أبى حملكم نيرا ثقيلا وأنا أزيد على نيركم . أبى أدبكم بالسياط وأنا أؤدبكم بالعقارب .

فجاء يربعام وجميع الشعب إلى رحبعام فى اليوم الثالث كما تكلم الملك قائلا ارجعوا إلّى فى اليوم الثالث . فأجاب الملك الشعب بقساوة وترك مشورة الشيوخ التى أشاروا بها عليه . وكنهمهم حسب مشورة الأحداث قائلا : أبى ثقل نيركم وأنا أزيدكم على نيركم . أبى أدبكم بالسياط وأنا أؤدبكم بالعقارب . ولم يسمع الملك للشعب لأن السبب كان من قبل الرب ليقيم كلامه الذى تكلم به الرب عن يد أنبيا الشيلونى إلى يربعام بن نباط . فلما رأى كل إسرائيل أن الملك لم يسمع لهم رد الشعب جوابا على الملك قائلين : أى قسم لنا فى داود ولا نصيب لنا فى ابن يسى ؟ إلى خيامك يا إسرائيل . الآن انظر إلى بيتك يا داود . وذهب إسرائيل إلى خيامهم . وأما بنو إسرائيل الساكنون فى مدن يهوذا فملك عليهم رحبعام ، ثم أرسل الملك رحبعام أدورام الذى على التسخير فرحمه جميع إسرائيل بالحجارة فمات . فبادر الملك رحبعام وصعد إلى المركبة ليهرب إلى أورشليم . فعصى إسرائيل على بيت داود إلى هذا اليوم ولما سمع جميع إسرائيل بأن يربعام قد رجع أرسلوا فدعوه إلى الجماعة وملكوه على جميع إسرائيل ، ولم يتبع بيت داود إلا سبط يهوذا وحده .

انقسمت إسرائيل إلى مملكتين مملكة إسرائيل وعليها يربعام الذى اختاره الله حسب زعم كتيبة التوراة ، ومملكة يهوذا ، وكانت مملكة إسرائيل تضمر العداوة لبيت داود حتى عصر التدوير ، وقد كانت كراهية إسرائيل لبيت داود هى الباعث على الافتراءات التى ألصقها كتاب التوراة بـ داود وسليمان ،

فالدافع إلى تلوين داود وسليمان دافع سياسي ، وإن ذلك الانقسام الذى حدث فى إسرائيل هو آية الاضطراب الذى تنوج به تورا المنفى ، فالإسرائيل الذى كان يشترك فى كتابة التوراة فى بابل كان يتفث حقه على بيت داود ، يبا اليهودى يسك عواطف الحب على كتاباته ، فحادث شخصية داود مضطربة كل الاضطراب . ففى بعض الإصحاحات نجد داود زانيا يغتصب النساء من أحضان أرواجهن ، وفى إصحاحات أخر يحده رجل الرب الذى يحمده له الله أنه يسير فى طريق الرب والرشاد . وكان سليمان عجيبا غريبا فهو يسي الهيكل للرب إله إسرائيل ، ثم يرتد بعد أن أوحى إليه ليعيد الأوثان والأصنام ! صفات متضاربة لا يمكن أن تتصف بها نفس مطمئنة اتصلت بالله أو عرفت نور السماوات والأرض .

انقسمت إسرائيل إلى مملكتين وبدأت بينهما الحروب : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » : فسبط يهوذا حارب باقى الأسباط ليحكم لابن سليمان فى الأرض : « ولما جاء رحبعام إلى أورشليم جمع كل بيت يهوذا وسبط بنيامين مائة وثمانين ألف مختار محارب ليحاربوا بيت إسرائيل ويردوا المملكة لرحبعام ابن سليمان ، وكان كلام الله إلى شمعيا رجل الله قائلا : كلم رحبعام بن سليمان ملك يهوذا وبنيامين وبقية الشعب قائلا : هكذا قال الرب : لا تصعدوا ولا تحاربوا إخوتكم بنى إسرائيل ، ارجعوا كل واحد إلى بيته لأن من عدى هذا الأمر . فسمعوا لكلام الرب ورجعوا ليطلقوا حسب قول الرب » .

زعم الذين كتبوا التوراة أن الرب أمر اليهود بعدم محاربة إسرائيل لأنه اختار يربعام حكيم إسرائيل فما دام الله يعلم الغيب فلا شك فى أنه اختار الرجل الصالح الذى يعرف طريقه وسيقود إسرائيل إلى الصراط المستقيم . ولكن يربعام لم يحس من لعة كتبة التوراة ، جعلوه — بعد أن اختاره الله — يعبد

الأصنام ، وإن هذا الأمر ليحير قارئ التوراة فما يدري حكمة تكفير كل من اختاره الله ليحكم إسرائيل . أيريد هؤلاء الأخبار أن يؤكدوا أن رب إسرائيل لا يعلم الغيب ، أم يريدون أن يقولوا إياهم وقد عبدوا الأصنام في المضى وأنبياء بنى إسرائيل وأصفياء الله سواء بسواء !

١ وبني يربعام شكيم في جبل أفريم وسكن بها ، ثم خرج من هناك وبني قنوثيل . وقال يربعام في قلبه : الآن ترجع المملكة إلى بيت داود . إن صعد هذا الشعب ليقربوا ذبائح في بيت أورشليم يرجع قلب هذا الشعب إلى سيدهم إلى رجبعام ملك يهوذا ويقتلونى ويرجعوا إلى رجبعام ملك يهوذا . فاستشار الملك وعمل عجلى ذهب وقال لهم : كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم . هوذا أهلك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر . ووضع واحدا في بيت إيل وجعل الآخر في دان . وكان هذا الأمر خطية ، وكان الشعب يذهبون إلى أمام أحدهما حتى إلى دان . وبني بيت المرتفعات وصير كهنة من أطراف الشعب لم يكونوا من بني لاوى ، وعمل يربعام في الشهر الثامن في اليوم الخامس عشر من الشهر كالعيد الذى في يهوذا وأصعد على المذبح . هكذا فعل في بيت إيل بذبحه للعجلين اللذين عملهما ، وأوقف في بيت إيل كهنة المرتفعات التى عملها ، وأصعد على المذبح الذى عمل في بيت إيل في اليوم الخامس عشر من الشهر الثامن الذى ابتدعه من قبله فعمل عيداً لبني إسرائيل وصعد على المذبح ليوقد .

مسكين أنت يا يربعام ، فرق الرب ملك سليمان وأعطاك عشرة أسباط وترك لابن سليمان سبط يهوذا وسبط بنيامين . وقد أخبرك نبي الله بإرادة الرب ثم تخشى بعد ذلك أن يعود الملك إلى بيت داود فتكفر بالرب وتعبد الأصنام . هكذا أراد لك الذين كتبوا التوراة في المضى فقبولهم تحقّق بالحق على كل الناس ، لم ينج من مرض أفقتهم بنى أوحى إليه أو ملك اختاره الرب

وطعنوا إيمان كل الناس لأن إيمانهم تزعزع في قصور ملوك بابل وإيران ، واضطربت في أيديهم الموارد فبحسوا كل أعمال الصالحين . وعجزوا عن أن يدوروا حلاوة الإيمان ما دامت سرائرهم قد فاضت بالمرارة والحقد على أنبياء إسرائيل ورب إسرائيل الذين لم يجمعوا كارثة السبي .

لم تكن وحدك الذي تنكب طريق الله في التوراة ، لقد حاد عنه من سبقوك من أنبياء وملوك اختارهم الله لبنى إسرائيل ومسيحيد عنه أنبياء وملوك بعدك ، فالسلوك ليس سلوك الأنبياء والمنوك ولكنه مرض قلوب الدين كتبوا التوراة في أرض السبي .

ولر الآن ما هو مآل رجل الرب الذي جاء ليعف يربعام على شره وحرقت المحرقات لغير الله : « وإذا برجل الله قد أتى من يهوذا بكلام الرب إلى بيت إيل ويربعام واقف لدى المذبح لكي يوقد . فنادى نحو المذبح بكلام الرب وقال : يا مذبح يا مذبح هكذا قال الرب : هو ذا سيولد في بيت داود ابن اسمه يوشيا ويذبح عليك كهنة المرتفعات الذين يوقدون عليك وتحرق عليك عظام الناس . وأعطى في ذلك اليوم علامة قائلاً : هذه هي العلامة التي تكلم بها الرب ، هو ذا المذبح ينشق ويذرى الرماد الذي عليه . فلما سمع الملك كلام رجل الله الذي نادى نحو المذبح في بيت إيل مد يربعام يده عن المذبح قائلاً : أمسكوه . فبيست يده التي مدها نحوه ولم يستطع أن يردها إليه . وانتشق المذبح وذرى الرماد من على المذبح حسب العلامة التي أعطها رجل الله بكلام الرب . فأجاب الملك وقال لرجل الله : تضرع إلى وجه الرب إلهك وصل من أجل فتراجع يدي إلى . فتضرع رجل الله إلى وجه الرب فرجعت يد الملك إليه وكانت كما في الأول . ثم قال الملك لرجل الله : ادخل معي إلى البيت وتقوت فأعطيتك أجرة . فقال رجل الله للملك : لو أعطيتني نصف بيتك لا أدخل معك ولا أكل حيزاً ولا أشرب ماء في هذا الموضع ، لأنى هكذا

أوصيت بكلام الرب قائلا : لا تأكل خبزا ولا تشرب ماء ولا ترجع في الطريق الذي ذهبت فيه . فذهب في طريق آخر ولم يرجع في الطريق الذي جاء فيه إلى بيت إيل .

وكان بى شيخ ساكنا في بيت إيل ، فأتى بنوه وقصوا عليه كل العمل الذي عمله رجل الله ذلك اليوم في بيت إيل وقصوا على أبيهم الكلام الذي تكلم به إلى الملك ، فقال لهم أبوهم : من أى طريق ذهب ؟ وكان بنوه قد رأوا الطريق الذي سار فيه رجل الله الذي جاء من يهوذا . فقال لسيه : شدوا لى على الحمار . فشددوا له على الحمار فركب عليه وسار وراء رجل الله فوجده جالسا تحت البلوطة فقال له : أنت رجل الله الذي جاء من يهوذا ؟ فقال : أنا هو . فقال له : سر معى إلى البيت وكل خبزا . فقال : لا أقدر أن أرجع معك ولا أدخل معك ولا أكل خبزا ولا أشرب معك ماء في هذا الموضع ، لأنه قيل لى بكلام الرب : لا تأكل خبزا ولا تشرب هناك ماء ولا ترجع سائرا في الطريق الذي ذهبت فيه فقال له : أنا أيضا بى مثلك وقد كلمنى ملاك الرب قائلا : ارجع به معك إلى بيتك فياكل خبزا ويشرب ماء . كذب عليه فرجع معه وأكل خبزا في بيته وشرب ماء .

أسلوب في التفكير لا يتغير ، نبي يكذب على رجل الله ويمكر به حتى يقع في الخطيئة . لماذا كذب النبي ؟ وما حكمة كذبه إن كان للكذب حكمة ؟ وإذا كان النبي يكذب فمن ذا الذى لا يكذب ؟ وما هى الحكمة الأخلاقية التى يريد كتاب التوراة في المعنى أن يسوقوها للمؤمنين بتوراتهم ؟ ولماذا مكر النبي برجل الله ، وما هو ثواب هذا العمل الدنى ؟ رجل الله نفذ وصية الله — على فرض أن ذلك قد حدث — فلماذا يخرج النبي الشيخ في أثره ليخدعه ويزعم له أنه أوحى إليه وأن الله يأمره بأن يدخل معه ويأكل ويشرب في الموضع الذى نهى عن الأكل والشرب فيه ؟

حكايات تنضح بحبث نفوس الذين كسوها ، وحاشا لله أن يرسل أنبياء يكذبون على الناس ويكذبون على الله ويمكرون بالناس ليوقعوهم في الخطايا عامدين . ومادية طاغية نسبوها إلى الرب ، فأى إله هذا الذى لا يهتم إلا بالأكل والشرب وينهى عن الأكل والشرب في مكان ما ولا يبنى عن الفحشاء والمنكر والبغى ؟ إله تشوى له خوم الذبائح ويناله الدماء ولا يهتم بتقوى عباده !

تفكير أفسده دل الأمر وعادات البابيين الذين عاش كتاب التوراة في وسطهم وتأثروا بدياناتهم . مادية طغت على الروح بعد أن نسى كتاب التوراة اليوم الآخر وآموا بأن ثواب أعمالهم في إطالة أعمارهم على الأرض ورغد العيش ، وأسلوب واحد في التفكير لا هم له إلا تعقب الصالحين تهریفهم في نفس الوحل الذى كانوا فيه يتمرغون .

كذب بى الله على رجل الله ولم ينقطع الوحي عنه جزاء وفاقا على ذلك الكذب بل استمر الرب يوحى إليه ، كأنما كان الرب راضيا عن ذلك الكذب ، ومن الغريب أن الرب أنزل غضبه على رجل الله المخدوع ولم ينزل غضبه على الكاذب الخادع : « وبينما هما جالسان على المائدة كان كلام الرب إلى السى الذى أرجعه . فصاح إلى رجل الله الذى جاء من يهوذا قائلا : هكذا قال الرب : من أجل أنك خالفت قول الرب ولم تحفظ الوصية التى أوصاك بها الرب إلهك ، فرجعت وأكلت حيزا وشريت ماء في الموضع الذى قال لا تأكل فيه خيرا ولا تشرب ماء ولا تدخل جثتك قبر آبائك . ثم بعد ما أكل خيرا وبعد أن شرب شدة على الحمار — أى للسى الذى أرجعه — واطلق . فصادفه أسد في الطريق وقتله وكانت جثته مطروحة في الطريق والحمار واقف بجانب والأسد واقف بجانب الجثة ، وإذا يقوم يعبرون فرأوا الجثة مطروحة في الطريق والأسد واقف بجانب الجثة ، فأتوا وأحبروا في المدينة التى كان النسي ( عزوة تبوك )

الشيخ ساكنها . ولما سمع السبي الذى أرجعه عن الطريق قال : هو رجل الله الذى حالف قول الرب ، فدفعه الرب للأسد فافترسه وقتله حسب كلام الرب الذى كلمه به ، وكلم بنيه قائلا : شدوا إلى على الحمار ، فشدوا ، فذهب ووجد جثة مطروحة فى الطريق والحمار والأسد واقفين بجانب الجثة ولم يأكل الأسد الحقة ولا افترس الحمار . فرفع السبي جثة رجل الله ووضعها على حمار ، ورجع بها ودخل النبي الشيخ المدينة لينديه ويدسه ، فوضع جثته فى قبره وراحوا عليه قائدين : آه يا أحمى . وبعد دفنه إياه كلم بنيه قائلا : عند وفاتي ادفوني فى القبر الذى دفن فيه رجل الله بجانب عظامه ضعوا عظامي ، لأنه تماما سيتم الكلام الذى نادى به بكلام الرب نحو المذبح الذى فى بيت إيل ونحو جميع بيوت المرتفعات التى فى مدن السامرة ، بعد هذا الأمر لم يرجع يريعام عن طريق الرديلة بل عاد يعمل من أطراف الشعب كهنة مرتفعات من شاء ملأ يده فصار من كهنة المرتفعات ، وكان من هذا الأمر حظية لبيت يريعام وكان لإبادته وخراجه عن وجه الأرض .

كان السيد المسيح يقول : احذروا الأنبياء الكذبة . وما أكثر الأنبياء الكذبة فى توراة المنفى ! وكان بنو إسرائيل ومن بعدهم اليهود يزعمون أنهم شعب الله المختار ، وإن قارئ التوراة لا يجد فيهم صفة واحدة تؤهلهم لذلك الاختيار ، فما أن يصطفى رب إسرائيل نبيا حتى يرتد ذلك النسي عن طريق الله ويعبد آلهة المرتفعات ، وما من نبي مرت أيامه بسلام وهو متفرح فى الله وبالله . إسم جميعا تنكبوا الصراط المستقيم — أو بمعنى أصح هكذا صورتهم عقول الذين كتبوا التوراة بأيديهم — فإذا كانت هذه التوراة التى بين أيدينا هى قياس مقدار تقوى أنبياء إسرائيل وشعب إسرائيل واليهودية ، فما أقل نصيب هذا الشعب من طهارة النفوس — وإن اهتموا بطهارة الملابس والأبدان وقشور الطهارة وماديتها ، وما أقل استحقاق هذا الشعب لما زعم من أنه شعب الله ولكنه

الغرور الذى دفعهم إلى أن يعبدوا أنفسهم وأن يحسبوا أنهم وحدهم الناس :  
 « وقالت اليهود والصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بدنوكم بل  
 أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله ملك السموات  
 والأرض وما بينهما وإليه المصير »<sup>(١)</sup> . « قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم  
 غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء  
 السبيل . لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم  
 ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن مكر فعلوه لبئس ما كانوا  
 يفعلون . ترى كثيرا منهم يتولون الدين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن  
 سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون »<sup>(٢)</sup> .

ولنستمر في قراءة سفر الملوك الأول : « في ذلك الزمن مرض أليّا بن  
 يربعام ، فقال يربعام لامرأته : قومي غيري شكلك حتى لا يعلموا أنك امرأة  
 يربعام واذهي إلى شيلوه ، هو ذا هناك أخيا السبي الذى قال عني إني أملك على  
 هذا الشعب ، وخذى بيدك عشرة أرعفة وكعكا وجرة غسل وسيرى إليه  
 وهو يخبرك ماذا يكون للغلام » . إنه نبي يهودى لا يتنبأ إلا إذا أخذ أجر تنبؤه ،  
 وما أيسره من أجر يقدمه ملك : عشرة أرعفة وكعك وجرة غسل . « ففعلت  
 امرأة يربعام هكذا وقامت وذهبت إلى شيلوه ودخلت بيت أخيا ، وكان أخيا  
 لا يقدر أن يبصر لأنه قد غامت عيناه بسبب شيخوخته . وقال الرب لأحيا :  
 هو ذا امرأة يربعام آتية لتسأل منك شيئا من جهة ابنها لأنه مريض فقل لها كذا  
 وكذا ، فإياها عند دخولها تتنكر . فلما سمع أحيا جس رجلها وهي داخلة في  
 الباب قال : ادخلي يا امرأة يربعام ، لماذا تتنكرين وأنا مرسل إليك بقول قاس ؟  
 اذهبي قولي ليربعام هكذا قال الرب إله إسرائيل ، من أجل أنى قد رفعتك من  
 وسط الشعب وجعلتك رئيسا على شعبي إسرائيل وشققت المملكة من بيت

داود وأعطيتك إياها ولم تكن كعبدى داود الذى حفظ وصاياى والذى سار ورائى بكل قلبه ليفعل ما هو مستقيم فقط فى عيسى ، وقد ساء عملك أكثر من جميع الذين كانوا قبلك فسرت وعملت لفسك آلهة أخرى ومسبوكات لتفيطى وقد طرحنى وراء ظهرك ، لذلك هاأنذا جالب شرا على بيت يربعام وأقطع ليربعام كل بائس بمخاطب محجوزا ومطلقا فى إسرائيل ، وأنزع آخر بيت يربعام كما ينزع البعر حتى يفضى ، من مات ليربعام فى المدينة تأكله الكلاب ، ومن مات فى الحقل تأكله طيور السماء لأن الرب تكلم . وأنت فقومى واطلقى إلى بيتك وعند دخول رجلك المدينة يموت الولد ، ويندبه جميع إسرائيل ويدفونه ... » .

لا تؤاخذوهم عندما يذكرون استقامة داود فقد نسوا الإفك الذى نسبوه إليه أو لعلمهم لا يرون فى اغتصاب بتشبع امرأة أوريا الحشى عملا يعضب رب إسرائيل ونساؤهم تعتصب كل ليلة فى بلاط الملوك وقصور الأشراف ويوت من يملكون الذهب المعبود .

كفر يربعام الذى اختاره رب إسرائيل ليكون ملكا على شعبه إسرائيل ، ولم يكن أحسن حالا من سليمان الذى زعموا أنه كفر — وما كفر سليمان — ففيم كان تمزيق المملكة وتنصيب يربعام على إسرائيل — على عشرة أسباط من سبى إسرائيل — ما دام الكفر هو غاية الجميع ؟ ١٩ كفر يربعام ملك إسرائيل فمادا كان حال رحبعام بن سليمان ملك اليهودية ؟ : « أما رحبعام بن سليمان فملك فى يهوذا ، وكان رحبعام ابن إحدى وأربعين سنة حين ملك ، وملك سبع عشرة سنة فى أورشليم المدينة التى اختارها الرب لوضع اسمه فيها من جميع أسباط إسرائيل ، واسم أمه نعمة العموية . وعمل يهوذا الشر فى عيني الرب وأعاروه أكثر من جميع ما عمل آباؤهم بخطاياهم التى أحطأوا بها ، وبواهم أيضا لأنفسهم مرتفعات وأنصابا وسوارى على كل مرتفع وتحت كل شجرة

خضراء ، وكان أيضا مابونون في الأرض . فعلوا كل أرجاس الأمم الذين طردهم الرب من أمام بني إسرائيل . »

كفر يربعام وأشرك بالله فكفرت إسرائيل ، وكفر رجبعام فكفرت اليهودية وصارت إسرائيل بملكيتها أمة كافرة تعبد الأصنام ، وانتشر فيها الفساد وكثر فيها المأبونون وصاروا كقوم لوط ، وبعد كل ذلك يزعمون أن الله فضلهم على العالمين وأنه اصطفاهم دون الناس : « أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » (١) .

إن الذين كتبوا التوراة في المنفى أفسدوا عقول كثير من الذين آمنوا بتوراتهم ، وإن المؤرخين لا يؤمنون إلا بما هو مكتوب أو محفور قد أحضروا هذه التوراة وحللوها على أنها دليل تطور العبرانيين من الشرك إلى الوحدانية ، ولم يحطروا أن الوحدانية كانت دين إبراهيم خليل الرحمن قبل العبرانيين ثم انتقلت إلى بني إسرائيل واليهود ، فلما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم ارتدوا إلى الوثنية في عصر تدوين توراة المنفى وإن حسبوا أنهم يعيشون في عصر انتفاضة دينية .

ومن الدين استقرعوا توراة المنفى عند دراسته للتطور الخلفي عند الشعوب جيمس هنري برستد في كتابه « فجر الضمير » ، ففي الفصل السابع عشر من كتابه يتحدث عن مصادر إرثا الخلفي ، فبعد أن يسهب في فضل مصر القديمة في ظهور المبادئ الخلقية ويتحدث عن أثر المدينة البابلية ويخرج بنتيجة أن الفلسطينيين لم يأخذوا عن البابليين شيئا يذكر من معتقداتهم وآرائهم الدينية ، وأن العبرانيين قد اتصلوا خلال أسره في الشرق — وهم في مرحلة متأخرة من مراحل تقدمهم الديني — اتصالا وثيقا بالمدينة الفارسية ووقفوا على الكثير من ديانة ( زروستر ) ررادشت .

(١) آل عمران ٨٧ .

إن برستد يسير على نظرية علماء المقارنة بين الأديان القائلة بأن الإنسان يرتقى في الديانات كما يرتقى في الصاعات ، فيبدأ بالشرك ثم يرتقى إلى الوجدانية ، وهذه النظرية تخالف النظرية الدينية الإسلامية التي تقول إن الإنسان كان على علم ما دام الله قد خلق آدم وعلمه الأسماء كلها ، ثم يطول على الناس العهد فتقسو قلوبهم فتغمر الأساطير الوجدانية فيشرك الناس بربهم فيبعث الله رسولا يرد الناس إلى الإسلام دين الوجدانية فلما يطول على الناس الأمد تقسو قلوبهم فيرتدون إلى الوثنية فيبعث الله رسولا ليعيدهم إلى جادة الصواب ، أى أن الوجدانية هي الأساس ثم الشرك فالوجدانية ثم الشرك فالوجدانية وهذه النظرية يؤيدها الواقع التاريخي لتطور البشرية .

ويروى برستد أن العبرانيين كانوا أيام يعقوب شعبا متبررا ، وأن موسى المصرى هو أول زعيم قوى خلص العبرانيين من نير ظلم الفراعين وأنه ليس بنبي مرسل ، وقد يكون معدورا ما دام يعتمد على توراة المتفى في استقاء معلوماته ؛ أما القرآن الكريم فلا يتفق مع الآراء التي خلص إليها برستد ، فالقرآن يقرر أن يعقوب كان يؤمن بوجدانية الله وبالبعث بعد الموت ، وأن موسى كان نبيا مرسلا يدعو إلى الله وحده ، وأن توراة المفى إنما هي ردة وأن اليهود كتبوها بأيديهم بعد أن حرق بختنصر توراة الله وأباده . يقول برستد : « ... وأما في بلاد فلسطين التي احتلها العبرانيون فيما بعد ، فإن الكنعانيين الذين كانوا يسكنون هذه البلاد قبل العبرانيين كانوا قد احتاروا مرحلة من النمو المتحضر تبلغ أكثر من ألف سنة حينما غزا العبرانيون البلاد » .

وقد عرفنا من النقوش التاريخية البابلية والمصرية القديمة ، وكذلك من الحفائر الأثرية شيئا كثيرا عن هذه المدنية الفلسطينية الراقية النامية السابقة لعهد العبرانيين . كما أنه كان لثقافة البابلية كما ذكرنا من قبل أثر هام خالد في فلسطين الكنعانية ، وعن طريق الكنعانيين — بوجه خاص — وصل أثر

البابليين في الفن والأدب والدين إلى العبرانيين ، يضاف إلى ذلك أن هذا الإقليم كان منذ زمن بعيد واقعا تحت نفوذ الحضارة المصرية القديمة . فقد بدأ المصريون يسيطرون سيطرتهم على الساحل الفينيقي قبل أن يطأ العبرانيون فلسطين بأكثر من ألفي سنة ، إذ اقتحمت الحيوش المصرية فلسطين قبل سنة ٢٥٠٠ ق . م . ولما فتح الفراعنة المصريون آسيا الغربية ووصلوا في فتحهم إلى نهر الفرات في خلال القرن السادس عشر ق . م . بقيت فلسطين مستعمرة في أيديهم أكثر من أربعة قرون . والواقع أنهم حكموا فلسطين مدة قريين بعد دخول العبرانيين فيها ، وبذلك بلغت المدنية الكنعانية مرتبة سامية في القرون التي احتلتها فيها مصر . فلما غزاها العبرانيون كانت قد صيغت مرارا وتكرارا بالعناصر المصرية ، وكان من نتائج ذلك أن العبرانيين حينما دخلوا فلسطين صاروا على اتصال مباشر بتلك الحضارة الكنعانية المركبة التي أنشئ معظمها من العناصر البابلية والمصرية القديمة معا . هذا فضلا عن أن تلك المدنية الكنعانية مرورها في تجارب اجتماعية طويلة ، كسبت كذلك عناصر ثقافية كثيرة من صنع الكنعانيين أنفسهم . الواقع الذي لا شك فيه أن اللغة التي وحدها العبرانيون والفاصحون هي اللغة الكنعانية لغة البلاد وقتئذ ، قد اتخذها العبرانيون أنفسهم لغة لهم وهي التي انحدرت إلينا فيما بعد في ثوب اللغة العبرانية التي كتبت بها التوراة ، وما يؤسف له أننا لا نعرف شيئا يذكر عن التاريخ الحقيقي لذلك الشعب قبل الغزو الإسرائيلي .

وبتلخيصنا لموقف فلسطين من نواحيه المختلفة ، نرى أن تلك البلاد من الوجهة الجغرافية تقع على جسر طبيعي ضيق بين البحر الأبيض المتوسط من جهة والصحراء العربية من جهة أخرى ، وهو جسر يقع بين قارتين طالما اتخذ طريقا عاما لربط إفريقيا بآسيا منذ عهد ما قبل التاريخ .

أما من الوجهة السياسية فإن فلسطين كانت قديما كما هي الآن كرة

قدم دولية .

أما من الناحية الثقافية فإنها كما أوضحنا الآن كانت داخلية ضمن الإقليم التجارى الذى طالما كانت المعاملات البابلية تسيطر عليه ، كما كانت فى الوقت نفسه تقع مباشرة فى ظل صرح المدينة المصرية العظيمة . فالقوم الذين استقروا فى أرض فلسطين لم يحدوا أنفسهم فى وسط حضارة قديمة تكونت بالإقليم نفسه ومصبوغة إلى حد كبير بالصبغة المصرية القديمة فحسب ، بل كانوا يطلون أيضا على مدنيات أعرض منها بكثير على كلا الجانبين فى آسيا وأفريقية ، فمن هذه البيئة الدولية البعيدة الأثر بالشرق الأدنى الذى كان يضم فلسطين بين جوانحه نشأت تلك الأفكار الخلقية التى غذت العالم العربى فى النهاية بالآراء الخلقية السائدة فيه الآن ؛ إذ وصلت إلينا عن طريق بقايا الأدب العبرانى وهو الذى كانت محتوياته الخلقية كما أسلفنا بعيدة كل البعد عن أن تكون من أصل عبرانى محض .

ومن الحقائق المدهشة أن يكون ذلك الإرث الخلقى العظيم قد وصل إلى المدينة الغربية من شعب خامل الذكر سياسيا منزو فى الركن الجنوبي الشرقى من حوض البحر الأبيض المتوسط ، فإن هذا الشعب لم يقم له نظام قومى خاص به إلا منذ العشر أو العشرين سنة السابقة لعام ١٠٠٠ ق . م . ، ولم يبق أمة موحدة إلا نحو قرن واحد على أكبر تقدير . وعلى أثر انحلال تلك الدولة الصغيرة نجد أن الحزبين اللذين قاما على تراثها ظلا يكافحان البقاء ، فاستمر أحدهما مدة قرنين تقريبا ، وأما الجزء الآخر فإنه بعد أن مكث مدة قرن وربع قرن من سقوط الجزء الأول قضاها فى حياة قلق شبة مستقلة تداولته فيها أيدي ممالك الشرق العظيمة قديما ، قد حاق به كذلك العناء التام بعد سنة ٦٠٠ ق . م . بزم من قبيل ، بذلك تكون حياة العبرانيين القدامى القومية المستقلة — أو حياة جزء منهم — التى بدأت لأقل من ثلاثين سنة قبل عام ١٠٠٠ ق . م .

— قد مكثت حوالى أربعة قرون وربع قرن وختمت في باكورة القرن السادس قبل الميلاد . أى أن هذا العهد من الحياة العبرانية القومية قد وقع بأكمله تقريبا في النصف الأول من الألف السنة الأخيرة قبل الميلاد المسيحي ، وفي تلك الفترة كان تقدم الثقافة في مصر وفي بابل قد نضب معيه وصار يعد خيرا من أخبار التاريخ القديم .

وإنه لمن المستحيل علينا طبعاً أن نضمّن هذا الكتاب المحدود الحجم التاريخ الدينى والخلقى للعبرانيين القدامى حتى ولو بطريق التلخيص . على أن مهمتنا في هذا الكتاب تضطربنا إلى الكشف عن العوامل الأجنبية الهامة التى عملت في التطور الخلقى عندهم . ولكى يتمكن من القيام بذلك يجب أن نعيد إلى ذاكرتنا بعض الحقائق البارزة في التاريخ العبرانى . إذا كنا نريد حقاً معرفة العناصر الأجنبية في التطور الخلقى العبرانى .

كان ظهور العبرانيين لأول مرة في ميدان التاريخ في خطابات « تل العمارنة » التى يرجع تاريخ أقدمها إلى ما بعد سنة ١٤٠٠ ق . م . بقليل ، أى في عهد يسبق بكثير أى أدب عبرانى وصل إلينا .

وهذه الخطابات المسمارية تكشف لنا وجود جماعات من العبرانيين الرحل كانوا ينزحون إلى فلسطين التى كانت وقتئذ تحت سيطرة مصر ، حيث كانوا يدخلون هناك في سلك الخنود المرتزقة ، ولا نعرف من شأنهم بعد ذلك شيئا منذ قرنين من الزمان إلى أن كان وقت ذلك الأثر المصرى الذى أقامه في « طيبة » ( الأقصر ) « مرنبتاح » بن « رمسيس الثانى » قبل سنة ١٢٠٠ ق . م . ينحو عشر سنين أو عشرين سنة ، فقد حفظت لنا فيه أنشودة نصر نجد فيها ذلك الملك يفتخر بقوله : « وإسرائيل قد دمرت وبذرتها محيت » . وقد كان هذا الحادث في عهد القضاة وقت أن كانت الحياة العبرانية القومية لا تزال حاملة لا تكاد تعرف شيئا من الحكم المركبى أو النظام

القومى ؛ فقد كان العبرانيون لا يزالون متأثرين كل التأثر بحياة القرون الطويلة التي قصوها في الرعى وتلمس الكلاً على حدود الصحراء قبل أن يدخلوا فلسطين ، فكانوا لا يزالون متمسكين بالعادات الساذجة المتبربرة الشائعة بين قبائل الصحراء ، بل ببعض التقاليد القريبة من الوحشية التي تلازم الحياة الفطرية مثل ذبحهم الولد البكر قربانا لإله القبيلة . وهذه الآلهة المحلية قد تكون مثل الشيطان الرجيم الذي كان في ظلمهم يسكن فوق قمة الجبل أو عند غدير الماء ، على عرار حتى الليل المعتم الذي صارعه يعقوب ( عليه السلام ) عند غدير « جابوك » حتى أجبره على الفرار فزعا قبل انبثاق الفجر .

ومثل هذا الحنى المحلي كان يطلق عليه في الصحراء الواقعة جنوبي « يهوده » اسم « إيل » ، وهذا اللفظ ليس اسم علم وإنما هو الكلمة السامية القديمة التي كانت تطبق على أى إله محلي . وقد انحدر إليها في اسم « إسرائيل » وهو الاسم الذي أطلقه على « يعقوب » الكائن الذي صارعه . وقد بقى لنا كذلك في طائفة من الأسماء مثل « ميخائيل » ومعناه الذى يشبه الإله . وفي الأسماء الشمالية من كنعان « كانت الآلهة المحلية عند الكنعانيين تسمى « بعولا » أو « أربابا » .

يقول برستد إن يعقوب صارع حنى الليل عند غدير « جابوك » وأن ذلك الحنى يطلق عليه اسم « إيل » ، وبرستد معذور فهو لم يستطع أن يتصور أن إنسابا يصارع إلها في كتاب مقدس ، وإن كانت الأساطير البابلية تفيض بمثل ذلك الصراع بين الآلهة والبشر ، فالإيل هو الله وكان الصراع بين الله وبين يعقوب في توراة المسمى المتأثرة بأساطير البابليين وكان النصر ليعقوب .

كان برستد يقرأ التوراة التي بين يديه دون أن يحظر له على قلب أنها كتبت على أنقاض توراة الله التي اندثرت يوم عزا بختنصر إسرائيل ، وكان مستريحا إلى النتائج التي خلص إليها لأنها تتفق مع مبادئ علماء المقارنة بين الأدباة وإن

اختلفت مع السنن الدينية التي قامت عليها كل الأديان ، وهي المعرفة فقول العهد فالردة إلى الوثنية فأرسل رسول يفيض عن الحقيقة ركام الأساطير ، حتى إذا ما أشرقت الحقيقة وطال على الناس الأمد قست قلوبهم فعادت الأساطير لتطمر الحقيقة فردة إلى الوثنية فأرسل رسول من لدن رب العالمين لتبدأ الثورة الدينية ، حتى كان الإسلام وكان وعد الله يحفظ الذكر الحكيم . ولنعدي إلى ما كتبه برستد في كتابه فخر الضمير : « ومن الواضح أن بعض العبرانيين الرحل كانوا قد استعبدوا بعد لحوثهم إلى مصر في زمن قحط حدث عندهم ، وقد قام من بينهم عبراني ممتاز بحسن سياسته وقوة قيادته البارعة ، ونهض نفسه عليهم وخلصهم من العبودية ، وبذلك صار يعد أول قائد عبراني عظيم وصل إلى هنا اسمه .

ومن المهم أن نلاحظ أن موسى — وهو اسم ذلك القائد — كان اسماً مصرياً ، بل هو نفس الكلمة المصرية القديمة « مُس » ومعناها « طفل » وهي مختصرة من اسم مركب كامل كالأسماء « أمس مس » ومعناها « آمون طفل » أو « بتاح مس » ومعناها « بتاح طفل » وهذه الأسماء المركبة نفسها هي الأخرى مختصرات للتركيب الكامل « آمون أعطي طفلاً » أو « بتاح أعطي طفلاً » . وقد لقي اختصار الاسم إلى كلمة « طفل » قبولاً منذ زمن مبكر ، إذ كان سريع التداول والتناول بدلاً من الاسم الكامل الثقيل .

على أن الاسم « مس » ( طفل ) نجده كثير الانتشار على الآثار المصرية القديمة . ولا شك في أن والد « موسى » كان قد وضع قبل اسم ابنه اسم إله مصري مثل « آمون » أو « بتاح » ، ثم رال ذلك الاسم الإلهي تدريجياً بكثرة التداول حتى صار الولد يسمى « موسى » .

هذا هو رأي برستد في تسمية موسى ( عليه السلام ) ، وهناك آراء أخرى تخالف هذا الرأي ، فقد قيل إن مو معناها ماء وشا معناها شعر ، ولما كان

الطفل قد وجد في الماء بين الشجر فقد أطلق عليه موسى ، وعلى أى حال فقد صار موسى في الإسلام رسولا من ذوى العزم . ويقول برستد : « على أن ما أظهره « موسى » من الخلق في القيادة مع الشجاعة والمهارة في تخليص شعبه من العبودية الأجنبية ، وكذلك حادثة التخليص نفسها التي صاحبها بعض الكوارث الطبيعية التي قضت على الجيش المصرى المقتضى لآثار « موسى » ومن تبعه — كل ذلك لقي مكاة لا تمنحى في المعتقدات العبرانية ، وجعل للعبرانيين إرثا أصليا من الفخار كان هو أقدم الأسباب التي ألقت بهم وجعلت منهم أمة واحدة » .

توراة المنفى لا توحى بأكثر مما استخلصه برستد منها ، فموسى فيها لا يزيد على قائد عبراني حلص قومه من ذل العبودية ، فقد عجزت تلك التوراة على أن تصور حياة موسى الروحية . ولولا القرآن الكريم الذى وضع رسالة موسى وصلته الطيبة برب الكون لما كان موسى أكثر من زعيم من بنى إسرائيل .

ويلاحظ أن برستد يستعمل كلمة « عبراني » عوضا عن كلمة بنى إسرائيل واليهود ، فهو لا يريد أن يدخل في تحديد الفرق بين بنى إسرائيل واليهود ، وإن لفظة « عبراني » لا تدل دلالة أكيدة علمية صحيحة على بنى إسرائيل واليهود ، فقد استعملت لكل من عبر النهر من العراق إلى الشام قبل عبور إبراهيم الخليل عليه السلام ، ولم يكن إبراهيم عليه السلام من بنى إسرائيل ولا يهوديا فهو أبو إسماعيل وإسحاق ، أبو العرب وبنى إسرائيل جميعا ، وما اليهود إلا سبط من أسباط بنى إسرائيل الاثنى عشر .

ويقول برستد : « وفي خلال مرحلة مبكرة من مراحل تلك الأحداث تخلف « موسى » في الصحراء جنوبي فلسطين عند قبيلة من القبائل البدوية التي تعرف بأهل « مدين » ، وكان مكثه هناك كثيرا وبخاصة مع أحد حدامهم المقدسين الذى يدعى شعب Jethro حتى إنه عرف عنه شيئا عن

إلههم المحلي « يهوه » (١) .

وهذا الإقليم الممتد من « سيناء » شمالا ، وبخاصة على طول الأخدود العظيم الذى يتبع فيه « البحر الميت » ووادى نهر الأردن ، تتواهر فيه اليعنات الجيولوجية الدالة على وقوع ثوران بركافى حديث نوعا . ولا شك فى أن الرواية العبرانية التى ذكرت فى سفر التكوين ( ١٩ : ٢٣ — ٢٨ ) عن تخريب « سدوم » و « عمورة » ، وهما مدينتان كانتا فى تلك البقعة بالنار والكبريت « من السماء ، ليست إلا إشارة مبهمة عن حدوث انفجار بركافى لم تس ذكره القبائل المحلية فى العهد العبرانى المبكر .

وقد صلب خروج العبرانيين من مصر خوارق جاء وصفها فى كتاب العهد القديم ، لا شك فى أنها ذات صبغة بركانية ، فالظاهر الغرب الذى ظهر به « يهوه » فى صورة « عمود نار » أو « عمود من دحان » ، ثم تجليه فوق « طور سيناء » نهرا محدثا للرع والبرق والسحاب الكثيف « هى بالبداة ظواهر بركانية ، وعلى ذلك كان من المعترف به منذ زمن أن « يهوه » ليس إلا إلهها محليا للبراكين وكان مقره المختار « طور سيناء » ، ولكن العبرانيين تحلوا بتأثير من « موسى » عن آلهتهم « الوهم » (٢) القدامى واتخلوا « يهوه » هم إلهها واحدا .

(١) وقد أدى اردهاد تقديس هذا الاسم عند اليهود إلى أنهم لفظوا بكلمة عبرانية تدل على « رب » بدل كلمة « يهوه » وهذا الاستعمال أدى فى النهاية إلى فقدان النطق القديم لكلمة « يهوه » وصارت حروفها الأربعة ساكنة « ي ه و ه » تنطق بإضافة الحركات التى تستعمل مع كلمة « رب » فى العبرية ، وبذلك أصبحت كلمة « يهوه » تلفظ جهوفه « يهوفاه » وهو صورة لهذا الاسم ليس له أصل قديم قط

( فجر التاريخ : برستند — ترجمة سليم حسن )

(٢) ألوهيم : جمع كلمة إيل .

على أنه لا بد من باعث آخر دعا إلى ذلك الانقلاب العظيم أقوى من تأثير « موسى » قائلهم الكبير . فمن الواضح أن التخلص من النير المصرى كان مصحوبا ببعض الظواهر الرهيبة التى عزيت إلى بطش « يهوه » الشديد . وإن رأى القائل بحدوث انفجار بركانى فى « سيناء » حينما ضاق الحناق على العبرانيين فى خروجهم يجد من الأسباب ما يبرره ، إذ يمكن أن نفرض أن الزلزال الذى صاحب ذلك الانفجار وموجة المد التى نتجت عن ذلك ، هما اللذان أفضيا إلى ابتلاع الجنود المصريين الذين كانوا يتعقبون أثر القوم الفارين .

ومهما يكن من أمر فإن الاعتقاد بأن العبرانيين عندما دخلوا منطقة « يهوه » الواقعة بالقرب من جبل سيناء نجاهم هو بعض المظاهر العظيمة لقوته وعطفه قد احتل مكانة ثابتة فى المعتقدات العبرانية الماثورة ، وحيثما أقيم محراب ذلك الإله بعد مضى زمان طويل على ذلك فى « بيت المقدس » صوره عباده من الإسرائيليين بأنه آت من « سيناء » فى قوة وأبهة ليتخذ مثواه فوق جبل « صهيون » .

يفترض برستد افتراضات لبواكب بين مذهبه المادى فى تحليل التاريخ الدينى وأحداث التوراة ، ولم يدأى شك فى توراة المنفى ولم يناقش موضوع تدوين التوراة بعد موت موسى عليه السلام بأكثر من خمسمائة سنة ، ولم يكشف عن أثر الأساطير البابلية والفرعونية فى عقلية الذين كتبوا التوراة بأيديهم ، وعيب الذين يستنطقون الكتب المقدسة التى كتبت بعد موت أصحاب الرسائل بمئات السنين أنهم يفترضون أن تلك الكتب لا يأتيها الباطل من بين يديها فيصمون أحيانا رسل الله بالشرك ، ولا يرفعون أصابع الاتهام فى وجه الذين دونوا تلك الكتب بعد أن زاغت قلوبهم عن الإيمان الصحيح .

جعلوا موسى عليه السلام يستعين بشعبان من نحاس ليشفى الناس ، وجعلوا السيد المسيح الذى جاء ليسحر من عقيدة القرابين أكبر قربان في تاريخ البشرية ، فالذين عبثوا بالكتب المقدسة كانوا متأثرين بالمجتمع الذى كانوا يعيشون فيه وبمعتقد ذلك المجتمع . وكل دراسة عن الكتب المقدسة بعيدة عن دراسة الزمن الذى دونت فيه ومعتقدات الناس في ذلك الزمن والأساطير التى كانت ذاتة وقت التدوين فهى دراسة مبتورة تشوه الحقيقة ولا تخدم التاريخ . ولا يعرف القرآن الكريم يهوه ولا الإيل بل يقرر في وضوح أن للكون ربا واحدا هو رب آدم ورب نوح ورب إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى ومحمد والأنبياء جميعا والمرسلين ، ورب الناس رب العالمين ، له غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، فهو الذى يحى بى إسرائيل من آل فرعون ، فإن كانت الزلازل والبراكين قد ثارت وأغرقت فرعون وجنوده فقد أتى ذلك بأمر الله ، وإلا كيف نعلل هذه الدقة في التوقيت ؟ ولماذا ننسب الخوارق إلى الصدفة إذا كنا نؤمن بأن لهذا الكون ربا يدير أمره وأن له الأمر جميعا ١٩

إن برستد لا يرى في شرك بنى إسرائيل بالله ردة عن التوحيد الذى عرفه آباؤهم ، لأنه لو اعترف بذلك لهدم نظرية علماء المقابلة بين الأديان القائلة بترقى الإنسان في الدين . ويشور سؤال : هل كان إبراهيم موحدا أو كان من المشركين ؟ والجواب : كان إبراهيم خليل الرحمن يعبد الله وحده ، وقد اعترفت تورا المنفى بهذه الحقيقة ، وعلى ذلك سبق التوحيد الشرك ، فإن كان بنو إسرائيل قد أشركوا بالله بعد أن عرفوا الواحد القهار ، فهذه ردة لا تتفق مع نظرية علماء المقابلة بين الأديان وإن اتفقت كل الاتفاق مع النظرية القرآنية القائلة بالتوحيد فالشرك فإرسال رسول يعيد الناس إلى التوحيد ، وقد أرسل الله موسى عليه السلام إلى بنى إسرائيل بعد أن عبدوا العجل أسوة بقدماء

المصريين ليعيدهم أولاً إلى التوحيد ثم يخلصهم من دل آل فرعون المهين .  
ويقول برستد : « أما آلهة العبرانيين القدامى ( إيل ) التي لم يكن لها لون ولا أسماء أعلام يستدل بها على كل منها وليس لها شخصية ولا أصل تاريخي ، فإنهم استمروا طويلاً منافسين ضعفاء لإلههم « يهوه » بعد أن استوطن الإسرائيليون فلسطين . وأما الآلهة التي كانت أشد بأساً في مناهضة « يهوه » فهم « البعول » الكنعانيون ، وبالرغم من أن العبرانيين كانوا قد اتخذوا « يهوه » إلههم القومي فإنه كان يوجد الكثير من يسهم من تمسك باعتقاده في الآلهة الأخرى مثل البعول ، وكثيراً ما كانوا يتخفونها معبودات لهم من دون إلههم . على أن وجود نفس اسم « يهوه » كأنه علم مثل « أبوللو » أو « المريخ » لدليل على وجود آلهة أخرى لها أسماء أعلام مثله ، ونجد في التعليم الأول الذي وضعه « يهوه » نفسه لى إسرائيل أنه كان يعلم بوجود الآلهة الأخرى ولذلك قال : « لن تكون لكم آلهة أخرى قبلى » .

وزعم برستيد بأن « الإيل » كانت آلهة العبرانيين القدامى فهو زعم مردود إن كان يقصد بالعبرانيين بنى إسرائيل واليهود وحدهم ، « فالإيل » كان رب إبراهيم وقد نسب إليه ابنه إسماعيل قبل أن يعرف يعقوب باسم إسرائيل ، والإيل عند إبراهيم هو الله وحده رب الناس إله الناس ، ولا أعتقد أنه كانت هناك منافسة بين « الإيل » و « يهوه » ولا يمكن تصور مثل هذه المنافسة إلا إذا أمكن أن نتصور أن هناك منافسة بين الله والرحمن . والله الأسماء الحسنى فادعوه بها . لقد عبد بنو إسرائيل البعول آلهة الكنعانيين والقرآن المجيد يؤيد هذه الحقيقة : « أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين » (١) .

إن المتصوفين عند ذكر الله يقولون : هو ، فهل يعقل أن نقول أن هناك منافسة بين الله وبين هو ، وأن الله وهو إلهان متنافسان في دين الإسلام ؟ وإذا

نادى المسلمون بهم بقولهم يا الله ونادى المتصوفون بهم بقولهم يا هو ، فهل يقال إن المسلمين يعبدون ربا غير رب المتصوفين ؟ إن ما فعله موسى — إن كان قد أطلق على ربه اسم « يهوه » — لا يختلف في كثير عما فعله المتصوفون المسلمون ، وإن « الإيل » و « يهوه » و « الرب » في كل لغات العالم ما دامت تشير إلى خالق السماوات والأرض وما بينهما فهي من أسماء الله ، تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام .

ويسير برستد على هدى نظرية علماء المقارنة بين الأديان فيقول : « وقد كان سحر الإسرائيليين في الانتقال من عبادة آلهة عدة إلى عبادة إله واحد لجميع العالم بطيئا تدريجيا حتى لقد استغرق عدة قرون . كما نجد كذلك أن تصور العبرانيين فيما يختص بأخلاق إلههم قد مر في عدة أطوار منذ الوقت الذي كانوا فيه مهتجين بقوة إلههم الطبيعي التي كانت تحطم الكنعانيين وتذبذبهم ، إلى أن وصلوا إلى تصور الإله أبا رحيما عادلا . وإن الذي يجعل في استطاعتنا الآن أن نتعرف بعض الخطوات في ذلك التطور الذي به تحطى الإسرائيليون في تفكيرهم إله الطبيعة ، هو كتابات الأنبياء العبرانيين بوجه خاص ، حيث يتبين لنا أن ذلك الإله مع استمراره في حمل إله البركان القديم « يهوه » فإن الشعب العبراني أخذ ينظر إليه تدريجيا بمثابة قوة فعالة في المجتمع البشري .

ولا بد أن نشأة المصرية القديمة التي يرجع إليها الفضل في جعل موسى قائدا عظيما قد ساهمت في إدراكه لتلك الصور الواجبة ( ليهوه ) في حياة قومه ، فإننا نرى مثلا أن نشأة « موسى » في مصر وتسميته باسم مصري جعلاه يحض مواظبه على الأحد بشعيرة الختان وهي عادة مصرية قديمة جدا كانت مراعاتها عامة في أيامه بين سكان وادي النيل ، ويرجع عهدا إلى ما لا يقل عن ثلاثة آلاف سنة أو تزيد قبل عصره ، وتسبب المعتقدات العبرانية ( غزوة توبك )

دائما أصل تلك الشعيرة إلى « موسى » ( عليه السلام ) . هذا وإن اتخذ موسى لعادة مصرية مقدسة واعتبارها علامة لبني إسرائيل مع أنها شعيرة ألّفها بدهاءة في مصر منذ نعومة أظفاره ، يعد في الوقت نفسه برهانا قاطعا على أنه كان يستقى تعاليم مما كان يعرفه عن الديانة المصرية القديمة . على أن « موسى » لم يكن عبدا لمحاكاة التقليد المصري القديم ، ويظهر لنا ذلك عندما نراه اتخذ عن أهل « مدين » يهوه إلهاله . ولما كان أهل « مدين » قوم بدو سذج ليس لهم من المهارة في الفنون ما يمكنهم من صنع تماثيل لآلهتهم ، فإنه ترك « يهوه » دون أن يصنع له صورة أو تمثالا ما ، كما كان الحال عند أهل « مدين » من قبل . وللأسف فإن برستد يغالط في حقائق وردت في التوراة — وإن كانت هي نبراس دراسته — ليبرهن على نظريته القائلة بأن موسى عليه السلام أخذ تعاليمه عن قدماء المصريين ، فهو يرغم أن الختان شعيرة اتخذها موسى عليه السلام عند قدماء المصريين لتكون علامة بين بني إسرائيل ، بينما تقول التوراة إن الختان شعيرة إبراهيم خليل الرحمن وأنه أمر بختان الذكور في اليوم السابع من مولدهم ، وقد ختن إسماعيل وهو ابن ثلاث عشر سنة ، وحتى إسحاق في السابع من مولده ، وقد سبق أن قلت إن الختان كان معروفا عند البابليين وإنها عادة كانت منتشرة بين قوم إبراهيم ، وأن خليل الرحمن لا بد أنه اختن قبل أن يهاجر إلى ربه ، وأن دعوى أن الختان علامة بين الرب وبين بني إسرائيل إن هي إلا من ثمرة عقول الذين كتبوا التوراة في المنفى ليكون لبني إسرائيل فضل على العالمين .

ورغم أن أهل مدين لم يصنعوا لإلههم تمثالا لأنهم قوم بدو سذج ليس لهم من المهارة في الفنون ما يمكنهم من صنع تماثيل لإلههم ، وأن موسى لم يصنع تمثالا لإلهه اقتداء بأهل مدين ، ودارس التوراة يكتشف هذا الزيف ، فرب إسرائيل قد نبى عن صنع التماثيل حتى لا يرتد عباده إلى الوثنية وعبادة الأصنام

والأوثان ، فعدم صنع موسى تمثالا لربه يعود إلى أن صناعة التماثيل كانت محرمة عليه ، ولم تمنع عدم المهارة الفنية الأقوام السذج من اتخاذ صخرة رمزا للإله ، وإن ما فعله بنو إسرائيل بعد موسى من صنع تماثيل لإلههم إن هو إلا ردة ، فالملطق لا يمكن تجسيده وإذا جسد لم يعد مطلقا ، فصنع التماثيل للإله ليس تقدما دينيا بل هو انعكاس في المفهوم الديني الذي يقرر أن كل ما حطر على بالك فأنه على خلاف ذلك .

لم يصنع موسى تمثالا لربه فقد كان يقدر الله حق قدره ، ولكن برستد وجد فيما كتبه ككتاب التوراة عن موسى شيئا من الوثنية فلم يحاول أن ينفي عن موسى عليه السلام تلك المزاعم بل سارع يفسر ذلك بأن موسى لم يس التماثيل الدينية المصرية : « على أننا نجد أن « موسى » كان يتمسك ببعض الذكريات عن التماثيل الدينية المصرية ، فقد كان هو نفسه يحمل عصا سحرية عظيمة لا شك في أنها كانت في صورة ثعبان تسكن فيها قوة « يهوه » ، كما كان ينصب ثعبانا من النحاس الرقيق ليشفي به الناس . وكان هذا الثعبان بطبيعة الحال أحد تلك الثعابين المقدسة العديدة في مصر . وقد بقيت صورة ذلك الإله المصري القديم عند العبرانيين إلى ما بعد استيطانهم فلسطين بزمان طويل ، واستمروا في إطلاق البخور له مدة خمسة قرون بعد عهد « موسى » ، ولم يعد من البيت المقدس إلا في حكم « حزقيئيل » في أواخر القرن الثامن ق . م . ( سفر الملوك الثاني ١٨ : ٤ ) .

على أنه قد احتفظ العبرانيون إلى العهد المسيحي بقوى ماثورة عندهم يقرر أن « موسى » كان متفهما « في كل حكمة المصريين » ( الإصحاح السابع الآية ٢٢ ) ، وهو قول لا يكاد يوجد ما يدعو إلى الشك في صحته ، على أنه لم يكن في مقدورنا إلا في السنين الأخيرة أن نفهم المصادر التي وصلت إلينا عن حياة المصريين القدماء فهما كافيا ندرك به أن « حكمة المصريين » كانت

قبل كل شيء عبارة عن التأملات والتدبريات الاجتماعية ، ولا شك أن « موسى » كان ملهما بأقوال أولئك الأنبياء الاجتماعيين الذين كانت أقدم كتاباتهم — كما ذكرنا فيما سبق — متداولة بين المصريين منذ ١٥٠٠ سنة عندما ابتدأ موسى في تعليم قومه . ومن البديهي أن رجلا مثله نشأ محاطا بمثل ذلك النوع من الأدب كان لزاما عليه أن يشعر بالحاجة إلى دين يشتمل على تعاليم خلقية يزود به قومه .

إن برستد يقرر أشياء يحاول أن يلبسها ثوب الحقيقة ، فهو يقول إن موسى كان يحمل عصا سحرية عظيمة لا شك في أنها كانت في صورة ثعبان ، فمن أين جاء بهذا التأكيد ؟ إنه كان يحمل عصا لهش بها على غنمه ، عصا مثل كل عصي الرعاة ، فمن ذا الذي حول العصا إلى صورة ثعبان ؟ وإن كان بين أصحاب موسى فنان قادر على تحويل العصا إلى هيئة ثعبان فهل كان موسى عليه السلام يسمح له بذلك وهو الذي قال لبني إسرائيل في وصاياهم : « محظور عليك أن تصنع لنفسك تمثالا منحوتا أو ( صورة ) أى شكل في السماء أو في الأرض أو الماء » .

إنه يحاول أن يربط بين العصا وبين تحويلها إلى ثعبان بقدرة الله تتلقف ثعابين السحرة ، فجعل العصا على صورة ثعبان تسكن فيها قوة « يهوه » . « وما تلك يمينك يا موسى . قال هي عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى . قال ألقها يا موسى . فألقها فإذا هي حية تسعى . قال خذها ولا تخف سعيدها سيرتها الأولى » (١) .

وزعم برستد أن موسى عليه السلام كان ينصب ثعبانا من النحاس البراق ليشفى به الناس ، وقد يكون معدورا في هذا الزعم فهذا ما تقرره توراة النمل ، ولكن كان عليه أن يناقش هذه الدعوى الظالمة وبين يديه نفس توراة

المنفى التى تعترف بأن موسى عليه السلام حفظ على بنى إسرائيل صنع التماثيل ، فكيف ينهى عن شيء ثم يفعله ؟!

إن فكرة الثعبان النحاسى التى جاءت فى التوراة استهوت برسند لأنها أتاحت له فرصة الربط بين ذلك الثعبان والثعابين المقدسة المصرية ، فلم يحاول أن يميّط اللثام عن زيف الفكرة بل تلقفها ليدلل بها على نظريته بأن موسى عليه السلام كان متأثراً فى كل تعامله بالديانة المصرية القديمة .

عبد بنو إسرائيل العجل وموسى عليه السلام بينهم ، فهل يستدل من ذلك أن موسى عليه السلام قد عبد العجل ؟ كان بنو إسرائيل متأثرين بالديانة المصرية القديمة وقد بعث الله إليهم موسى عليه السلام ليعيدهم إلى عبادة الله وحده ، ولولا دعوته إلى عبادة رب الناس إله الناس لما كان هناك من سبب لنشوب العداوة بينه وبين فرعون ما دام كان يدعو إلى ديانة الفراعين .

إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى كانوا متأثرين بديانة المصريين القدماء وقد زعموا أن موسى عليه السلام قد اتخذ ثعبانا من النحاس البراق ليشفى به الناس ، وهو زعم لا يمكن لعقل سليم أن يتصوره إذا ما عرف أن موسى عليه السلام كان ينهى عن صنع التماثيل ، وأن ذلك جاء فى توراة المنفى التى عادت تقرر اتخاذ موسى لتمثال ثعبان . وإنه لرغم لا يقبله عقل إذا عرف أن موسى الذى يدعو إلى عبادة الله وحده يتخذ ثعبانا دون أن يدري أن ذلك شرك بربه . وأن حزقيال يكتشف بعده عمات السنين أن ذلك الثعبان ليس من الدين فى شيء فرفعه من بيت المقدس .

موسى عليه السلام ينهى عن صنع التماثيل ثم يحول عصاه إلى صورة ثعبان ، وليس ذلك فقط بل يصنع تمثالا من النحاس البراق ليشفى به الناس . مزاعم متهافة لا تتفق مع المطلق وإن كانت تتواءم مع أفكار الكهان الذين حوروا توراة الله إلى سجل يخفى قدر الأنبياء ويلطحهم بعار الشرك وعار الخس

ويحضر الناس على التمسك بتوافه المظاهر المادية ويشترهم برضا الرب ما داموا محافظين على حقوق الكهنة من لحوم وهدايا وأنفال .

ولقد ع برستد مؤقتا ويعود إلى التوراة ستألف معها رحلتنا لنرى أن دولة إسرائيل انقسمت إلى دولتين وأصبح لكل منهما ملك . ففي السنة الثانية عشرة للملك يربعام ملك أيام على يهودا ، وفي السنة العشرين ليربعام ملك إسرائيل ملك آسا على يهوذا ، ملك إحدى وأربعين سنة في أورشليم واسم أمه معكة ابنة أبشالوم ، وعمل آسا ما هو مستقيم في عيني الرب كداود أبيه ، وأزال المأبوسين من الأرض ونزع جميع الأصنام التي عمل آباؤه ، حتى إن معكة أمه خلعتها من أن تكون ملكة لأنها عملت تمثالا لسارية ، وقطع آسا تمثالها وأحرقه في وادي قدرون ، وأما المرتفعات فلم تنزع إلا أن قلب آسا كان كاملا مع الرب كل أيامه . وأدخل أقداس أبيه وأقداسه إلى بيت الرب من الفضة والذهب والآنية . وكانت حرب بين آسا وبعشا ملك إسرائيل كل أيامهما . وصعد بعشا ملك إسرائيل على يهوذا وبني الرامة لكيلا يدع أحدا يخرج أو يدخل إلى آسا ملك يهوذا ، وأخذ آسا جميع الفضة والذهب الباقية في خزان بيت الرب وخزان بيت الملك ودفعها ليد عبده : وأرسلهم الملك آسا إلى بنهدد بن طيريمون بن حربون ملك آرام الساكن في دمشق قائلا : إن يبسى ويسك وبير أتي وأليك عهدا ، هو ذا قد أرسلت لك هدية من فضة وذهب فتعال انقض عهدك مع بعشا ملك إسرائيل فيصعد عني . فسمع بهدد للملك آسا وأرسل رؤساء الجيوش التي له على مدن إسرائيل وضرب عيون ودان وآيل بيت معكة وكل كثروت مع كل أرض نفتالي . ولما سمع بعشا كف عن بناء الرامة وأقام في نرصة . فاستدعى الملك آسا كل يهوذا . لم يكن يرى . فحملوا كل حجارة الرامة وأخشابها التي بناها بعشا وبني بها الملك آسا جميع بنيامين والمصفاة ، وبقية كل أمور آسا وكل جبروته وكل ما فعل والمدن التي

بناها أما هي مكتوبة في سفر أخبار الأيام لملوك يهوذا . غير أنه في زمان شيخوخته مرض في رجله ، ثم اضطجع آسما مع آبائه ودفن مع آبائه في مدينة داود أبيه وملك يهو شافاط ابنه عوضا عنه .

كانت قلوبهم شتى حتى قبل أن تنقسم دولتهم إلى دولتين ، أما وقد صارت إسرائيل دولة واليهودية دولة أخرى فقد تجاوزت العداوة القلوب إلى إعلان الحرب واستغاثة ملك اليهودية بملك دمشق . ولم يتعال ملك يهوذا على ملك دمشق ولم يقل إنه من الأمم من كلاب البشرية ، بل انحنى له في ود وقدم إليه الهدايا ليحقق مآربه الدنيوية . واستمرت الحروب بين إسرائيل واليهودية ، وما من ملك من ملوكهم سار في طريق الرب ، أصابتهم جميعا لعنة كتاب التوراة التي صبوها بلا حساب على أنبياء الله وكل الملوك بلا تفرق . وقد جعلوا الله يقول عن بعشا : « من أجل أني قد رفعتك من التراب وجعلتك رئيسا على شعبي إسرائيل ، ففسرت في طريق يريعام وجعلت شعبي إسرائيل يخطئون ويعيظوني بخطاياهم ، ها نذا أنزع نسل بعشا ونسل بيته وأجعل بيتك لبيت يريعام بن باط ، فمن مات لبعشا في المدينة تأكله الكلاب ، ومن مات له في الحقل تأكله طيور السماء ، وبقية أمور بعشا وما عمل وجبروته أما هي مكتوبة في سفر أخبار الأيام لملوك إسرائيل ؟ واضطجع بعشا مع آبائه ودفن في نرصة ، وملك أيلة ابنه عوضا عنه .

لم يستطع الذين كتبوا التوراة أن يفهموا أن الملك لله يؤتية من يشاء : فإذا انتقل الملك من بيت إلى بيت فذلك في زعمهم دليل غضب الله على أهل بيت الملك الذي رال . ولا بد أن الملك قد أغضب الرب حتى نزع منه الملك ، وليس لروال الملك تفسير آخر عدهم . فالملك هو عاية المراد من الرب ، ما داموا لا يؤمنون ببعث ولا نشور ولا جنة إلا جنتهم الأرضية ، والسلطان هو الأمل المنشود والعاية التي ما بعدها غاية حتى لو جلب الشقاء ، فزوال

ذلك النعيم الأَرْضِيَّ يحمل في طياته غضبا ربايا ، والعصب الرباني لا يكون إلا بعصيان الرب وتكبر طريقه . وكان هذا الفهم هو المسيطر على عقول الذين كتبوا التوراة في المنفى ، وكان جزءا كل من انتزع الملك منه أن « من مات لذلك المدك في المدينة تأكله الكلاب ، ومن مات له في الحقل تأكله طيور السماء » . والقرآن الكريم يعارض هذه النظرية الخاطئة : « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إلك على كل شيء قدير » (١) .

ويستمر الذين كتبوا التوراة في المنفى في تسحيل تاريخ إسرائيل واليهودية ، ويلاحظ أن ما من ملك إلا وكان معه نبي . والنبوة عند بني إسرائيل تختلف في معناها عن النبوة في الإسلام ؛ فالنبي في التوراة هو الملهم الذي يخبر بشيء من أمور الغيب المستقلة ، وقيل إن معنى أصل مادته في العبرانية القديمة المتكلم بصوت جهوري مطلقا أو في الأمور التشريعية ، أما النبوة في الإسلام فهي مقترنة بوحى الله ، والنبي من أوحى الله إليه وحيا ، فإن أمره بتبليغه كان رسولا : فكل رسول نبي وما كل نبي رسول . وقد انقطعت النبوة والرسالة معا بعد محمد — ﷺ .

وجاء في تفسير « نبي » أنبياء . نبوة « من قاموس الكتاب المقدس المطبوع في المطبعة الأمريكية في بيروت سنة ١٨٩٤ ما نصه :

« النبوة لفظة تفيد معنى الإخبار عن الله وعن الأمور الدينية ولا سيما عما سيحدث فيما بعد . وسمى هارون نبيا لأنه كان الخبير والمتكلم عن موسى نظرا لفصاحته ( خروج ٧ : ١ ) . أما أنبياء العهد القديم فكانوا ينادون بالشرعة الموسوية ويبشون بمجيء المسيح . ولما قلت رغبة الكهنة وقل اهتمامهم بالتعليم والعلم في أيام صموئيل أقام مدرسة في الرامة وأطلق على تلامذتها اسم بني

الأنبياء ، فاشتهر من ثم صموئيل بإحياء الشريعة وقرن اسمه باسم موسى وهارون في مواضع كثيرة من الكتاب . وتأسست أيضا مدارس أخرى للأنبياء في بيت إيل وأريحا والخلجل وأماكن أخرى . وكان رئيس المدرسة النبوية يدعى أبأ أو سيدا ، وكان يعلم في هذه المدارس تفسير التوراة والموسيقى والشعر ، ولذلك كان الأنبياء شعراء وأغلبهم كانوا يرثون ويلعبون على آلات الطرب . وكانت الغاية من هذه المدارس أن يرشح الطلبة فيها لتعليم الشعب . أما معيشة الأنبياء وبنى الأنبياء فكانت سادجة للعاية ، وكثير منهم كانوا متنسكين أو طوافين يضافون عند الأنقياء .

ويظهر أن كثيرين من الذين تعلموا في تلك المدارس لم يعطوا قوة على الإنبياء بما سيأتي ، إنما اقتص بهذه الخصوصية أناس مهم كان الله يقيمهم وقتا دون آخر حسب مشيئته ويعددهم بترية فوق العادة لواجباتهم الخطيرة . على أن بعض الأنبياء الملهمين كان يختصهم الله بوحية ولم يتعلموا من قبل ولا دخلوا تلك المدارس كعاموس مثلا ، فإنه كان راعيا وجاني جميز . أما النبوة فكانت على أنواع مختلفة كالأحلام والرؤى والتبليغ ، وأحيانا كثيرة كان الأنبياء يرون الأمور المستقبلية بدون تمييز أزمنتها ، فكانت تقترن في رؤاهم الحوادث القريبة العهد مع البعيدة ... ١ .

فالنبوة عند بنى إسرائيل كانت صناعة تعلم موادها في المدارس ويستعان على الإقناع بها بالتخيلات الشعرية والإلهامات الكلامية والمؤثرات الفنية والموسيقية والمعلومات المكتسبة ، وكان أنبيأؤهم متنسكين أو طوافين على الناس يعيشون ضيوفا عند الأنقياء المحيين لرجال الدين كما هو المعهود من دراويش المتصوفة أهل الطرق في المسلمين . فلا عجب إن فاضت توراة المنفى معاصيهم فهم ليسوا معضومين من المعاصي والردائل ، فأنه لم يرسلهم إلى البشر لهدايتهم بل استمدوا نبوتهم من الأحلام والرؤى المامية والتخيلات

المبهمة والإخبار عن الأمور المستقبلية ، وما أكثر ما كانت نبوءتهم تخطئ . وقد كانوا لا يفترقون في كثير أو قليل عن العرافين والمنجمين بله الروحانيين المكاشفين .

ولنعد إلى التوراة لنرى كيف ارتد بنو إسرائيل بعد أن عرفوا التوحيد ، وكيف ذبحوا أبنائهم قربانا لآلهتهم بعد أن قضى إبراهيم الخليل على هذه العادة ، وكيف عادوا لعبادة آلهة الشعوب بعد أن طال عليهم الأمد وقست قلوبهم .

« وأخاب بن عمري ملك على إسرائيل في السنة الثامنة والثلاثين لأسا ملك يهوذا ، وملك أخاب بن عمري على إسرائيل في السامرة اثنتين وعشرين سنة . وعمل أخاب بن عمري الشر في عيني الرب أكثر من جميع الذين قبله ، وكأنه كان أمرا رهيدا سلوكه في خطايا يربعام بن بباط حتى اتخذ إيزابل ابنة أثبعل ملك الصيونيئيين امرأة وسار وعبد البعل وسجد له . وأقام مذبحا للبعل في بيت البعل الذي بناه في السامرة . وعمل أخاب سوارى وزاد أخاب في العمل لا غاطة الرب إله إسرائيل أكثر من جميع ملوك إسرائيل الذين كانوا قبله ، في أيامه بنى حنينيل اليتشيل أريحا ، بأيرام بكره وضع أساسها . ويسجوب صعيه نصب أبوابها حسب كلام الرب الذي تكلم به عن يد يشوع بن نون » .

هل كان ذبح الابن البكر عند وضع أساس أريحا بأمر من رب إسرائيل ؟ وهل أوحى الله إلى يشوع بن نون أن يذبح باقى أريحا بكركه عند وضع أساسها ؟ يا رب ! ما كل هذا الظلام الذى يحيم على توراة المنفى ؟ إن أنفاسى تضيق وأنا أقرأ هذه الإصحاحات ، وأعوذ بجلال وجهك يا نور السماوات والأرض أن تكون كل هذه الطلعات من وحيك . إن الذين كتبوا التوراة في المنفى عميت قلوبهم التى في صدورهم عن بورك ، فغمسوا أقلامهم في

ظلمات أفدتهم فجاءت توراتهم تبض بحقدهم وقسوتهم وفساد القصور التي كانوا فيها يتمرغون .

« وقال إيليا اليتيمى من مستوطى جلعاد لآخاب : حى هو الرب إله إسرائيل الذى وقفت أمامه : إنه لا يكون ظل ولا مطر فى هذه السنين إلا عند قولى .

وكان كلام الرب له قائلاً : انطلق من هذا واتجه نحو المشرق واختبئ عند سحر كريت الذى هو مقابل الأردن ، فتشرب من النهر ، وقد أمرت الغربان أن تعولك هناك . فانطلق واعمل حسب كلام الرب . فذهب وأقام عند سحر كريت الذى هو مقابل الأردن ، وكانت الغربان تأتى إليه بخبز ولحم صباحاً وبخبز ولحم مساءً وكان يشرب من النهر . وكان بعد مدة من الزمان أن النهر يس لأنه لم يكن مطر فى الأرض .

وكان له كلام الرب قائلاً : قم اذهب إلى صرفة التى لصيدون وأقم هناك ، هو ذا قد أمرت هناك امرأة أرملة تعولك ، فقام وذهب إلى صرفة ، وجاء إلى باب المدينة وإذا بامرأة أرملة هناك نقش عياداً فناداها وقال : هاتى لى قليل ماء فى إناء فأشرب ، وفيما هى ذاهبة لتأتى به ناداها وقال : هاتى لى كسرة خبز فى يدك . فقالت : حى هو الرب إلهك . إنه ليست عندى كعكة ولكن ملء كف من الدقيق فى الكوار وقليل من الزيت فى الكوز ، وهأنذا أقش عودين لآتى وأعمله لى ولابى لأأكله ثم نموت . فقال لها إيليا : لا تخافى ادخلى واعملى كقولك ، ولكن اعملى لى منها كعكة صغيرة أولاً واحرجى بها لى ، ثم اعملى لك ولابتك أخيراً ، لأنه هكذا قال الرب إله إسرائيل : إن كوار الدقيق لا يفرغ وكوز الزيت لا ينقص إلى اليوم الذى يعطى الرب مطراً على وجه الأرض . فذهبت وفعلت حسب قول إيليا وأكلت هى وهو وبيتها أياماً . كوار الدقيق لم يفرغ وكوز الزيت لم ينقص حسب قول الرب الذى تكلم به عن

يد إيليا .

وبعد هذه الأمور مرض ابن المرأة صاحبة البيت واشتد مرضه جدا حتى لم تبق فيه نسمة . فقالت لإيليا مالى ولك يا رجل الله ؟ هل جئت إلى لتذكيرى إثمى وإماتة ابنى ؟ فقال لها : أعطينى ابنك . وأخذه من حضنها وصعد به إلى العلية التى كان مقيما بها وأضجعه على سريريه ، وصرخ إلى الرب وقال : أيها الرب إلهى آيضا إلى الأرملة التى أنا نازل عندها قد أسأت بإماتتك ابها . فحمدد على الولد ثلاث مرات وصرخ إلى الرب وقال : يا رب إلهى لترجع نفس هذا الولد إلى جوفه . فسمع الرب لصوت إيليا فرجعت نفس الولد إلى جوفه فعاش . فأخذ إيليا الولد ونزل به من العلية إلى البيت ودفعه لأمه ، وقال إيليا : انظرى ابنك حى ، فقالت المرأة لإيليا : هذا الوقت علمت أنك رجل الله وأن كلام الرب فى فمك حق .

فى أى شريعة يصرح لرجل أن يبيت مع امرأة غريبة فى بيت واحد ، سواء أكان يبيت فى العالية أم فى ححرتهما ؟ إن الذين كتبوا التوراة زعموا أن الله أوحى إلى إيليا أن يتطلق إلى بيت الأرملة الحافظة ليعيش عندها ، فأيليا ليس من خريجى معهد الأنبياء فحسب بل قد أوحى إليه ، فهل يعقل أن نبيا سحر الله له الغربان لتطعمه خزا ولحما فى الصباح وفى المساء يتهم ربه بالإساءة دائما فيقول له فى قحة : آيضا إلى الأرملة التى أنا نازل عندها قد أسأت بإماتتك ابنها ؟ إنه قول يكشف رأى رجل الله فى ربه وهو قول تقشعر منه أبدان الذين يتقون الله حق تقافته ، سبحانه رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون .

وبعد أيام كثيرة كان كلام الرب إلى إيليا فى السنة الثالثة قائلا : اذهب وتراء لأخآب فأعطى مطرا على وجه الأرض . فذهب إيليا ليتراءى لأخآب وكان الجوع شديدا فى السامرة ، فدعا أخآب عوبديا الذى على البيت . وكان

عوبديا يخشى الرب جدا . وكان حينما قطعت إيزابيل أنبياء الرب أن عوبديا  
أخذ مائة سبي وخباهم خمسين خمسين رجلا في مغارة وعالمهم بحبز وماء . وقال  
أحآب لعوبديا : اذهب في الأرض إلى جميع عيون الماء وإلى جميع الأودية لعلنا  
نجد عشباً فتحبى الخيل والبغال ولا نعدم البهائم كلها . فقسما بينهما الأرض  
ليعبرا بها ، فذهب أحآب في طريق واحد وحده وذهب عوبديا في طريق آخر  
وحده . وفيما كان عوبديا في الطريق إذا بإيليا قد لقيه . فعرفه وخر على وجهه  
وقال : أنت هو سيدى إيليا ؟ فقال له : أنا هو . اذهب وقل لسيدك : هو  
ذا إيليا . فقال : ما هى خطيئتي حتى إنك تدفع عبدك ليد أحآب ليميتنى احي  
هو الرب إلهك ، إنه لا توجد أمة ولا مملكة لم يرسل سيدى إليها ليفتش  
عليك ، وكانوا يقولون إنه لا يوجد ، وكان يستحلف المملكة والأمة إنهم لم  
يجدوك . والآن أنت تقول اذهب قل لسيدك هو ذا إيليا ، ويكون إذا انطلقت  
من عندك أن روح الرب يملكك إلى حيث لا أعلم . فإذا أتيت وأخبرت أحآب  
ولم يجدك فإنه يقتلى . وأنا عبدك أخشى الرب منذ صباى . ألم يُحبر سيدى  
بما فعلت حين قتل إيزابيل أنبياء الرب إذ حياأت من أنبياء الرب مائة رجل  
خمسين خمسين رجلا في مغارة ، وعالمهم بحبز وماء ، وأنت الآن تقول اذهب  
قل لسيدك هو ذا إيليا ، فيقتلنى . فقال إيليا حى هو رب الجنود الذى أنا واقف  
أمامه إلى اليوم أترأى له ، فذهب عوبديا للقاء أحآب وأخبره ، فذهب أحآب  
للقاء إيليا .

قال — ﷺ : « علماء أمتى كأَنْبياء بنى إسرائيل » . وصدق رسول الله  
— عليه صلوات الله وسلامه . فعلماء المسلمين يجتهدون في تفسير القرآن المحيد  
ويقرض أغلبهم الشعر ، وأنبياء بنى إسرائيل الذين يتخرجون في معهد الأنبياء  
في الرامة أو بيت إيل يجتهدون في تفسير التوراة التي نزلت على موسى نورا  
وهدى لبني إسرائيل قبل أن يحرقها بختنصر ، وقبل أن تكتب توراة المفقى على

أنقاض أساطير الشعوب وديانات الأمم وأقوال الحكماء الأقدمين ، وكانوا يتعلمون الشعر والموسيقى ولا أحسب الموسيقى إلا نوعا من التجويد الذى يتعلمه علماء المسلمين .

كان أنبياء بنى إسرائيل المشتغلون بالتفسير فى مكانة علماء المسلمين ، وقد انخطت مكانة أنبياء بنى إسرائيل الذين عكفوا على تفسير توراة المضى عن مكانة علماء المسلمين ، فهؤلاء يفسرون مزاعم أناس كتبوا توراتهم عداد الحقد والدنس والكراهية ، وهؤلاء يفسرون كتابا أحكمت آياته من لدن عزيز خبير .

« ولما رأى أخآب إيليا قال له أخآب : أنت هو مكدر إسرائيل ؟ فقال : لم أكدر لإسرائيل بل أنت وبيت أبيك بترككم وصايا الرب وسيرك وراء البعليم . فالآن أرسل واجمع إلى كل إسرائيل إلى جبل الكرمل وأنبياء البعل أربع المائة والخمسين وأنبياء السوارى أربع المائة الذين يأكلون على مائدة إيزابل . فأرسل أخآب إلى جميع بنى إسرائيل ، وجمع الأنبياء إلى جبل الكرمل ، فتقدم إيليا إلى جميع الشعب وقال : حتى متى تخرجون بين الفريقين ؟ إن كان الرب هو الله فاتبعوه وإن كان البعل فاتبعوه ، فلم يجبه الشعب بكلمة ، ثم قال إيليا للشعب : أنا بقيت نبيا للرب وحدى وأنبياء البعل أربع مائة وخمسون رجلا ، فليعطونا ثورين فيحتاروا لأنفسهم ثورا واحدا ويقطعوه ويضعوه على الحطب ولكن لا يضعوا نارا ، وأنا أقرب الثور الآخر وأجعله على الحطب ولكن لا أضع نارا . ثم تدعون باسم ألهتكم وأنا أدعو باسم الرب ، والإله الذى يحيب بنار فهو الله . فأجاب جميع الشعب وقالوا : الكلام حسن . فقال إيليا لأنبياء البعل : اختاروا لأنفسكم ثورا واحدا وقربوا أولا لأنكم أنتم الأكثر ، وادعوا باسم ألهتكم ولكن لا تضعوا نارا . فأخذوا الثور الذى أعطى لهم وقربوه ودعوا باسم البعل من الصباح إلى الظهر قائلين :

يا يعل أجبنا . فلم يكن صوت ولا مجيب ، وكانوا يرقصون حول المذبح الذى عمل . وعند الظهر سخر بهم إيليا وقال : ادعوا بصوت عال لأنه إله . لعله مستغرق أو فى خلوة أو فى سفر أو لعله نائم فينتبه . فصرخوا بصوت عال وتقطعوا حسب عاداتهم بالسيوف والرماح حتى سال منهم الدم ، ولما جاز الظهر وتنبأوا إلى حين إصعاد التقدمة ولم يكن صوت ولا مجيب ولا مُصغ ، قال إيليا لجميع الشعب تقدموا إلتى . فتقدم جميع الشعب إليه . فرم مذبح الرب المتهدم ، ثم أخذ إيليا اثنى عشر حجرا بعدد أسباط بنى يعقوب الذى كان كلام الرب إليه قائلا : إسرائيل يكون اسمك . وبنى الحجارة مذبحا باسم الرب وعمل قناة حول المذبح تسع كيتتين من الزُّر ، ثم رتب الحطب وقطع الثور ووضع على الحطب وقال : املاؤا أربع جرات ماء وصبوا على المحرقة وعلى الحطب ، ثم قال ثنوا . فثنوا ، وقال ثلثوا ، فثلثوا . فجرى الماء حول المذبح وامتلات القناة أيضا ماء . وكان عد إصعاد التقدمة أن إيليا النبى تقدم وقال : أيها الرب إله إبراهيم وإسحاق وإسرائيل ليُعلم اليوم أنك أنت الله فى إسرائيل وأنى أنا عبدك وبأمرك قد فعلت كل هذه الأمور . استجبنى يا رب . استجبنى ليُعلم هذا الشعب أنك أنت الرب الإله وأنتك أنت حولت قلوبهم رجوعا . فسقطت نار الرب وأكلت المحرقة والحطب والحجارة والتراب ولحست المياه التى فى القناة . فلما رأى جميع الشعب ذلك سقطوا على وجوههم وقالوا : الرب هو الله ، الرب هو الله . فقال لهم إيليا : أمسكوا أنبياء البعل ولا يُعلت منهم رجل . فأمسكوهم فنزل بهم إيليا إلى نهر فشون وذبحهم هناك .

تطلق هذه الإصحاحات لفظة « نبى » على الذين يخدمون البعل كما تطلقها على الذين يخدمون الله ، فلا فرق بينها وبين الكاهن . وقد قيل إن معنى أصل مادته فى العبرانية القديمة : المتكلم بصوت جهورى مطلقا أو فى الأمور التشريعية ، وعلى ذلك فليس هناك فرق بين أنبياء البعلين وأنبياء بنى إسرائيل

ما دام الجميع يتكلمون بصوت جهورى في أمور الدين ، ولعل ذلك هو السبب في أن السيد المسيح قد فرق بين الأنبياء الكذبة ، أما الإسلام فإنه لا يعرف من أنواع الأنبياء إلا الأنبياء الذين أوحى الله إليهم وحيا . أما الذين يدعون النبوة دون وحى الله فهم في عرف الإسلام دجالون لا تلقى إليهم الأسماع .

جاء جميع الرسل والأنبياء لتعليم الناس ما به يصلح حالهم ويستعدون لما لهم بطريق التبشير لمن آمن وأصلح عملا ، بحسن الثواب ، وإنذار من كفر وأفسد عملا ، بالعذاب . وحكمة ذلك أن لا يكون للناس على الله حجة بجهلهم ما يجب عليهم من أصول الإيمان ، وما تصلح به الأنفس وتزكى من صالح الأعمال ، فتسعد لسعادة الدنيا بقدرها وسعادة الآخرة من بعدها . ولكن الذين كتبوا التوراة في المنفى جعلوا الثواب والعقاب في الدنيا ، فلا ذكر لدار الآخرة وما أعد فيها للمتقين ، ولا ذكر للنار التي أعدت للكافرين .

إن إيليا قد ذبح أنبياء البعل الكاذبين ولم يشرهم بعذاب أليم ؟ وقد يكون القتل جراء للكافرين فما هو جزاء الشهداء والصالحين ؟ وما هي العقوبة التي تنزل بالظالمين إذا انتهت أيامهم على الأرض دون عقاب ؟ ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون <sup>(١)</sup> .

أتى إيليا بمعجزة على الملأ ، فلما رأى الشعب نار الرب تأكل القربان — كما زعم كتاب التوراة — خر الناس ساجدين وقالوا : الرب هو الله ، الرب هو الله . عادوا إلى الصراط المستقيم ولكن هذه الهداية لم ترض كتاب التوراة فهم لا يرضون عن النهايات السعيدة بل لا بد من أن تنتهى حياة البشر بمأساة ، وأن ينتهى دور الأنبياء بالإحفاق ، وأن يتصر الكفر على الإيمان ليكون ذلك سببا

في سقوط بيت من بيوت الملك وانتقاله إلى بيت آخر .

وقال إيليا لأخآب اصعد كل واشرب لأنه حس دوى مطر . فصعد أخآب لياكل ويشرب ، وأما إيليا فصعد إلى رأس الكرمل وحر إلى الأرض وجعل وجهه بين ركبتيه وقال لعلامه : اذهب تطلع نحو البحر . فصعد وتطلع وقال : ليس شيء . فقال : ارجع . سبع مرات . وفي المرة السابعة قال : هوذا عيمة صغيرة قدر كف إنسان صاعدة من البحر . فقال : اصعد قل لأخآب اشدد وانزل فللا يمنعك المطر . وكان من هنا إلى هنا أن السماء اسودت من الغيم والريح وكان مطر عظيم . فركب أخآب ومضى إلى يزرعيل ، وكانت يد الرب على إيليا فشده حقويه وركض أمام أخآب حتى نجي إلى يزرعيل .

وأخبر أخآب إيزابل بكل ما عمل إيليا وكيف أنه قتل جميع الأنبياء بالسيف . فأرسلت إيزابل رسولا إلى إيليا تقول : هكذا تفعل الآلهة وهكذا تريد إن لم أجعل نفسك كنفس واحد منهم في نحو هذا الوقت عدا . فلما رأى ذلك قام ومضى لأجل نفسه ، وأتى إلى بئر سبع التي ليهودا وترك علامه هاك ، ثم سار في البرية مسيرة يوم حتى أتى وجلس تحت رثمة وطلب الموت لنفسه وقال : قد كفى الآن يا رب ، خذ نفسي لأنى لست حيرا من آياتي ، واصططجع ونام تحت الرثمة وإذا بملاك قد مسه وقال : قم وكل . فتطعم وإذا كعكة رصف وكور ماء عند رأسه فأكل وشرب ثم رجع فاضطجع . ثم عاد ملاك الرب ثانية فمسه وقال : قم وكل لأن المسافة كثيرة عليك . فقام وأكل وشرب وسار بقوة تلك الأكلة أربعين نهارا وأربعين ليلة إلى جبل الله حوريب ، ودخل هاك المعارة وبات فيها .

وكان كلام الرب إليه يقول له : مالك ههنا يا إيليا ؟ فقال : قد غرت غيرة للرب إله الجنود لأن بنى إسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا ميثاقك وقتلوا أنبياءك بالسيف ، فبقيت أنا وحدى وهم يطلبون نفسى لياخذوها . فقال : ( غزوة تبوك )

اخرج وقف على الجبل أمام الرب . وإذا بالرب عابر وريح عظيمة وشديدة قد شقت الحبال وكسرت الصخور أمام الرب ولم يكن الرب في الريح ، و بعد الريح رلزلة ولم يكن الرب في الزلزلة ، وبعد الرلزلة نار ولم يكن الرب في النار وبعد النار صوت منخفض خفيف . فلما سمع إيليا لف وجهه برادته ووقف في باب المغارة ، وإذا بصوت إليه يقول : مالك ههنا يا إيليا ؟ فقال : غرت غيرة للرب إله الجنود لأن بنى إسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا ميثاقك وقتلوا أنبياءك بالسيف فبقيت أنا وحدي ، وهم يطلبون نفسي ليأخذوها . فقال له الرب : اذهب راجعا في طريقك إلى بركة دمشق وادخل وامسح حزائيل ملكا على آرام ، وامسح يا هو بن نمشي ملكا على إسرائيل ، وامسح إليشع بن شافاط من آيل محولة نيبا عوضا عنك . فالذى ينجو من سيف حزائيل يقتله يا هو ، والذى ينجو من سيف يا هو يقتله إليشع ، وقد أبقيت في إسرائيل سبعة آلاف كل الركب التي لم تجث للبعل وكل فم لم يقبله .

فذهب من هناك ووجد إليشع بن شافاط يحرق وإثنا عشر فدان بقر قدماه وهو مع الثاني عشر . فمر إيليا به وطرح رداءه عليه . فترك البقر ورخص وراء إيليا وقال : دعني أقبل أبى وأمى وأسير وراءك . فقال له : اذهب راجعا لأبى ماذا فعلت لك . فرجع من وراءه وأخذ فدان بقر ودبجهما وعلق اللحم بأدوات البقر وأعطى الشعب فأكلوا . ثم قام ومضى وراء إيليا وكان يخدمه .

لم يشفع لإيليا أن النار قد أكلت قربانه وأن الشعب قال وهو يخر ساجدا : إله إسرائيل . إله إسرائيل . فإيزابيل قد أصرت على قتله فقر من وجهها إلى الله وهو يدعو ربه أن ينهى حياته بأسا وقسوطا ، وما كان لنبي يصطفيه الله أن يضيق بنعمة أنعمها الله عليه فالنبوة أعظم تكريم يكرم به الله عبده ، وما من نبى إلا وقد حمل أعباء النبوة وهو راض عما يحتمل من أدى في سبيل ربه ، فهو

يعيش مع الله وبالله متفرح بالنظر إلى وجهه ، وإن آلام الأرض كلها لتذوب أمام وحى يوحى ، وظلمات القسوط لا بد أن تتبدد أمام شروق نور الله في قلبه ، فقول إيليا لربه : قد كفى الآن يا رب خذ نفسك لأسى لست خيرا من آباءى لا يتسق مع النوة ، فهو مرار من حمل النبوة لا يليق ببى اصطفاه ربه ، فذلك الزعم من وهم الذين كتبوا التوراة في المنفى ، فقد كانوا يتمنون الموت لما كان اليأس من العودة إلى فلسطين يذب في أفئدتهم ، فوصعوا ما هم فيه من حالة نفسية وأعاروا أنبياءهم ما هم فيه من قلق ويأس وقسوط .

إن يأس إيليا وقسوطه لا يتساق مع ما هو مفروض في الأنبياء من امتثال أوامر الله : « ولقد كُذِّبَ رسل من قبلك فصبروا على ما كُذِّبُوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين . وإن كان كبير عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبغى نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكون من الخاهلين » (١) . ويعود كسرة التوراة لتأكيد الصورة الحاططة التي كونوها في أذهانهم عن الله سبحانه وتعالى عما يصفون علوا كبيرا ، فيصفونه بالعبور وبالمرور ، ويجعلون له مكانا ظلل العمائم والريح والزلزلة والنار : « ولقد أتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لعمى شك منه مريب » (٢) .

ولنعد إلى الإصحاح العشرين من سفر الملوك الأول لندرك أن الدلالة والمسكنة قد ضربت على بنى إسرائيل حتى وهم سادة في فلسطين قبل أن يأخذهم يختنصر سبأيا إلى أرض العراق : « وجمع بنهدد ملك آرام كل جيشه وأثنين وثلاثين ملكا معه وخيلا ومركبات ، وصعد وحاصر السامرة وحارها وأرسل رسلا إلى أحاب ملك إسرائيل إلى المدينة وقال له : هكذا يقول بنهدد .

لى فضتك وذهبك ولى نساؤك وبنوك الحسان . فأجاب ملك إسرائيل وقال :  
حسب قولك يا سيدى الملك أنا وجميع مالى لك .

إن أخآب ملك إسرائيل يقبل تهديد ملك دمشق ولكن الشيوخ  
يرفضون ، وتدور معركة بين بنى إسرائيل وبنهد ويهزم رجال إسرائيل بنهد  
والمملوك الذين كانوا معه ، وإنه بعيد عن التصور أنه كان هناك اثنان وثلاثون  
ملكاً غير بنهد فى منطقة الشام إلا إذا كان الذين كتبوا التوراة فى المنفى قد  
أطلقوا على شيوخ القبائل لقب ملوك كما أطلقوا لفظة نبي على الدارسين فى  
مدارس الأنبياء فى الرامة وبيت إيل .

وانتهت الحرب بين أخآب وبين بنهد بعقد معاهدة بينهما اتفق فيها على أن  
يرد أخآب المدن التى أخذها أبوه إلى بنهد ، ولم ينج أخآب الذى هزم بنهد  
والمملوك من لمة كتاب التوراة فقد جعلوا أخآب يعتصب كرم جاره بتدبير  
امراته إيزابل ، فيعصب الرب على أخآب وإيزابل ويقول : « هأنذا أجلب  
عليك شرا وأبيد نسلك وأقطع لأخآب كل بائل بحائط ، ومحوز ومطلق فى  
إسرائيل ، وأجعل بيتك كبيت يربعام بن نباط وكبيت بعشا بن أخيا لأجل  
الإعازلة التى أعظمتى ولجعلك إسرائيل بخطيئة . وتكلم الرب عن إيزابل أيضا  
قائلا : إن الكلاب تأكل إيزابل عند مترسة يزرعيل ، من مات لأخآب فى  
المدينة تأكله الكلاب ومن مات فى الحقل تأكله طيور السماء . ولم يكن  
كأخآب الذى باع نفسه لعمل الشر فى عينى الرب الذى أغوته إيزابل امرأته .  
ورجس جدا بذهابه وراء الأصنام حسب كل ما فعل الآموريون الذين  
طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل ، ولما سمع أخآب هذا الكلام شق ثيابه  
وجعل مصححا على جسده ، وصام واصطجع بالمسح ، ومشى بسكوت .  
فكان كلام الرب إلى إيليا النشبي قائلا : هل رأيت كيف أتضع أخآب  
أمامى ؟ فمن أجل أنه قد اتضع أمامى لا أجلب الشر فى أيامه بل فى أيام ابه

أجلب الشر على بيته .

وجعلوا إله إسرائيل إلها سوداوى المزاج يتربص بعباده ، لا يرحم ولا يقبل التوبة بل يؤجل انتقامه ويقرر أن ينتقم من الابن قبل أن يفعل الابن خيرا أو شرا ، لكأنما كان إله إسرائيل عدوا لعباده ينصب لهم الشرك ليسقطوا في الخطيئة ثم يسومهم سوء العذاب على ما اقترفوا من خطأ ، ولا جرم فهو قد ندم على أنه قد خلق البشر وبات يتربص بهم حتى لا ينافسوه في ملكه !

وتنشب حرب بين أخآب ملك إسرائيل ويهو شافاط ملك يهوذا من ناحية ، وبين ملك آرام . ويقتل أخآب ويصبح أخزيا بن أخآب ملكا على إسرائيل دون أن يدري أن إله إسرائيل يتربص به وأنه سيحلب عليه الشر وعلى بيته جزاء على ما اقترف أبوه من معاصى قبل أن يتوب ، فالتوبة عند إله إسرائيل لا تعسل الذنوب ، وهو يفقد ذنوب الآباء في الأبناء حتى الحيل الرابع ، وهذا هو عدله إن كان الذين كتبوا التوراة في المنفى قد عرفوا العدل الإلهى .

لا توبة في التوراة وكيف يتوب إله ندم على أنه خلق البشر وأصبح يحشى منافستهم إياه ؟ لقد أعلق الذين كتبوا التوراة كل أبواب المغفرة في وجوه الناس ، وما فائدة التوبة والمغفرة إذا كان الثواب أو العقاب يناله المرء في هذه الدنيا الفانية ، وأن عمل المرء ينقطع بموته ؟

لم تعرف التوراة — أو بمعنى أصح — الذين كتبوا التوراة بأيديهم التوبة والمغفرة ورحمة الله ، بينما آيات القرآن المجيد تفتح أمام الناس أبواب التوبة على مصارعها وتتحدث عن رحمة الله ومغفرته حديثا فيأضاه يجعل حياة البشرية تتألق بالآمال : « علم الله أنكم كنتم تخنأون أنفسكم فتاب عليكم وعما عكم »<sup>(١)</sup> . أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه

غفور رحيم» (١) «ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم» (٢) ،  
«وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى» (٣) . «إلا من تاب  
وآمن وعمل عملاً صالحاً وأولئك يدل الله سيئاتهم حسنات» (٤) . «والذين  
عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور  
رحيم» (٥) . «ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون» (٦) .

ويتهى سفر الملوك الأول بالعبارات التقليدية التي ينتهى بها كل سفر وهى  
عبارات تؤكد دائماً كفران مسعى ملوك إسرائيل : «أخزيا بن أخاب ملك  
على إسرائيل فى السامرة فى السنة السابعة عشرة ليهو شافاط ملك يهوذا ملك  
على إسرائيل ستين ، وعمل الشر فى عينى الرب وسار فى طريق أبيه وطريق أمه  
وطريق يربعام بن نباط الذى جعل إسرائيل يخطئ ، وعبد البعل وسجد له  
وأغاظ الرب إله إسرائيل حسب كل ما فعل أبوه» .

ويبدأ سفر الملوك الثانى بانتقام إله إسرائيل من أخزيا بن أخاب وينزل به  
أقصى عقوبة يمكن أن تنزل فى إسرائيل ، وهى انتزاع الملك من يته . «وعصى  
مواب على إسرائيل بعد وفاة أخاب» .

وسقط أخزيا من الكوة التى فى عليته التى فى السامرة فمريض وأرسل رسلاً  
وقال لهم : اذهبوا اسألوا بعل زبوب إله عفرون إن كنت أبرأ من هذا المرض .  
فقال ملوك الرب لإيليا اليتشى : قم اصعد للقاء رسل ملك السامرة وقل لهم :  
أليس لأنه لا يوجد فى إسرائيل إله تدهون لتسألوا بعل زبوب إله عفرون ؟  
فلذلك هكذا قال الرب : إن السرير الذى صعدت عليه لا تنزل عنه بل موتاً  
تموت ، فاطلق إيليا ورجع الرسل إليه فقال لهم : لماذا رجعت ؟ فقالوا له : صعد

- |                   |                  |
|-------------------|------------------|
| (١) الأنعام ٥٤ .  | (٢) التوبة ١١٨ . |
| (٣) طه ٨٢ .       | (٤) الفرقان ٧٠ . |
| (٥) الأعراف ١٥٣ . | (٦) الحجرات ١١ . |

رجل لبقائنا وقال لنا اذهبوا راجعين إلى الملك الذي أرسلكم وقولوا له : هكذا قال الرب : أليس لأنه لا يوجد في إسرائيل إله أرسلت لتسأل بعل زبوب إله عفرون ؟ لذلك السرير الذي صعدت عليه لا تنزل عنه بل موتا تموت . فقال لهم : ما هي هيئة الرجل الذي صعد للقائكم وكلمكم بهذا الكلام ؟ فقالوا له : إنه رجل أشعر ممتنطق بمنطقة من جلد على حقويه ، فقال : هو إيليا البتشي ، فأرسل إليه رئيس خمسين مع الخمسين الذين له فصعد إليه وإذا هو جالس على رأس الخيل ، فقال له يا رجل الله ! الملك يقول : انزل فأجاب إيليا وقال لرئيس الخمسين : إن كنت أنا رجل الله فلتنزل نار من السماء وتأكلك أنت والخمسين الذين لك . فنزلت نار من السماء وأكلته هو والخمسين الذين له . ثم عاد وأرسل إليه رئيس خمسين آخر والخمسين الذين له ، فأجاب وقال له : يا رجل الله هكذا يقول الملك أسرع وانزل . فأجال إيليا وقال لهم : إن كنت أنا رجل الله فلتنزل نار من السماء فتأكلك أنت والخمسين الذين لك . فنزلت نار الله من السماء وأكلته هو والخمسين الذين له . ثم عاد فأرسل رئيس خمسين ثالثا والخمسين الذين له ، فصعد رئيس الخمسين الثالث وجاء وجثا على ركبتيه أمام إيليا وتضرع إليه وقال له : يا رجل الله لتكرم نفسي وأنفس عبيدك هؤلاء الخمسين في عينيك هوذا قد نزلت نار من السماء وأكلت رئيس الخمسينين الأولين وخمسينهما ، والآن فلتكرم نفسي في عييك .

فقال ملاك الرب لإيليا : انزل معه ، لا تخف منه . فقام ونزل معه إلى الملك وقال له : هكذا قال الرب : من أجل أنك أرسلت رسلا لتسأل بعل زبوب إله عفرون أليس لأنه لا يوجد في إسرائيل إله لتسأل عي كلامه . لذلك السرير الذي صعدت عليه لا تنزل عنه بل موتا تموت . فمات حسب كلام الرب الذي تكلم به إيليا . وملك بهورام عوضا عنه للسنة الثانية لبهورام بن يهو شافاط ملك يهوذا لأنه لم يكن له ابن . وبقية أمور أحزيا التي عمل أما هي

مكتوبة في سفر أخبار الأيام للملك إسرائيل .

إله إسرائيل غضب على أخزيا بن أختاب لأنه أرسل بسأل بعل زبوب إله عفرون عن مرضه ، وهو الإله الذى انقطع لشعبه واختار أن يقيم بينهم في الهيكل دون العالمين ، فلم يكن غضبه للشرك به بل كان غضبه أشبه بغضبة التاجر الذى يحزنه أن يذهب أهله إلى تاجر آخر ليشتروا منه بيضا حاجاتهم عنده . وهل كان غضب إله إسرائيل حقا لأن أخزيا ولاه ظهره واتجه إلى إله آخر أم كان يترى به مذ عصاه أختاب ؟ لم يقل قبل أن يتولى أخزيا الملك وقبل أن يرسل الرسل إلى بعل زبوب لنبية إيليا : هل رأيت كيف اتضع أختاب أمامي ؟ فمن أجل أنه قد اتضع أمامي لا أجلب الشر في أيامه بل في أيام ابنه أجلب الشر على بيته ، إنه بيت النية على جلب الشر لبيت أختاب في أيام ابنه قبل أن يعبد الابن إلها غيره ، وهل كان ذلك الوحي الذى أوحاه إلى نبية سرا أم أن إيليا قد أذاعه ؟ وإذا كان قد بلغه أم وصل إلى مسامع أخزيا فيأخذ حذرہ ؟!

تاب أختاب واتضع أمام إله إسرائيل ، أفما كانت توبته كفارة عن سيئاته ؟ فلماذا يربط إله إسرائيل بين سيئات رجل قد تاب ومصير ابنه ؟ إنه إله لا يعرف التوبة ولا الصفح ورحمته تضيق عن المغفرة ، وإن نبية إيليا لا يقل عن إلهه قسوة . إنه يتلذذ لما تسقط نار من السماء وتأكل رئيس الخمسين مع الخمسين ، إنه لم يقل كما قال أنبياء الله قبله : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون . بل قال في غرور مرتين : إن كنت أنا رجل الله فلتزل نار من السماء وتأكلك أنت والخمسين الذين لك .

لم يقل للناس إن رحمة ربه واسعة ولا ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ، بل كان يلوح بالعذاب المهين . ولم يكتف بالتلويح بل كان يسخر ربه لإنزال نار من السماء تأكل أعداءه .

إنه قاسى حقوق لا يمكن أن يكون له وجود إلا فى عقول مريضة ، وهل كانت عقول الذين أعادوا كتابة التوراة فى المنفى سقيمة ؟ كانوا أسرى فى قصور ملوك إيران فى العراق ، وكان عزرا ونحميا ودانيال أنبياءهم الذين أعادوا كتابة التوراة فى المنفى سقاة خمر لأرغحششتا ملك بابل بل كانوا معنيين له ، فماذا نتظر منهم ؟ كانوا مبهورين بالملوك الساسانيين فتحيلوا إليهم كذلك ساسانى يفعل بانفعالات إنسانية محمومة لا تعرف الصفح ولا المعفرة ، وتتهلل بالفرح إذا ما نزلت بقميتها بأعدائها ، ولا يسعى أن يعرب عن البال أن كتاب التوراة قد صوروا البشر أعداء الرب مذ تطلعوا إلى المعرفة وأصبحوا يافسون ربهم فى علمه ، وأنه قد ندم على خلقهم .

وما دامت آفاقهم كانت محدودة بالحقد والبغضاء والعدا بلى البشر لما صوروا إليهم ، فماذا نتظر منهم لما يصورون أبياءه ؟ هما دام الرب دمويًا فأنبياؤه دمويون . وما دام الرب قاسيا فأنبياؤه قساة . وما دام الرب يفتقد ذوب الآباء فى الأبناء حتى الجيل الرابع ، فأنبياؤه يباركون مثل ذلك الظلم الذى يصرخ منه كل من فى قلبه درة من عدل .

كانت شطحات أخيلتهم مادية ، لم تكن لهم أرواح شفاقة ترتفع لتفرع أبواب ملكوت السماء . وكيف تهيم العقول فى رحاب ملك الله إذا كانت الأفئدة مثقلة بالذات الأرضية ؟ ولنقرأ مع الإصحاح الثانى من سفر الملوك الثانى لترى كيف صوروا ما تصوره من صعود إيليا فى العاصفة إلى السماء :  
 « وكان عند إصعاد الرب إيليا فى العاصفة إلى السماء أن إيليا وأليشع ذهبا من الجلجلال . فقال إيليا لأليشع : امكث هنا لأن الرب قد أرسلنى إلى بيت إيل فقال أليشع : حى هو الرب وحية هى نفسك إني لا أتركك . ونزلا إلى بيت إيل . فخرج بو الأنبياء الذين فى بيت إيل إلى أليشع وقالوا له : أتعلم أنه اليوم يأخذ الرب سيدك من على رأسك ؟ فقال : نعم إني أعلم فاصتوا . ثم قال له

إيليا : يا أليشع امكث هنا لأن الرب قد أرسلنى إلى أريحا . فقال : حى هو الرب وحية هى نفسك ، إنى لا أتركك . وأتيا إلى أريحا ، فتقدم بنو الأنبياء الدين في أريحا إلى أليشع وقالوا له : أتعلم أنه اليوم يأخذ الرب سيدك من على رأسك ؟ فقال : نعم إنى أعلم فاصمتوا . ثم قال له إيليا : امكث هنا لأن الرب قد أرسلنى إلى الأردن . فقال : حى هو الرب وحية هى نفسك إنى لا أتركك . وانطلقا كلاهما . فذهب خمسون رجلا من بنى الأنبياء ووقفوا قبالتهما من بعيد . ووقف كلاهما بجانب الأردن . وأخذ إيليا رداءه ولفه وضرب الماء فانملق إلى هنا وهناك فعبير كلاهما في اليس . ولما عبرا قال إيليا لأليشع : اطلب ماذا أفعل لك قل أن أؤخذ منك . فقال أليشع : ليكن نصيب اثنين من روحك على ، فقال : صعبت السؤال . فإن رأيتى أؤخذ منك يكون لك كذلك وإلا فلا يكون . وفيما هما يسيران ويتكلمان إذا مركبة من نار وخيل من نار ففصلت بينهما فصعد إيليا في العاصفة إلى السماء . وكان أليشع يرى وهو يصرخ : يا أبى : يا أبى مركبة إسرائيل وفرسانها . ولم يره بعد . فأمسك ثيابه ومزقها قطعتين . ورفع رداء إيليا الذى سقط عنه ورجع ووقف على شاطئ الأردن ، فأخذ رداء إيليا الذى سقط عنه وضرب الماء وقال : أين هو الرب إله إيليا ؟ ثم ضرب الماء أيضا فانملق إلى هنا وهناك فعبير أليشع . ولما رآه بنو الأنبياء الذين في أريحا قبالتهم قالوا : قد استقرت روح إيليا عن أليشع . فجاعوا للقاءه وسجدوا له إلى الأرض . وقالوا له : هو ذا مع عبيدك خمسون رجلا ذوو بأس فدعهم يذهبون ويفتشون على سيدك لئلا يكون قد حملة روح الرب وطرحه على أحد الجبال أو في أحد الأودية . فقال : لا ترسلوا . فألخوا عليه حتى خجل وقال : أرسلوا . فأرسلوا خمسين رجلا ففتشوا ثلاثة أيام ولم يجدوه . ولما رجعوا إليه وهو ماكث في أريحا قال لهم : أما قلت لكم لا تذهبوا ؟ وقال رجال المدينة لأليشع : هو ذا موقع المدينة حسن كما يرى سيدى . وأما

المياه فردية والأرض محدبة . فقال : اثنوني بصحن جديد وضعوا فيه ملحاً . فأتوه به . فخرج إلى نبع الماء وطرح فيه الملح وقال : هكذا قال الرب قد أبرأت هذه المياه لا يكون فيها أيضاً موت ولا جذب . فبرئت المياه إلى هذا اليوم حسب قول أليشع الذي نطق به .

ثم صعد من هناك إلى بيت إيل ، وفيما هو صاعد في الطريق إذا بصبيان صغار خرجوا من المدينة وسخروا منه وقالوا له : اصعد يا أقرع . اصعد يا أقرع . فالتفت إلى ورائه ونظر إليهم ولعنهم باسم الرب . فخرجت دبتان من الوعر واقتستا منهم اثنين وأربعين ولداً . وذهب من هاك إلى حل الكرمل ومن هناك رجع إلى السامرة .

بنو الأنبياء في بيت إيل كانوا على علم بأن الله سيرفع إيليا إلى السماء ، وبنو الأنبياء الذين كانوا يتلقون العلم في معهد الأنبياء بأريحا كانوا على علم بأن الله سيرفع إيليا إلى السماء . ووقف خمسون رجلاً من بنى الأنبياء على صفة الأردن ليروا المعجزة كأنما قد أصدر الرب نشرة ربانية ورعت على معاهد الأنبياء ينشهم فيها بما سيفعله بنيه إيليا في ذلك اليوم .

فلما رفع إيليا — حسب زعمهم — ماذا كان موقف بنى الأنبياء الذين تلقوا النبأ العظيم من إلههم قبل أن يقع الرفع ؟ شكوا في إلههم وفي ملاكه فقالوا : هو ذا مع عبدك خمسون رجلاً دوو بأس فدعهم يذهبوا ويمتشوا على سيدك لئلا يكون قد حمله روح الرب وطرحه على أحد الجبال أو في أحد الأودية .

مقدمات لا تتواكب مع النتائج ، إعلان من رب إسرائيل لبنى الأنبياء بأنه سيرفع إيليا إليه في العاصفة في ذلك اليوم ، فلما يرفعه إذا بالشك ملاً أهدتهم فيعمى قلوبهم فيرسلون من يبحث عن نبهم خشية أن يكون روح الرب قد طرحه على أحد الجبال أو في أحد الأودية . كأنما روح الرب كان نسراً حطف

من خطف دون أن يدري حقيقة رسالته . إن قصة السندباد تلح على فكرى وأنا أقرأ هذه الإصحاحات ، فهل كان ها أصل بابل قديم استهوى عقول كتاب التوراة كما استهوت الفكرة عقل مؤلف قصة السندباد ؟ .

قد أصبح أليشع نيا بعد أن استقرت روح إيليا عليه ، وقد سجد له بنو الأنبياء وإن كان السحود لا يجوز في جميع الأديان السماوية لغير الله . فماذا فعل الرجل الذى اصطفاه إله إسرائيل ليكون مبشرا لبني إسرائيل ونذيرا ؟ كان أول عمل عظيم عمله أن التقى بصبيان وهو في طريقه إلى بيت إيل سخروا منه وقالوا له : اصعد يا أقرع .. أصعد يا أقرع . فلم يكظم غيظه ولم يحاول أن يهدى الصبيان الصغار إلى جادة الصواب بل لعنهم باسم رب إسرائيل . وسرعان ما استجاب الرب القاسى لقسوة قلب نبيه فخرجت دبتان واقرستا منهم اثنين وأربعين ولدا .

كتاب التوراة في المفى يسجلون ذلك في زهو وفخر ، وإلى أتساءل : ما هو حكم القانون الوضعى لو أن علما صغارا ساروا وراء رجل وقالوا : يا أقرع .. يا أقرع . وكان معه كلب وحشى أطلقه عليهم فاقرسهم ؟ هل يمجّد القانون ذلك الرجل وهل تصدر الصحف وقد زينت صفحاتها الأولى بصورته وكتبت تحتها عبارات المدح والثناء ؟ إنه لا يعرف قلبه الرحمة ولا الصفح الكريم ، ولا جرم فهو نبى إله يحقد على بنى البشر ويستجيب للعنات أسيائهم ويسارع بإزالة العذاب على الناس حتى ولو كانوا أطفالا لا يعقلون ما يفعلون .

وخرج بهورام بن أخآب ملك إسرائيل ويهو شافاط ملك يهودا وملك أدوم لمحاربة موآب وسألوا أليشع أن يسأل ربه عن نتيجة الحرب . فقال أليشع : « والآن فاتون بعواد ، ولما ضرب العواد بالعود كانت عليه يد الرب . فقال : هكذا قال الرب اجعلوا هذا الولدى جبابا جبابا ، لأنه هكذا

قال الرب لا ترون ريحا ولا ترون مطرا ، وهذا الوادى يمتلئ ماء فتشربون أنتم وماشيتكم وبهائمكم . وذلك يسير فى عيني الرب فيدفع موآب إلى أيديكم . فتضربون كل مدينة محصنة وكل مدينة مختارة وتقطعون كل شجرة طيبة وتطمون جميع عيون الماء وتفسدون كل حلقة جيدة بالحجارة .

إله إسرائيل يأمر عباده من إسرائيل ويهوذا أن يكونوا مفسدين فى الأرض ، أن يقطعوا كل شجرة طيبة وأن يطموا عيون الماء وأن يرحموا الحقول الجيدة بالحجارة . وإله إسرائيل لا يوحى إلى أنبيائه بعلمه إلا بعد أن يشتفوا أذنيه بأحلى الآلحان . ولا غرو فأنبأ بنى إسرائيل الذين أعادوا كتابة التوراة فى المنفى كانوا مغنين للملوك إيران فصوروا إلههم فى صورة الملوك الساسانيين الذين تمزهم أنغام العود فتتحرك أربحيتهم فيجدون على جانبي السرور إلى أخذتهم بما يطلبون .

ويقول كتاب التوراة إن الإسرائيليين واليهود نصنوا وصية ربهم : « وهدموا المدن وكان كل واحد يلقي حجره فى كل حلقة جيدة حتى ملأوها وطموا جميع عيون الماء وقطعوا كل شجرة طيبة » .

ويروى كتاب التوراة بعض معجزات أليشع وكيف أنه أحيا غلاما بعد أن مات ، وكيف أنه كثر الطعام ولم تصدر منه كلمة واحدة تدعو الناس إلى الله ، فهو يشفى الأبرص ولا يشفى أمراض النفوس . إنه يهزم جيوش الأعداء وحده ، يقول لربه : « اضرب هؤلاء الأمم بالعمى » ، فيضربهم بالعمى ، ويقول : « يا رب افتح أعين هؤلاء فيبصرون » ، فيفتح الرب أعينهم فيبصرون . إنها أحلام الذين كانوا أسرى فى بابل ، إنهم كانوا يتمنون أن يقولوا لربهم : « ارحمنا إلى أرض فلسطين » فيحملهم دون كفاح أو قتال ، ولماذا يقاتلون ولهم رب يقاتل عنهم ؟

ويغد أليشع أمر ربه بأن ينتقم من ابن أخآب عقابا لخطايا أبيه الذى تاب ،

فيقطع بذلك الملك عن بيت أخآب : « ودعا أليشع السبي واحدا من بني الأنبياء وقال له : شد حقوك وحد قبينة الدهن هذه بيدك واذهب إلى راموث جلعاد ، وإذا وصلت إلى هناك فانظر يا هو بن يهو شافاط بن يمشى وادخل وأقمه من وسط إحقوته وادخل به إلى مخدع داخل مخدع ، ثم قيسة الدهن وصب على رأسه وقل هكذا قال الرب قد مسحتك ملكا على إسرائيل ، ثم افتح الباب واهرب ولا تنتظر . فانطلق العلامة أى الغلام السبي إلى راموث جلعاد ودخل ، وإذا قواد الجيش جنوس ، فقال : لى كلام معك يا قائد . فقال يا هو : مع من منا كلما ؟ فقال : معك أيها القائد . فقام ودخل البيت فصب الدهن على رأسه وقال له : هكذا قال الرب إله إسرائيل قد مسحتك ملكا على شعب الرب إسرائيل . فتضرب بيت أخآب سيدك وانتقم لدماء عبيدى الأنبياء ودماء جميع عبيد الرب من يد إيزابل . فيبيد كل بيت أخآب واستأصل لأخآب كل بائل محائط ومحوز ومطلق في إسرائيل ، واجعل أخآب كبيت يربعام بن نباط وكبيت بعشا بن أخيا . وتأكل الكلاب إيزابل في حقل يزرعيل وليس من يدفعها ، ثم فتح الباب وهرب » .

انقلاب عسكري وقع في إسرائيل ، وقد اشترك فيه أليشع وأبناء الأنبياء الذين يتلقون النبوة في معاهد الأنبياء . فلما دون كتاب التوراة في المنفى ذلك الحادث جعلوه وحيا من السماء وثمنا لكفران أخآب وروحته إيزابل . وقد كانوا يقصدون كل حرف دونوه ، كانوا من أبناء الأنبياء فأرادوا أن يوهوا يهود المنفى أنهم يتلقون وحى السماء وأنهم ينطقون بلسان إله إسرائيل ليتلقى الشعب الذى كان في المنفى أوامرهم خاشعين ، وليهايم كل من تسول له نفسه معارضتهم خشية بطش إله إسرائيل الذى يسارع بإنزال العقاب استجابة لدعوات أنبيائه اللعائين .

ويصبح يا هو ملكا على إسرائيل ويفنى جميع عبدة البعل ويعيد إسرائيل إلى

عبادة إله إسرائيل . فماذا كان جزاؤه من كتاب التوراة : « وقال الرب لياهو : من أجل أنك قد أحسنت بعمل ما هو مستقيم في عيني وحسب كل ما في قلبي فعلت بيت أختاب ، فأبأؤك إلى الحيل الرابع يجلسون على كرسي إسرائيل ، ولكن ياهو لم يتحفظ للسلوك في شريعة الرب إله إسرائيل من كل قلبه ، ولم يحد عن خطايا يربعام الذي جعل إسرائيل يخطئ » .

أندري سبب اختلاف النتيجة عن المقدمة ؟ إن حزائيل ملك أرام ضرب إسرائيل ، وإن كتاب التوراة في المنفى لا يستطيعون أن يتصوروا ياهو قد هزم فلا بد أنه تنكب طريق الرب ، وإن كان قد قتل جميع أنبياء البعل وعبيده ، وإن كان قد أعاد إسرائيل إلى رب إسرائيل .

ويتولى الملك في إسرائيل وفي يهودا منك لا عمل لهم إلا الشر ، « وأشهد الرب على إسرائيل وعلى يهوذا عن يد جميع الأنبياء وكل راء قاتلا : إرجعوا عن طرقكم الردية واحفظوا وصايا فرائض حسب كل الشريعة التي أوصيت بها آباءكم والتي أرسلتها إليكم عن يد عبيدي الأنبياء ، فلم يسمعوها بل صلوا أقميتهم كأكفية آبائهم الذين لم يؤمنوا بالرب إلههم ، ورفضوا فرائض وعهده الذي قطعه على آبائهم وشهاداته التي شهد بها عليهم ، وساروا وراء الباطل وصاروا باطلا وراء الأمم الذين حولهم الذين أمرهم الرب أن لا يعملوا مثلهم ، وتركوا جميع وصايا الرب إلههم وعملوا لأنفسهم مسبوكات عجلى ، وعملوا سواري وسجدوا لجميع جند السماء وعبدوا البعل ، وعبروا بنهم وبناتهم في النار وعرفوا عرافة وتفاعلوا وباعوا أنفسهم لعمل الشر في عيني الرب لإعاظته . فغضب الرب جدا على إسرائيل ونحاهم من أمامه ولم يبق إلا سبط يهوذا وحده ، ويهوذا أيضا لم يحفظوا وصايا الرب إلههم بل سلكوا في فرائض إسرائيل التي عملوها . فوذ الرب كل نسل إسرائيل وأدغم ودفعهم في يد ناهبين حتى طرحهم من أمامه ، لأنه شق إسرائيل عن بيت داود

فملكوا يربعام بن ساط فأبعد يربعام إسرائيل من وراء الرب وجعلهم يخطئون خطية عظيمة . وسلك بنو إسرائيل في جميع خطايا يربعام التي عمل . لم يحيدوا عنها حتى سعى الرب لإسرائيل من أمامه كما تكلم عن يد جميع عبيده الأنبياء . ففسى إسرائيل من أرضه آشور إلى هذا اليوم .

وأُنزل الملوك الآشوريون ببني إسرائيل واليهود ألوان العذاب ، كانوا يسلحونهم أحياء وكانوا يصنعون من جماجمهم أهراما . وانتصر نبوخذنصر ملك بابل على آشور وتمرد يهوياقيم ملك يهوذا على نبوخذنصر ودفع الجزية لفرعون مصر . فصعد عبيد نبوخذنصر ملك بابل إلى أورشليم فدخلت المدينة تحت الحصار ، وجاء نبوخذنصر ملك بابل على المدينة وكان عبيده يحاصروها . فحرق يهوياكين ملك يهوذا إلى ملك بابل هو وأمه وعبيده ورؤساؤه وخصيانه وأخذ ملك بابل في السنة الثامنة من ملكه ، وأخرج من هناك جميع خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وكسر كل آنية الذهب التي عملها سليمان ملك إسرائيل في هيكل الرب كما تكلم الرب . وسبى كل أورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس عشرة آلاف صبي وجميع الصناع والأقيان ، لم يبق أحد إلا مساكين شعب الأرض . وسبى يهوياكين إلى بابل وأم الملك ونساء الملك وخصيانه وأقوياء الأرض سباهم من أورشليم إلى بابل . جميع أصحاب النأس سبعة آلاف والصناع والأقيان ألف وجميع الأبطال أهل الحرب سباهم ملك بابل إلى بابل ، وملك ملك بابل مئتين عامه عوضا عنه وغير اسمه إلى صدقيآ .

كان صدقيآ ابن إحدى وعشرين سنة حين ملك . وملك إحدى عشرة سنة في أورشليم واسم أمه حميطل بنت ارميا مت لينة ، وعمل الشر في عيسى الرب حسب كل ما عمل يهوياقيم ، لأنه لأجل غضب الرب على أورشليم وعلى يهوذا ، حتى طرحهم من أمام وجهه كان أن صدقيآ تمرد على ملك بابل . وفي

السنة التاسعة للملكه في الشهر العاشر في عاشر من الشهر جاء نبوخذنصر ملك بابل هو وكل جيشه على أورشليم ونزل عليها وبنوا عليها أبراجا حولها ، ودخلت المدينة تحت الحصار إلى السنة الحادية عشر للملك صدقيا ، في تاسع الشهر اشتد الجوع بالمدينة ولم يكن خبز لشعب الأرض . فثُغرت المدينة وهرب جميع رجال القتال ليلا من طريق الباب بين السورين اللذين نحو جنة الملك . وكان الكلدانيون حول المدينة مستدبرين ، فذهبوا في طريق البرية ، فتبعته جيوش الكلدانيين الملك فأدركوه في برية أريحا وتفرقت جميع جيوشه عنه ، فأخذوا الملك وأصعدوه إلى ملك بابل إلى رُبلة وكلّموه بالقضاء عليه وقتلوا بنى صدقيا أمام عينيه وقلعوا عيني صدقيا وقيدوه بسلسلتين من نحاس وجاعوا به إلى بابل .

وفي الشهر الخامس في سابع الشهر وهي السنة التاسعة عشرة للملك نبوخذنصر ملك بابل جاء نبوزرادان رئيس الشرط عبد ملك بابل إلى أورشليم . وأحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت أورشليم وكل بيوت العظماء أحرقها بالنار وجميع أسوار أورشليم مستديرا هدمها كل جيوش الكلدانيين الذين مع رئيس الشرط . وبقية الشعب الذين بقوا في المدينة والهاربون الذين هربوا إلى ملك بابل وبقية الجمهور ساهم نبوزرادان رئيس الشرطة .. ٤ .

أحرق نبوزرادان الهيكل وأحرق التوراة وحمل الرجال والنساء والولدان إلى بابل ليعيشوا في الأسر وبذلك انتهت إسرائيل ويهوذا وتم سفر الملوك الثاني ، وابتدأت أيام المنفى أيام إعادة كتابة التوراة . ولترجى الحديث عن هذه الفترة الحاسمة في تاريخ التوراة إلى التذييل القادم .

القاهرة في ١٩٧٠ / ١ / ٤ .

## المراجع

- القرآن الكريم  
 الكتاب المقدس  
 صحيح البخارى  
 السيرة النبوية  
 لابين هشام  
 إنسان العيون ( السيرة الحلبية )  
 لعلى بن برهان الدين الحبل  
 بلوغ الأرب  
 للألومى  
 نهاية الأرب  
 للنويزى  
 إيران فى عهد الساسانيين  
 لكريستينسن — ترجمة د . يحيى  
 الخشاب  
 نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى اختار  
 للشيخ الشبلنجى  
 إحياء علوم الدين  
 للغزالى  
 شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام  
 لتقى الدين محمد بن أحمد الفاسى  
 حقوق الإنسان فى الإسلام  
 الدكتور على عبد الواحد وافى  
 محمد رسول الله  
 مولاي محمد على  
 الرسول . حياة محمد  
 ر . ف . بودلى ترجمة : محمد محمد  
 الإسلام والنظام العالمى الجديد  
 فرج وعبد الحميد جوده السحار  
 مولاي محمد على  
 الدين القيم  
 ترجمة أحمد جوده السحار  
 لأنى الأعلى المودودى

المستشرقون والإسلام	للمهندس زكريا هاشم زكريا
نساء النبی	للدكتورة بنت الشاطئ
عبقريّة محمد	لعباس محمود العقاد
الروض الأثف	للسهيلي
تاريخ الطبري	
مشكلة الحرية	للدكتور زكريا إبراهيم
فاطمة الزهراء والفاطميون	لعباس محمود العقاد
أسباب النزول	للواحدى
شرح نهج البلاغة	لابن أبى الحديد
الملل والنحل	لشهرستانى

# محمد رسول الله والذين معه

## السيرة النبوية في ٢٠ جزءاً

- |                           |                   |
|---------------------------|-------------------|
| ١ — إبراهيم أبو الأنبياء  | ١١ — الهجرة       |
| ٢ — هاجر المصرية أم العرب | ١٢ — غزوة بدر     |
| ٣ — بنو إسماعيل           | ١٣ — غزوة أحد     |
| ٤ — العدنانيون            | ١٤ — غزوة الخندق  |
| ٥ — قريش                  | ١٥ — صلح الحديبية |
| ٦ — مولد الرسول           | ١٦ — فتح مكة      |
| ٧ — اليم                  | ١٧ — غزوة تبوك    |
| ٨ — خديجة بنت خويلد       | ١٨ — عام الوفود   |
| ٩ — دعوة إبراهيم          | ١٩ — حجة الوداع   |
| ١٠ — عام الحزن            | ٢٠ — وفاة الرسول  |

ثمن الجزء الواحد عاды جنينان

ثمن الجزء الواحد ممتاز ثلاثة جنينات ونصف

ثمن المجموعة المجلدة تجليدا فاخرافى ٢٠ مجلدا ٩٥ جنينها

رقم الإيداع ٣٠٢٢

الترقيم الدولى ٩ — ٢٤١ — ٣١٦ — ٩٧٧